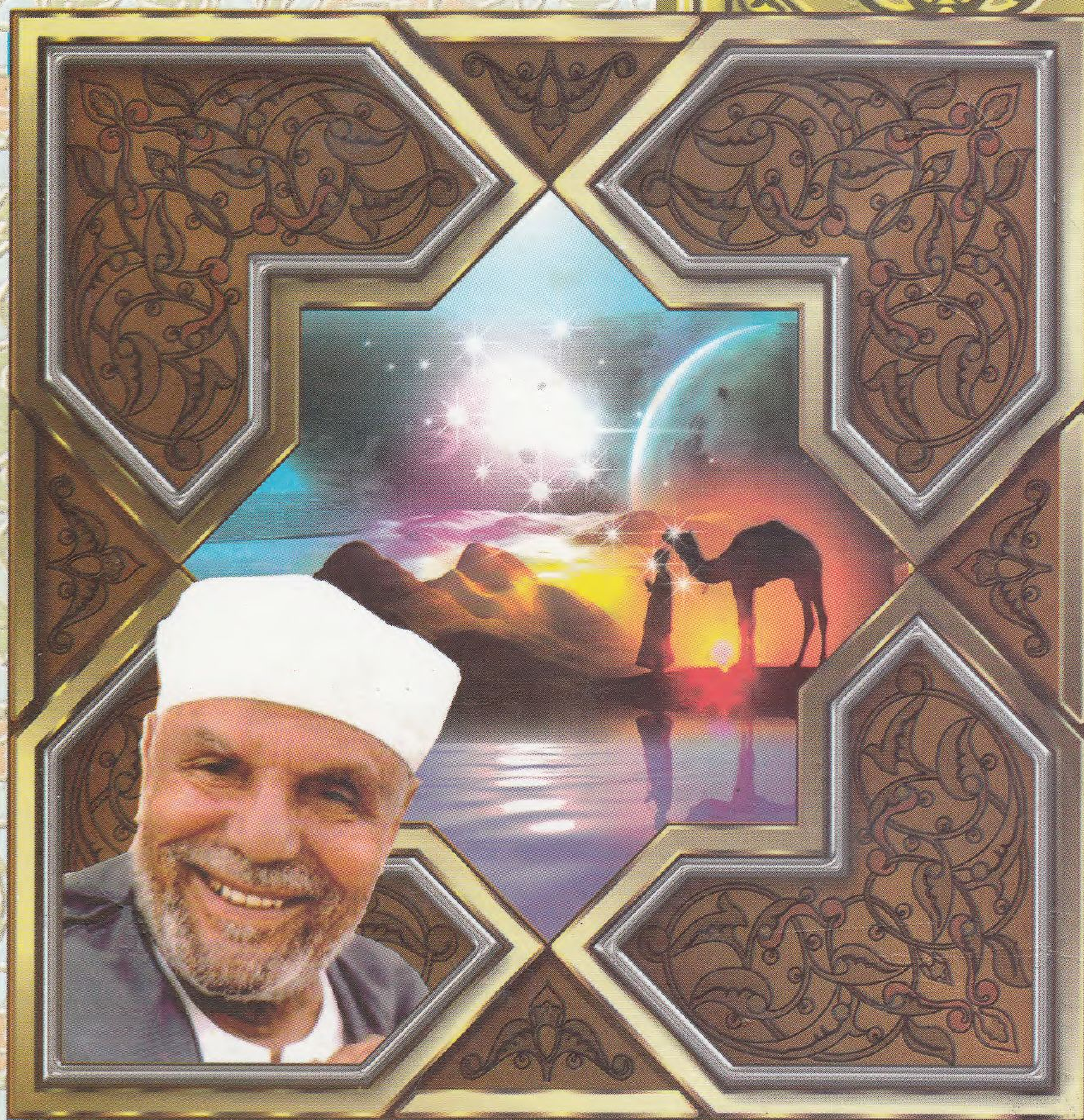
معجزات القرآن والأنبياء



لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي

أعده عبد الرحيم محمد متولي الشعراوي

دار التوفيقية للتراث

معجزات القرآن والأنبياء

للشيخ الإمام

محمد متولي الشعراوي

اعتنى به

عبد الرحيم متولي الشعراوي

دار التوفيقية للتراث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

الكتاب: معجزات القرآن والأنبياء

المؤلف: عبد الرحيم محمد متولي الشعراوي

الناشر: دار التوفيقية للتراث - القاهرة

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٤١٧١

دار التوفيقية للتراث

---

١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر - القاهرة

تليفون: ٢٥١٠٥٦٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد..

فهذا الكتاب «**معجزات القرآن والأنبياء**» **للإمام الشعراوي** - رحمه الله وجعل الجنة مثواه - يضمّ بين دفتيه جملة - مباركة - من معجزات القرآن والأنبياء كما يدلّ على ذلك عنوانه.

هذا، والمعجزة كما يقول **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - : «هي الأمر العجيب الخارق للعادة».

وتأتي المعجزة على أيدي الأنبياء لتكون حُجّة لهم، ودليلاً على صدق ما جاءوا به من عند الله تعالى.

والمعجزة لا يكون لها أثرها إلا إذا كان في شيء نبغ فيه القوم؛ لأن هذا هو مجال الإعجاز، فلو أتيناهم بمعجزة في مجال لا عِلْمَ لهم به لقالوا: لو أن لنا عِلم بهذا لأتينا بمثله؛ لذلك تأتي المعجزة فيما نبغُوا فيه، وعلموه جيدًا حتى اشتهروا به.

فلما نبغَ قومُ موسى عليه السلام في السِّحْر كانت معجزتُهُ من نوع السحر الذي يتحدّى سحرهم، فلمّا جاء عيسى عليه السلام ونبغ قومه في الطب والحكمة كانت معجزته من نفس النوع، فكان عليه السلام يُبْرِئ الأَكْمَه والأبرص وَيُحيي الموتى بإذن الله.

فلما بُعِث محمد ﷺ، ونبغ قومه في البلاغة والفصاحة والبيان، وكانوا يقيمون لها الأسواق، ويُعلّقون قصائدهم على أستار الكعبة اعتزازًا بها، فكان لابُدَّ أن

يتحدّاهم بمعجزة مِن جنس ما نبغوا فيه وهي القرآن الكريم، وهكذا تتبدّل المعجزات لتناسب كُلٌّ منها حال القوم، وتتحدّاهم بما اشتهروا به، لتكون أدعى للتصديق وأثبت لِلْحُجّة.

والقرآن كمعجزة هو أيضًا معجزة للجميع، ولابدّ أن تكون هناك معجزة لكلّ جيل. ولكلّ عصر، ويأتي الإعجاز في الآيات الكونية التي لو لم نعرفها فلن يحدث شيءٌ بالنسبة للأحكام.

مثال ذلك: لو لم نعرف أن الأرض تدور أكان انتفاعنا بالأرض يقل؟

لا، فنحن ننتفع بالأرض سواء أعلمنا كرويتها أم لم نعلم، لكن الحق - سبحانه وتعالى - يواجه العقول بما يمكن أن تطيقه. فإذا ما ارتقت العقول وتنوّرت واستنارت بمقتضى طموحاتها العلمية في الكون. فالقرآن إن لم يؤيّدها فهو لا يعارضها» ا.هـ.

هذا، وقسمنا الكتاب لقسمين:

القسم الأول: معجزة القرآن.

والقسم الثاني: معجزات الأنبياء.

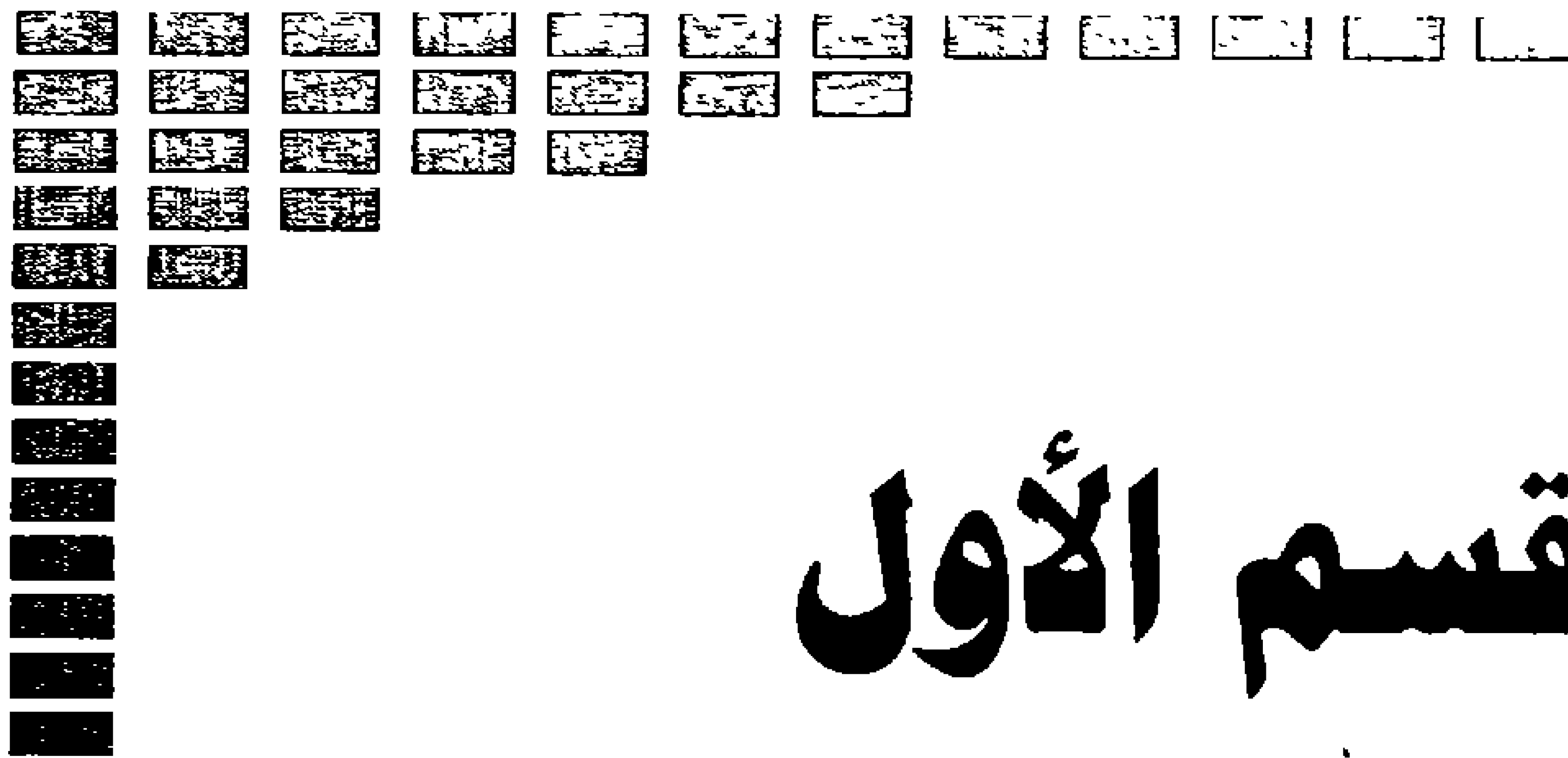
واللهُ الموفق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

جمع وترتيب

عبد الرحيم محمد متولي الشعراوي

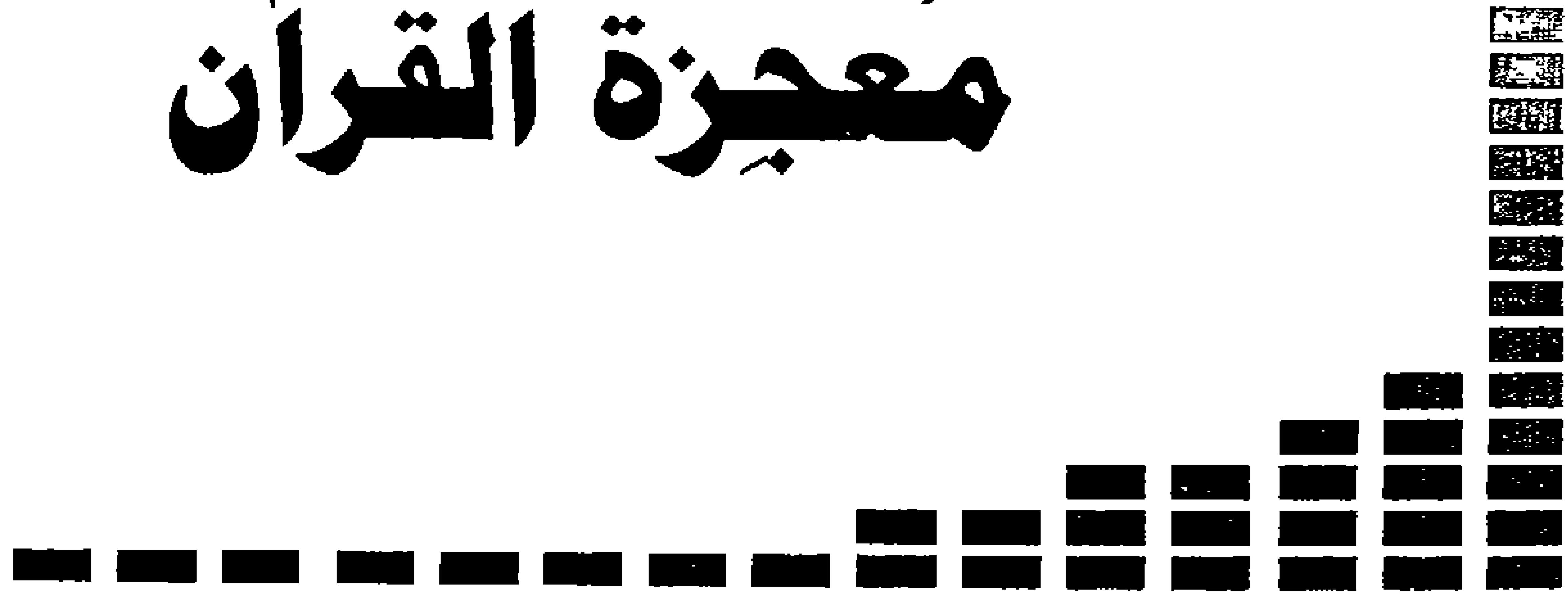
كمبيوتر/ حاتم محمد حسن ٠١١٤١١٥٨٤٥





القسم الأول

مُعجِزة القرآن



مُعْجِزَةُ خَلْقِ السَّموات والأرض

يقول الحق سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني: أعمِيَتْ أبصارهم، فلم ينظروا إلى هذا الكون البديع الصنع المحكم الهندسة والنظام، فيكفروا بسبب أنهم عَمُوا عن رؤية آيات الله.

وهكذا كلما رأيت الهمزة بعدها الواو والفعل المنفي.

لكن كيف يقول الحق سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ والحديث هنا عن السماء والأرض، وقد قال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف: ٥١].

فهذه مسألة لم يشهدها أحد، ولم يخبرهم أحد بها، فكيف يرونها؟

لكن، كيف تمَّت الرؤية العلمية لهم في مسألة خَلق السموات والأرض؟

قالوا: لأن الإنسان حين يرى هذا الكون البديع كان يجب عليه ولو بغريزة الفضول أن يتساءلَ: من أين جاء هذا الكون العجيب؟

والإنسان بطبعه يلتفت إلى الشيء العجيب، ويسأل عنه، وهو لا يعنيه ولا ينتفع به، فما بالُكَ إن كان شيئًا نافعًا له؟

إذن كان عليهم أن ينظروا: مَن الذي نبَّأ رسول الله بهذه المسألة؟ خاصة وقد كانوا يسألون عنها، وقد جاءهم رسول الله بمعجزة تثبت صدقه في البلاغ عن الله، وتُخبرهم بما كانوا يبحثون عنه، ومادام الكلام من الله فهو صدق: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وقد نزل القرآن وفي جزيرة العرب كفار عُبَّاد أصنام، وفيها اليهود وبعض

النصارى، وهما أهل كتاب يؤمنون بإله وبرُسُلٍ وبكتب، حتى إنهم كانوا يجادلون الكفار الوثنيين يقولون لهم: لقد أظلّ زمانٌ نبي سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم[١].

ومع ذلك، لما جاءهم ما عرفوا من الحق كفروا به، والتحموا بالكفار، وكوَّنوا معهم جبهة واحدة، وحزبًا واحدًا، ما جمعهم إلا كراهية النبي، وما جاء به من الدين الحق، وما أشبهَ هذا بما يفعله الآن كُلٌّ من المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي من اتحاد ضد الإسلام.

إذن: بعد أن جاء الإسلام أصبح أهلُ الكتاب والكفار ضد الإسلام في خندق واحد، وكان الكفار يسمعون من أهل الكتاب، وفي التوراة كلامًا عن خَلق السماء والأرض يقول: إن الله أول ما خلق الخَلْق خلق جوهرة، ثم نظر إليها نظرَ الهيبة فحصل فيها تفاعل وبخار ودخان، فالدخان صعد إلى أعلى فكوَّنَ السماء، والبقية ظلت فكوَّنت الأرض.

وهكذا كان لديهم طرف من العلم عن مسألة الخَلْق؛ لذلك قال الله عنهم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾.

وقد كان للمستشرقين كلام حول قوله تعالى: ﴿ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ .

قالوا: السموات جمع، والأرض كذلك جنس لها جمع، فالقاعدة تقتضي أن نقول: كُنَّ رتقًا بضمير الجمع. وصاحب هذا الاعتراض لم يَدرِ أن الله سبحانه وتعالى نظر إلى السماء كنوع والأرض كنوع، فالمراد هنا السماوية والأرضية وهما مُثَنَّى.

وفي القرآن نظائر كثيرة لهذه المسألة؛ لأن القرآن جاء بالأسلوب العربي المبني على الفطنة والذكاء ومُرونة الفهم.

فخُذ مثلاً قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات: ٩].

---

(١) أورده ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٢٤).

فلم يقُل حسب الظاهر: اقتتلتَا؛ لأن الطائفة وإن كانت مفردًا إلا أنها تحوي جماعة، والقتال لا يكون بين طائفة وطائفة، إنما بين أفراد هذه وأفراد هذه، فالقتال ملحوظ فيه الجمع ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ فإذا ما جئنا للصُّلح نرى أن الصُّلح لا يتم بين هؤلاء الأفراد، وإنما بين ممثل عن كل طائفة، فالصُّلح قائم بين طرفين؛ لذلك يعود السياق للتثنية.

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [الحجرات: ٩].

و«الرَّتق»: الشيء الملتحم الملتصق، ومعنى ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ أي: فصلناهما وأزحنا هذا الالتحام، وما ذُكِر في التوراة من أن الله تعالى خلق جوهرة، ثم نظر إليها في هَيبة، فحصل لها كذا وكذا في القرآن له ما يؤيده في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ [فصلت: ١١].

والعلماء ساعة يستقبلون الآية الكونية لهم فيها مذاهب اجتهادية مختلفة؛ لأنها تتعرَّض لحقيقة الكون، وهذا أمر قابل للخلاف، فكلٌّ واحد منهم يأخذ منه على قَدر ثقافته وعِلمه.

فالعربي القديم لم يكُنْ يعرف كثيرًا عن الظواهر الكونية، لا يعرف الجاذبية، ولا يعرف كُروية الأرض ولا حركتها، فلو أن القرآن تعرَّض لمثل هذه الأمور التي لا يتسع لها مداركه وثقافته فلربما صرفه هذا الكلام الذي لا يفهمه، ولك أن تتصوَّر لو قلتَ له مثلاً: إن الأرض كرة تدور بنا بما عليها من بحار وجبال إلخ.

والقرآن بالدرجة الأولى كتاب منهج «افعل كذا، ولا تفعل كذا» لذلك كلُّ ما يتعلق بهذا المنهج جاء واضحًا لا غموض فيه، أمَّا الأمور الكونية التي تخضع لثقافات البشر وارتقاءاتهم الحضارية فقد جاءت مُجْملة تنتظر العقول المفكرة التي تكشف عن هذه الظواهر واحدةً بعد الأخرى، وكأن الحق - تبارك وتعالى -

يعطينا مجرد إشارة، وعلى العقول المتأمّلة أن تُكمِلَ هذه المنظومة.

وقد كان لعلماء الإسلام موقفان في هذه المسألة، كلاهما ينطلق من الحب لدين الله، والغرام بكتابه، والرغبة الصادقة في إثبات صدق ما جاء به القرآن من آيات كونية جاء العلم الحديث ليقول بها الآن، وقد نزل بها القرآن منذ أكثر من أربعةَ عشر قرنًا من الزمان.

الموقف الأول:

وكان أصحابه مُولعين بأن يجدوا لكل اكتشاف جديد شاهدًا من القرآن ليقولوا: إن القرآن سبق إليه وأن محمدًا ﷺ صادق في بلاغه عن الله.

الموقف الثاني:

أما أصحاب الموقف الآخر فكانوا يتهيَّبون من هذه المسألة خشية أن يقولوا بنظرية لم تثبت بَعْد، ويلتمسون لها شاهدًا من كتاب الله، ثم يثبُت بطلانها بعد أن ربطوها بالقرآن.

والموقف الحق أن هناك فرقًا بين نظرية علمية، وحقيقة علمية، فالنظرية مسألة محلّ بحث ومحلّ دراسة لم تثبت بَعْد؛ لذلك يقولون: هذا كلام نظري أي: يحتاج إلى ما يؤيده في الواقع، أمّا الحقيقة العلمية فمسألة وقعتْ تحت التجربة، وثبت صدقها عمليًا ووثقنا أنها لا تتغير.

فعلينا - إذًا - ألا نربط القرآن بالنظرية التي تحتمل الصدق أو الكذب، حتى لا يتذبذب الناس في فَهْم القرآن، ويتهمونا أننا نُفسِّر القرآن حَسْب أهوائنا، أمّا الحقيقة العلمية الثابتة فإذا جاءت بحيث لا تُدفَع فلا مانعَ من ربطها بالقرآن.

من ذلك مسألة كروية الأرض، فعندما قال بها العلماء اعترض كثيرون وأثاروها ضجة وألَّفوا فيها كتبًا، ومنهم مَنْ حكم بكفر مَنْ يقول بذلك؛ لأن هذه المسألة لم ينص عليها القرآن، فلما تقدم العلم، وتوفرتْ له الأدلة الكافية لإثبات

هذه النظرية، فوجدوا الكواكب الأخرى مُدوَّرة كالشمس والقمر، فلماذا لا تكون الأرض كذلك؟!

كذلك إذا وقفتَ مثلاً على شاطئ البحر، ونظرتَ إلى مركب قادم من بعيد لا ترى منها إلا طرفَ شراعها، ولا ترى باقي المركب إلا إذا اقتربت منك، عَلامَ يدلُّ ذلك؟ هذا يدل على أن سطح الأرض ليس مستويًا، إنما فيه تقوُّس وانحناء يدل على كُرويتها.

فلما جاء عصر الفضاء، وصعد العلماء للفضاء الخارجي، وجاءوا للأرض بصور، فإذا بها كُروية فعلاً، وهكذا تحولتْ النظرية إلى حقيقة علمية لا تُدفع، ولا جدال حولها، ومَنْ خالفها حينما كانت نظرية لا يسعه الآن إلا قبولها والقول بها.

وما قلناه عن كُروية الأرض نقوله عن دورانها، ومَنْ كان يصدق قديمًا أن الأرض هي التي تدور حول الشمس بما عليها من مياه ومبَانٍ وغيره؟ ولك أن تأخذ كوزًا ممتلئًا بالماء، واربطه بخيط من أعلى، ثم أدِره بسرعة من أسفل إلى أعلى، تلاحظ أن فوهة الكوز إلى أسفل دون أن ينسكب الماء، لماذا؟ لأن سرعة الدوران تفوق جاذبية الأرض التي تجذب الماء إليها، بدليل أنك إذا تهاونتَ في دوران الكوز يقع الماء من فُوهته، ولابُد من وجود تأثير للجاذبية، فجاذبية الأرض هي التي تحتفظ بالماء عليها أثناء دورانها.

أما أن نلتقط نظرية وليدة في طَوْر البحث والدراسة، ثم نفرح بربطها بالقرآن كما حدث أوائل العصر الحديث والنهضة العلمية، حين اكتشف العلماءُ المجموعة الشمسية، وكانت في بدايتها سبعة كواكب فقط مُرتَّبة حسب قُربها من الشمس في المركز: عطارد، فالزهرة، فالأرض، فالمريخ، فالمشترى، فزُحَل، فأورانوس.

وهنا أسرع بعض علمائنا الكبار - منهم الشيخ المراغي - بالقول بأنها السموات السبع، وكتبوا في ذلك بحوثًا، وفي القرآن الذي سبق إلى هذا، ومرَّت الأيام، واكتشف العلماء الكوكب الثامن «نبتون»، ثم التاسع[1].

---

(١) لم يتم اكتشاف كوكب «بلوتو» إلا في عام ١٩٣٠م.

إذًا رَبْط النظرية التي لم تتأكد بَعْد علميًا بالقرآن خطأ كبير، ومن الممكن إذا توفَّر لهم أجهزةٌ أحدث ومجاهر أكبر - كما يقول بعض علماء الفضاء - لاكتشفوا كواكب أخرى كثيرة، لأن مجموعتنا الشمسية هذه واحدة من مائة مليون مجموعة في المجرة التي نسميها «سكة التبَّانة»، والإغريق يسمونها «الطريق اللَّبني».

وهذه الكواكب التي نراها كبيرة وعظيمة، لدرجة تفوق تصورات الناس، فالشمس التي نراها هذه أكبر من الأرض بمليون وربع مليون مَرَّة، وهناك من الكواكب ما يمكنه ابتلاع مليون شمس في جوفه.

والمسافة بيننا وبين الشمس ثماني دقائق ضوئية، وتُحسب الدقيقة الضوئية بأن تُضرب في ستين ثانية، الثانية الواحدة السرعة فيها ١٨٦ ألف ميل يعني: ثلاثمائة ألف كيلو متر.

أما المسافة بين الأرض والمرأة المسلسلة فقد حسبوها بالسنين الضوئية لا الدقائق، فوجدوها مائة سنة ضوئية، أما الشِّعْري الذي امتنَّ الله به في قوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النجم: ٤٩].

فهو أبعد من ذلك، وهذه الكواكب والأفلاك كلها في السماء الدنيا فقط، فما دَخْل هذا بالسموات السبع التي تحدثوا عنها؟!

لذلك حاول كثيرون عُشَّاق هؤلاء العلماء أن يمحوا هذه المسألة من كتبهم، حتى لا تكون سُبَّة في حقِّهم وزلّة في طريقهم العلمي.

كذلك من النظريات التي قالوا بها وجانبتْ الصواب قولهم: إن المجموعة الشمسية ومنها الأرض تكوَّنت نتيجة دوران الشمس وهي كتلة ملتهبة، فانفصل عنها بعض «طراطيش»، وخرج منها بعض الأجزاء التي بردتْ بمرور الوقت، ومنها تكونت الأرض، ولما بردتْ الأرض أصبحتْ صالحة لحياة النبات، ثم الحيوان، ثم الإنسان، بدليل أن باطن الأرض ما يزال ملتهبًا حتى الآن، وتتفجر منه براكين كبركان «فيزوف»[١] مثلاً.

---

(١) يقع هذا البركان على بعد ١١كم من مدينة نابولي بإيطاليا.

والقياس العقلي يقتضي أن نقول: إذا كانت الأرض قطعة من الشمس وانفصلت عنها، فمن الطبيعي أن تبرد مع مرور الزمن وتقلّ حرارتها حتى تنتهي بالاستطراق الحراري، إذًا فهذه نظرية غير سليمة، وقولكم بها يقتضي أنكم عرفتم شيئًا عن خَلْق السموات والأرض ما أخبر الله به ، وقد قال تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الكهف: ٥١].

ثم يقول في آية جامعة: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١].

والمضلّ هو الذي يأخذ بيدك عن الحقيقة إلى الباطل، وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى ما سيكون من أقوال مُضلِّلَة في هذه المسألة تقول: حدث في الخلق كيت وكيت.

والواجب علينا أن نأخذ هذه التفاصيل من الخالق ﷻ وأن نقف عند هذا الحد، لأن معرفتك بكيفية الشيء ليست شرطًا لانتفاعك به، فأنت تنتفع بمخلوقات الله وإن لم تفهم كيف خُلِقَت، وكيف كانت، انتفعنا بكروية الأرض وبالشمس وبالقمر دون أن نعرف شيئًا عنها، ووضع العلماء حسابات للكسوف وللخسوف والأوقات قبل أن تكتشف كروية الأرض.

فالرجل الأميّ الذي لا يعلم شيئًا يشتري مثلاً «التليفزيون» ويتعلم كيفية تشغيله والانتفاع به، دون أن يعلم شيئًا عن تكوينه أو كيفية عمله ونَقْله للصورة وللصوت.. إلخ، فخُذْ ما في الكون من جمال وانتفع به كما خلقه الله لك دون أن تخوض في أصل خَلْقه وكيفية تكوينه، كما لو قُدِّم لك طعام شهيّ أتبحثُ قبل أن تأكل: كيف طُهِي هذا الطعام؟!

وقد تباينتْ آراء العلماء حول هذه الآية ومعنى الرَّتْق والفَتْق، فمنهم مَنْ قال بالرأي الذي قالتْه التوراة، وأنها كانت جوهرة نظر الله إليها نظرة المهابة، وحدث لها كذا وكذا، وتكوَّنت السماء والأرض.

ومنهم مَنْ رأى أن المعنى خاصٌّ بكل من الأرض والسماء، كل على حِدَة، وأنهما لم يكونا أبدًا ملتحمتين، واعتمدوا على بعض الآيات مثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ

ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾ [عبس: ٢٤-٢٨].

وفي موضع آخر قال سبحانه: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١١، ١٢].

فالمراد - إذًا - أن الأرض وحدها كانت رَتقًا، فتفجرت بالنبات، وأن السماء كانت رتقًا فتفجرت بالمطر[1]، فشقَّ الله السماء بالمطر، وشَقَّ الأرض بالنبات الذي يصدعها: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١، ١٢].

وقال عن السماء: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥].

على اعتبار أن السماء كُلُّ ما علاك فأظلّك، فيكون السحاب من السماء.

نفهم من هذا الرأي أن الفَتْق ليس فَتْقَ السماء عن الأرض، إنما فتق كل منهما على حِدَة، وعلى كل حال هو فَهْم لا يُعطي حكمًا جديدًا، واجتهاد على قَدْر عطاء العقول قد تُثبته الأيام، وقد تأتي بشيء آخر، المهم أن القولين لا يمنع أحدُهما الآخر.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ قال أصحاب التأويل الثاني: مادام ذكر هنا الماء، فلابُدَّ أن له صلة بالرَّتْق والفَتْق في كل من الأرض والسماء.

ونلحظ أن الآية لم تَقُلْ: كل شيء حيًّا، إنما ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ وقد استدلوا بها على أن الحيَّ المراد به الحياة الإنسانية التي نحياها، ولم يفطنوا إلى أن الماء داخلٌ في تكوين كل شيء، فالحيوان والنبات يحيا على الماء فإن فَقَد الماء مات وانتهى، وكذلك الأدنى من الحيوان والنبات فيه مائية أيضًا، فكُلُّ ما فيه لمعة

---

(١) قال ابن عباس: «إن السموات كانت رَتْقًا لا تُمْطِر، والأرض كانت رَتْقًا لا تنبت، ففتق السماءَ بالمَطَر، والأرضَ بالنّبات» وفي رواية عنه: «يعني أنها كانت شيئًا واحدًا ملتزقتين ففصل اللّهُ بينهما بالهواء» انظر: «تفسير القرطبي» (٦/ ٤٤٥٩، ٤٤٦٠)، و «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٦١٦).

أو طراوة أو ليونة فيه ماء.

فالمعنى ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ أي: كل شيء مذكور موجود.

والتحقيق العلمي أن لكل شيء حياةً تناسبه، وكل شيء فيه ماء، بدليل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

والحق سبحانه يخاطبهم وهم أحياء، إذًا يحييكم أي: حياة أخرى لها قيمة؛ لأن حياتكم هذه قصاراها الدنيا، إنما استجيبوا لحياة أخرى خالدة هي حياة الآخرة.

وسُمِّى الشيء الذي يتصل بالمادة، فتدبّ فيها الحياة روحًا، فقال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩].

وسُمِّي المنهج الذي ينزل من السماء لهداية الأرض روحًا، وسُمّي المَلَك الذي ينزل به روحًا؛ لأنه يعطينا حياة دائمة باقية، لا فناء لها، وهكذا يتم الارتقاء بالحياة.

فإذا نزلنا أدنى من ذلك وجدنا للحيوان حياة، وللنبات حياة، فالحيوان يَنْفَق ويموت، والنبات إنْ منعتَه الماء جَفَّ وذَبُل وانتهى، أما الجماد فله حياة أيضًا، بدليل قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨].

فوَصَف كل ما يقال له شيء بأنه هالك، والهلاك ضد الحياة، فلابُدَّ أن تكون له حياة، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢]، فالحياة ضِدُّها الهلاك.

إذًا فكل شيء في المخلوقات حتى الجماد له حياة، وفي تكوينه مائية، كما قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [1].

(١) قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في «تفسيره» (١١/ ١٩٣): «في قوله تعالى: ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حيّ**﴾ ثلاث تأويلات: **أحدها**: أنه خلق كل شيء من الماء؛ قاله قتادة. **الثاني**: حفظ حياة كلّ شيء بالماء. **الثالث**: وجعلنا من ماء الصُّلب كلّ شيء حيّ؛ قاله قطرب. ﴿ **وجعلنا** ﴾ بمعنى خَلَقْنَا.

وروى أبو حاتم البُستي في «المسند الصحيح» له من حديث أبي هريرة، قال: قلتُ: =

ويختتم سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

يعني: أعَمُوا عن هذه الآيات التي نُبِّهوا إليها، وامتنعوا عن الإيمان؟ فكان يجب عليهم أن يلتفتوا إلى هذه الآيات العجيبة والنافعة لهم، كيف والبشر الآن يقفون أمام مخترع أو آلة حديثة أو حتى لُعبة تبهرهم فيقولون: مَنْ فعل هذا؟ ويُؤرِّخون له ولحياته، وتخرَّج في كلية كذا .. إلخ.

فمن الأوْلى أن نلتفتَ إلى الخالق العظيم الذي أبدع لنا هذا الكون، فالانصراف - إذًا - عن آيات الله والإعراض عنها حالة غير طبيعية لا تليق بأصحاب العقول.



= يا رسول الله إذا رأيتُك طابت نفسي، وقرّت عيني؛ أنبئني عن كل شيء؛ قال: «كل شيء خُلِق من الماء». قال أبو حاتم: قولُ أبي هريرة: «أنبئني عن كل شيء» أراد به عن كلّ شيء خُلق من الماء، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى إيّاه حيث قال: «كل شيء خُلِق من الماء» وإن لم يكن مخلوقًا. وقيل: الكلّ قد يُذكر بمعنى البعض كقوله: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ [النمل: ٢٣] والصحيح العموم»ا.هـ.

دلائلُ قُدرة الله تعالى في بَدْءِ الخَلْقِ وإعادَته

قال الحقُّ سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧ ﴾ [الحج: ٥ - ٧].

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ ﴾.

الريب: الشك. فالمعنى: إنْ كنتم شاكِّين في مسألة البعث، فإليكم الدليل على صِدْقه ﴿ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ﴾ أي: الخَلْق الأول، وهو آدم عليه السلام، أما جمهرة الناس بعد آدم فخُلقوا من «نطفة» حية من إنسان حي.

والمتتبع لآيات القرآن يجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول مرة في خَلْق الإنسان: ﴿ مِّن تُرَابٖ ﴾ [الحج: ٥]، ومرة ﴿ مِّن مَّآءٖ ﴾ [الطارق: ٦]، و﴿ مِّن طِينٖ ﴾ [الأنعام: ٢]، و ﴿ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾ [الحجر: ٢٦]، و ﴿ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴾ [الرحمن: ١٤]، وهذه التي دعتْ المستشرقين إلى الاعتراض على أسلوب القرآن، يقولون: من أيِّ هذه الأشياء خُلِقْتم؟

وهذا الاعتراض ناشئ من عدم فَهْم لغة القرآن، فالتراب والماء والطين والحمأ المسنون[1] والصلصال، كلها مراحل متعددة للشيء الواحد، فإذا وضعتَ

(١) الحمأ والحمأة: الطين الأسود. والمسنون: المصبوب في قالب إنساني أو مصور بصورة إنسان، أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل.

الماء على التراب صار طينًا، فإنْ تركتَ الطين حتى يتخمّر، ويتداخل بعضه في بعض حتى لا تستطيع أن تُميِّز عنصرًا فيه عن الآخر. وهذا عندما يعطَنُ وتتغير رائحته يكون هو الحمأ المسنون، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار، ومنه خلق اللَّهُ الإنسان وصوَّره، ونفخ فيه من روحه، إذًا هذه مراحل للشيء الواحد، ومرور الشيء بمراحل مختلفة لا يُغيِّره.

ثم تكلم سبحانه عن الخَلْق الثاني بعد آدم الطَّيْلاً، وهم ذريته، فقال: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥] والنطفة في الأصل هي قطرة الماء العَذْب، كما جاء في قول الشاعر:

بَقَايَـا نِطَـافٍ أودَعَ الغَـيمُ صَـفْوَهَا مُـثَقَّلَةُ الأرجَـاء زُرْقُ الجَـوانبِ

ولا تظهر زُرْقة الماء إلا إذا كان صافيًا لا يشوبه شيء، وكذلك النطفة هي خلاصة الخلاصة، لأن جسم الإنسان تحدث فيه عملية الاحتراق، وعملية الأيض أي: الهدم والبناء بصفة مستمرة ينتج عنها خروج الفضلات المختلفة من الجسم: فالبول، والغائط، والعرق، والدموع، وصَمْغ الأذن، كلها فضلات ناتجة عن احتراق الطعام بداخل الجسم حيث يمتص الجسم خلاصة الغذاء، وينقلها إلى الدم.

ومن هذه الخلاصة يُستخلص منيُّ الإنسان الذي تؤخذ منه النطفة، فهو - إذًا - خلاصة الخلاصة في الإنسان، ومنه يحدث الحمل، ويتكوَّن الجنين، وكأن الخالق ﷻ قد صَفَّاها هذه التصفية ونقَّاها كل هذا النقاء؛ لأنها ستكون أصلاً لأكرم مخلوقاته، وهو الإنسان.

وهذه النطفة لا تنزل من الإنسان إلا في عملية الجماع، وهي ألذُّ متعة في وجود الإنسان الحيِّ، لماذا؟ لو تأملتَ متعة الإنسان ولذاته الأخرى مثل: لذة الذَّوْق، أو الشم، أو الملمس، فهي لذَّاتٌ معروفة محددة بحاسَّة معينة من حواس الإنسان، أمّا هذه اللذة المصاحبة لنزول المني أثناء هذه العملية الجنسية فهي لذة شاملة يهتز لها الجسم كله، ولا تستطيع أن تُحدِّد فيها منطقة

الإحساس، بل كل ذرة من ذرات الجسم تحسها.

لذلك أَمَرنا رَبُّنا ﷻ أن نغتسل بعد هذه العملية؛ لأنها شغلتْ كل ذرّة من ذرّات تكوينك، وربما - عند العارفين بالله - لا تغفل عن الله تعالى إلا في هذه اللحظة؛ لذلك كان الأمر بالاغتسال بعدها، هذا قول العلماء.

أما أهل المعرفة عن الله وأهل الشطح وأهل الفيوضات فيقولون: إن الله خلق آدم من طين، وجعل نَسْله من هذه النطفة الحية التي وضعها في حواء، ثم أتى منها كل الخَلْق بعده، فكأن في كل واحد منا ذرة من أبيه آدم؛ لأنه لو طرأ على هذه الذرة موت ما كان نَسْلٌ بعد آدم، فهذه الذرة موجودة فيك في النطفة التي تلقيها ويأتي منها ولدك، وهي أصْفى شيء فيك؛ لأنها الذرة التي شهدتْ الخَلْق الأول خَلْق أبيك آدم عليه السلام.

وقد قرّبنا هذه المسالة وقلنا: لو أنك أخذت سنتيمترًا من مادة ملونة، ووضعته في قارورة ماء، ثم أخذت ترجُّ القارورة حتى اختلط الماء بالمادة الملونة فإن كل قطرة من الماء بها ذرة من هذه المادة، وهكذا لو ألقيتَ القارورة في برميل .. إلخ.

إذًا فكل إنسان مِنّا فيه ذرة من أبيه آدم عليه السلام، هذه الذرة شهدتْ خَلْق آدم، وشهدتْ العهد الأول الذي أخذه الله على عباده في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

لذلك يُسمِّي الله تعالى إرسال الرسل بَعْثًا فيقول: ﴿ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان: ٤١] بعثه: كأنه كان موجودًا وله أصْل في رسالة مباشرة من الله حين أخذ العهد على عباده، وهم في ظَهْر آدم عليه السلام، كما يخاطب الرسول بقوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الغاشية: ٢١] أي: مُذكِّر بالعهد القديم الذي أخذناه على أنفسنا.

لذلك اقرأ الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ

وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾.

هذا في مرحلة الذَّرِّ قبل أن يأتي الهوى في النفوس: ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

إذًا بعث الله الرسل لتُذكِّر بالعهد الأول، حتى لا تحدث الغفلة وحتى تقيم على الناس الحجة.

ثم يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ سمِّيت النطفة علقة؛ لأنها تعلَقُ بالرحم، يقول تعالى في آية أخرى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القيامة:٣٧، ٣٨].

فالمني هو السائل الذي يحمل النطفة، وهي الخلاصة التي يتكوَّن منها الجنين، والعَلَقة هنا هي البُوَيْضَة المخصَّبة، فبعد أن كان للبويضة تعلُّق بالأم، وللحيوان المنوي «النطفة» تعلُّق بالأب، اجتمعا في تعلُّق جديد والتقيَا ليتشبَّثا بجدار الرحم، وكأن فيها ذاتية تجعلها تعلَق بنفسها، يُسمُّونها «زيجوت».

ومنها قولهم: فلان هذا مثل العلقة إذا كان ملازمًا لك.

بعد ذلك تتحول العلقة إلى مضغة ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ و المضغة: هي قطعة لحم صغيرة قَدْر ما يُمضغ من الطعام، وهو خليط من عدَّة أشياء، كما لو أكلتَ مثلاً قطعة لحم مع ملعقة خضار مع ملعقة أرز، وبالمضغ يتحولّ هذا إلى خليط، ذلك لأن جسم الإنسان لا يتكونَّ من عنصر واحد، بل من ستة عشر عنصرًا.

هذه المضغة ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ معنى مخلقة يعني: يظهر عليها هيكل الجسم، وتتشكَّل على صورته، فهذه للرأس، وهذه للذراع، وهذه للرِّجْل وهكذا، يعني تخلَّقت على هيئة الإنسان.

أما غير المخلَّقة، فقد عرفنا مؤخرًا أنها الخلايا التي تُعوِّض الجسم وتُرقِّعه إذا أصابه عَطَب فهي بمثابة «احتياطي» لإعادة تركيب ما تلف من أنسجة الجسم وترميمها، كما يحدث مثلاً في حالة الجُرْح فإنْ تركتَه لطبيعة الجسم يندمل شيئًا

فشيئًا، دون أن يتركَ أثرًا.

نرى هذا في أولاد الفلاحين، حين يُجرح الواحد منهم، أو تظهر عنده بعض الدمامل، فيتركونها لمقاومة الجسم الطبيعية، وبعد فترة تتلاشى هذه الدمامل دون أنْ تترك أثرًا على الإطلاق؛ لأنهم تركوا الجسم للصيدلية الربانية.

أما إذا تدخَّلنا في الجُرْح بمواد كيماوية أو خياطة أو خلافه فلابُدَّ أن يترك أثرًا، فترى مكانه لامعًا؛ لأن هذه المواد أتلفت مسام الجسم؛ لذلك نجد مثل هذه الأماكن من الجسم قد تغيرت، ويميل الإنسان إلى حَكِّها «وهرشها»؛ لأن هذه المسام كانت تُخرِج بعض فضلات الجسم على هيئة عرق، فلما انسدت هذه المسام سببت هذه الظاهرة، هذا كله لأننا تدخَّلْنا في الطبيعة التي خلقها الله.

إذًا فمعنى ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ هي الصيدلية التي تُعوِّض وتُعيد بناء ما تلف من جسم الإنسان.

ثم يقول سبحانه: ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي: نُوضِّح لكم كل ما يتعلَّق بهذه المسألة ﴿ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ ﴾ وهي المضغة التي قُدِّر لها أن تكون جنينًا يكتمل إلى أن يولد؛ لذلك قال: ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أو نسقطه ميتًا قبل ولادته.

فإن قلتَ: وما الحكمة من خَلْقه وتصويره، إن كان قد قُدِّر له أن يموت جنينًا؟ **نقول**: لنعرف أن الموت أمر مُطلْق لا رابطَ له ولا سنّ، فالموت يكون للشيخ كما يكون للجنين في بطن أمه، ففي أيِّ وقت ينتهي الأجل.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ قال: ﴿ نُخْرِجُكُمْ ﴾ بصيغة الجمع، ولم يَقُل: أطفالاً، إنما قال: ﴿ طِفْلًا ﴾ بصيغة المفرد، لماذا؟ قالوا: في اللغة ألفاظ يستوي فيها المفرد والجمع، فطفل هنا بمعنى أطفال، وقد وردتْ أطفال في موضع آخر في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ[1] ﴾ [النور: ٥٩].

---

(١) حلم الصبي يحلم حُلمًا: بلغ مبلغ الرجال.

وكما تقول: هذا رجل عَدْل، ورجل عَدْل، وفي قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام يتكلم عن الأصنام فيقول: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ ﴾ [الشعراء: ٧٧] ولم يقل: أعداء. وحينما تكلم عن ضَيْفه قال: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي ﴾ [الحجر: ٦٨] ولم يقل ضيوفي، إذًا المفرد هنا يُؤدِّي معنى الجمع.

ثم يقول سبحانه: ﴿ ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ﴾ وهكذا، ينقلنا السياق من الطفولة إلى المرحلة النهائية من عمر الإنسان، وسبق أن تحدَّثنا عن مراحل عُمْر الإنسان، وأنه يمر بمرحلة الرُّشْدْ: رُشْد البنية حين يصبح قادرًا على إنجاب مثله، ورُشد العقل حين يصبح قادرًا على التصرّف السليم، ويُحسن الاختيار بين البدائل.

ثم تأتي مرحلة الأشد: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ [الأحقاف: ١٥]. يعني: نضج نُضجًا من حوادث الحياة أيضًا.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ ﴾ وأرذل العمر يعني رديئه، حين تظهر على الإنسان علامات الخَوَر والضعف ﴿ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا ﴾ لأنه ينسى، وعندها يعرف أن صحته وقوته وسلطانه ليست ذاتية فيه، إنما موهبة له من الله.

وإذا بلغ الرجل أرذلَ العمر يعود من جديد إلى مرحلة الطفولة تدريجيًا، فيحتاج لَمِن يأخذ بيده ليقوم أو ليمشي، كما تأخذ بيد الطفل الصغير، فإذا تكلّم يتهته ويتلعثم كالطفل الذي يتعلم الكلام.. وهكذا في جميع شئونه.

لذلك يقولون: الزواج المبكر أقرب طريق لإنجاب «والد» يعولُك في طفولة شيخوختك، ولم يقُل: ولدًا؛ لأنه سيقوم معك فيما بعد بدور الوالد، يقولون: لحق والده يعني : سِنُّهما متقارب.

لكن، لماذا يُرَدُّ بعضنا إلى أرذل العمر دون بعض؟ الحق سبحانه جعلها نماذج حتى لا نقول: يا ليت أعمارنا تطول؛ لأن أعمار الجميع لو طالت إلى أرذَلِ العمر لأصبح الأمر صعبًا علينا، فمن رحمة الله بنا أن خلق الموت.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ

وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ .

أي: كما كان خَلْق الإنسان من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مُضغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة، ثم أخرجه طفلاً، وبلغ أَشُدَّهُ، ومنهم مَن مات، ومنهم مَن يُرَدُّ إلى أرذَل العمر، كذلك الحال في الأرض:﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ ﴾.

هامدة: ساكنة، ومنه قولنا للولد كثير الحركة: اهمد .

﴿ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ ﴾ أي: تحركت ذراتُها بالنبات بعد سكونها.

والاهتزاز: تحرُّك ما كنت تظنه ثابتًا، وليس ما كان ثابتًا في الواقع؛ لأن لكل كائن حركة في ذاته، حتى قطعة الحديد الجامدة لها حركة بين ذراتها، لكن ليس لديك من وسائل الإدراك ما تدرك به هذه الحركة. ولو تأملت المغناطيس لأدركتَ هذه الحركة بين ذراته، فحين تُدِّلك القضيب الممغنط وتُمرِّره على قضيب آخر غير مُمغنط في اتجاه واحد، فإنه يكتسب منه المغناطيسية، وتمرير المغناطيس في اتجاه واحد معناه تعديل للذرات لتحمل شحنة واحدة سالبة أو موجبة، فإن اختلف اتجاه الدَّلْك فإن الذرات أيضًا تختلف.

إذًا في الحديد - رمز الصلابة والجمود - حركة وحياة تناسبه، وإن خُيِّل إليك أنه أصمُّ جامد في ظاهره.

لذلك نقول: ﴿ هَامِدَةٗ ﴾ يعني: ساكنة في رَأي العلم، حيث لا نباتَ فيها ثم ﴿ ٱهۡتَزَّتۡ ﴾ يعني: زادت ورَبَت وتحركت لإخراج النبات، إنما هي في الحقيقة لم تكُنْ ساكنة مُطلقًا؛ لأن فيها حركة ذاتية بين ذراتها.

ومعنى ﴿ وَرَبَتۡ ﴾ أي: زادت عن حجمها، كما تزيد حبة الفول مثلاً حين تُوضَع في الماء، وتأخذ حظها من الرطوبة، وكذلك في جميع البقول، وهذه الزيادة في حجم الحبة هي التي تفلقها إلى فلقتين في عملية الإنبات، ويخرج منها زبان يتجه إلى أعلى فيكون الساق الذي يبحث عن الهواء، وإلى أسفل فيكون الجذر الذي يبحث عن الماء، وتظل هاتان الفلقتان مصدرَ غذاءٍ للنبتة حتى تقوى، وتستطيع أن تمتصَّ غذاءها من التربة، فإذا أدَّتْ هاتان الفلقتان مهمتهما في تغذية

النبتة تحوَّلتَا إلى ورقتين، وهما أول ورقتين في تكوين النبتة.

كذلك، نلاحظ في تغذية النبات أنه لا يأخذ كُلّ غذائه من التربة، إنما يتغذى بنسبة ربما ٩٠ ٪ من غذائه من الهواء، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة إذا نظرتَ إلى إصيص به زرع، فسوف تجد ما نقص من التربة كمية لا تُذكَر بالنسبة لحجم النبات الذي خرج منها.

وحين تتأمل جذر النبات تجد فيه آية من آيات الله، فالجذر يمتد إلى أن يصل إلى الرطوبة أو الماء، حتى إذا وصل إلى مصدر غذائه توقَّف، ولك أن تنظر مثلاً إلى «كوز الحلبة» فسوف تجد الجذور غير متساوية في الطول، بحسب بُعد الحبة عن مصدر الرطوبة.

﴿ وَرَبَتْ ﴾ أي: زادت وانتفشت، كما يحدث في العجين حين تضع فيه الخميرة ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾.

هذه صورة حيَّة واقعية نلاحظها جميعًا عيانًا: الأرض تكون جرداء ساكنة، لا حركةَ فيها، فإذا ما نزل عليها الماء تغيرت وتحركت ذراتها وتشققت عن النبات، ولو حتى بالمطر الصناعي، كما كنا نرى في عرفة مثلاً ينزل عليها المطر الصناعي فيخضرُّ الوادي، لكن حينما ينقطع الماء يعود كما كان لعدم موالاة الماء، ولو واليتَ عليها بالماء لصارت غابات وأحراشًا وبساتين كالتي نراها في أوروبا.

والمطر لا يحتاج أن تُسوِّي له الأرض، لأنه يسقِي المرتفع والمنخفض على السواء، على خلاف الأرض التي تسقيها أنت لابُدَّ أن تُسوِّيها للماء حتى يصل إليها جميعًا.

فإذا أنزل الله تعالى المطر على الأرض الجدباء الجرداء تراها تتفتق بالنبات، فمن أين جاءت هذه البذور؟! وكيف لم يُصِبها العطب وهي في الأرض طوال هذه الفترات؟ الأرض هي التي تحفظها من العطب إلى أن تجد البيئة المناسبة للإنبات، وهذا النبات الذي يخرج من الأرض دون تدخُّل الإنسان يسمونه «عِذْى».

أما عن نَقْل هذه البذور في الصحراء وفي الوديان، فهي تنتقل بواسطة الريح،

أو في رَوَث الحيوانات.

ومعنى: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ الزوج: البعض يظن الزوج يعني الاثنين، إنما الزوج كلمة مفردة تدل على واحد مفرد معه مِثله من جنسه، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [النجم: ٤٥]. فكل منهما زوج، وكما نقول: زوج أحذية يعني فردة حذاء معها فردة أخرى مثلها، ومثلها كلمة توأم يعني مولود معه مثله فكل واحد منهما يسمى «توأم» وهما معًا «توأمان» ولا نقول: هما توأم.

وهنا مظهر من مظاهر دِقَّة الأداء القرآني: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ لأن كل المخلوقات، سواء أكانت جمادًا أو نباتًا أو حيوانًا، لابُدَّ فيه من ذكر وأنثى، هذه الزوجية قال الله فيها: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، حتى في الجماد الذي نظنه جمادًا لا حركةَ فيه، يتكوَّن من زوجين: سالب وموجب في الكهرباء، وفي الذرة، وفي المغناطيس، فكلُّ شيء يعطي أعلى منه، فلابُدَّ فيه من زوجين.

لذلك، فالحق سبحانه وتعالى حينما عالج هذه المسألة عالجها برصيد احتياطي في القرآن، يقول سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦].

فقوله سبحانه: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ رصيد عالٍ لما سيأتي به العلم من اكتشافات تثبت صِدق القرآن على مَرِّ الأيام، ففي الماضي عرفنا الكهرباء، وأنها سالب وموجب فقلنا: هذه مما لا نعلم، وفي الماضي القريب عرفنا الذرة فقلنا: هذه مما لا نعلم، وهذا وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم.

إذًا خُذْها قضية عامة: كل شيء يتكاثر إلى أعلى منه، فلابُدَّ أن فيه زوجية.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ فالزوج من النبات مفرد معه مثله، وهذا واضح في لقاح الذكر والأنثى، هذا اللقاح قد يكون في الذكر وحده، أو في الأنثى وحدها كما في النخل مثلاً، وقد يكون العنصران معًا في النبات

الواحد كما في سنبلة القمح أو في كوز الذرة.

ولو تأملت نبات الذُّرة لوجدتَ له في أعلاه «شُوشه» بها حبيبات دقيقة تحمل لقاح الذكورة، وفي منتصف العود يخرج الكوز، وبه شعيرات تصل كل شعرة منها إلى حبة من حبات الذرة المصطفة على الكوز، وهذه تحمل لقاح الأنوثة، فإذا هبَّت الريح هزَّتْ أعلى العود فتساقطت لقاحات الذكورة على هذه الشعيرات فلقحتها؛ لذلك نرى الحبة التي لا يخرج منها شعرة إلى خارج الغلاف تضمر وتموت؛ لأنها لم تأخذ حظها من اللقاح.

ومعنى ﴿ بَهِيجٍ ﴾ من البهجة، فالمراد: الشيء حسن المنظر والجميل الذي يجذب الأنظار إليه، وبهجة النظر إلى النبات شائعة لا تقتصر على مَنْ يملكه بخلاف الأكل منه، فحين تمر ببستان أو حديقة تتمتع بمنظرها وجمال ألوانها وتُسَرُّ برائحتها.

وفي النفس الإنسانية ملكات تتغذى على هذه الخضرة، وعلى هذه الألوان وتنبسط لهذا الجمال، ولو لم تكُن تمتلكه.

لذلك الحق - سبحانه وتعالى - ينبهنا إلى هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ ﴾ [الأنعام: ٩٩] أي: أن النظر مشاع للجميع، ثم بعد ذلك اتركوا الخصوصيات لأصحابها، تمتَّعوا بما خلق الله، ففي النفس ملكَات أخرى غير الطعام.

واقرأ أيضًا قوله تعالى في الخيل: ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝ ﴾ [النحل: ٦] فليست الخيل لحمل الأثقال فقط، وإنما فيها جمال وأُبَّهة، تُرضِي شيئًا في نفوسكم، وتُشبع ملكَة من ملكاتها.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝ ﴾ [الحج: ٦].

أي: أن ما حدث في خَلْق الإنسان تكوينًا، وما حدث في إنبات الزرع تكوينًا ونماءً، يردُّ هذا كله إلى أن الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ فلماذا أتى بالحق ولم يقُل الخالق؟

قالوا: لأن الخالق قد يخلق شيئًا ثم يتخلى عنه، أمّا الله - سبحانه وتعالى - فهو الخالق الحق، ومعنى الحق أي: الثابت الذي لا يتغير، كذلك عطاؤه لا يتغير، فسوف يظل سبحانه خالقًا يعطيك كل يوم؛ لأن عطاءه سبحانه دائم لا ينفد.

فمعنى ﴿ٱلْحَقُّ﴾ هنا الثابت الذي لا يتغير في الخَلْق وفي العطاء. فلا تظن أن عطاء الله لك شيء جديد، إنما هو عطاء قديم يتكرر لك ولغيرك.

ثم يقول تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كما قُلنا في الآية السابقة: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: ساكنة لا حياةَ فيها، والله وحده القادر على إحيائها؛ لذلك نجد علماء الفقه يُسمُّون الأرض التي نصلحها للزراعة «إحياء الموات» فالله تعالى هو القادر وحده على إحياء كل ميت؛ لذلك يقول بعدها: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

ومادام الأمر كذلك ومادُمتم تشاهدون آية إحياء الموات في الأرض الميتة فلا تنكروا البعث وإعادتكم بعد الموت. فيقول تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٧].

وقد سبق أن أنكروا البعث بعد الموت وقالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧﴾ [الصافات: ١٦، ١٧].

فيردُّ عليهم الحق سبحانه: نعم، سنعيدكم بعد الموت، والذي خلقكم من لا شيء قادرٌ على إعادتكم من باب أولى؛ لذلك يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

والحق سبحانه هنا يخاطبنا على قَدْر عقولنا؛ لأننا نفهم أن الخَلْق من موجود أهون من الخَلْق من عدم، أما بالنسبة للخالق ﷻ فليس هناك سَهْل وأسهل، ولا هَيِّن وأهون.

---

(١) روى الإمام أحمد عن أبي رُزين العقيلي ﷺ قال: قلتُ: يا رسول الله، كيف يعيد الله الخلق؟ وما آية ذلك؟ قال: «أَمَا مَرَرْتَ بوادي قومك جَدْبًا، ثم مَرَرْتَ به يَهْتَزّ خَضِرًا؟» قلت: نعم. قال: «فَتِلْكَ آيةُ الله في خَلْقِه. كذلك يحيي الله الموتى».

فقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ كأن عملية إحياء الموتى ليست مُنْتهى قدرة الله، إنها في قدرته تعالى كثير من الآيات والعجائب، ومعنى: ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي: لا شَكَّ فيها. والساعة: أي زمن القيامة وموعدها، لكن القيامة ستكون للحساب وللفَصل بين الناس، فلابُدَّ من بَعثهم من القبور؛ لذلك يقول بعدها: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾.

فكُلَّ ما تقدَّم ناشئ من أنه سبحانه هو الحق؛ ولأنه سبحانه الحق، فهو يُحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير، والساعة آتية لا رَيْبَ فيها، وهو سبحانه يبعث مَنْ في القبور.



مُعْجِزَةُ خَلْقِ الأرض

قال الحقُّ سبحانه: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٥].

وهكذا يدلُّنا الحق سبحانه على أن الأرض خُلِقت على مراحل، ويشرح ذلك في قوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت: ٩، ١٠].

وهكذا عَلِمنا أن جِرم الأرض العام قد خُلِق أولاً: وهو مخلوق على هيئة الحركة؛ ولأن الحركة هي التي تأتي بالمَيدان - التأرجُح يميناً وشمالاً - وعدم استقرار الجِرْم على وَضْع ، لذلك شاء سبحانه أن يخلق في الأرض الرواسي لتجعلها تبدو ثابتة غير مُقلقة، والرَّاسي هو الذي يَثبت.

ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الاستقرار لما خلق الله الجبال، ولكنه خلقَ الأرض على هيئة الحركة، ومنع أن تميدَ بخَلْق الجبال ليجعلَ الجبال رواسيَ للأرض.

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨].

وكلمة ﴿ وَأَلْقَىٰ ﴾ تدلُّ على أن الجبال شيء متماسك وُضِع ليستقر.

ثم يعطف سبحانه على الجبال: ﴿ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا ﴾ ولم يأت الحق سبحانه بفعل يناسب الأنهار، ومن العجيب أن الأسلوب يجمع جماداً في الجبال، وسيولة في الأنهار، وسبلاً أي طرقًا، وكُلُّ ذلك: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾. أي: أن الجَعْل كلّه لعلنا نهتدي

ونعلم أن العرب كانوا يهتدون بالجبال، ويجعلون منها علامات، والمَثَل هو

جبل «هرشا» الذي يقول فيه الشاعر:

خُـذُوا بَطْـن هرشـا أو قَفَاهَـا فإنَّـهُ ... كِـلاَ جَانِـبي هرشـا لَهُـنّ طَـريقُ

وأيضًا جبل التوباد كان يُعتبر علامة.

وكذلك قول الحق سبحانه: ﴿ وَنَـٰدَيۡنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ ﴾ [مريم: ٥٢].

وهكذا نجد من ضمن فوائد الجبال أنها علاماتٌ نهتدي بها إلى الطريق وإلى الأماكن، وتلك من المهام الجانبية للجبال.

أو: ﴿ لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ باتعاظكم بالأشياء المخلوقة لكم، لكي تهتدوا لِمَنْ أوجدها لكم.



القُرآن وَلُحوم البِحَار

قال الحقُّ سبحانه :﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤].

قال **الإمام الشعراوي** – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية: التسخير: هو إيجاد الكائن لمهمة لا يستطيع الكائن أن يتخلَّف عنها، ولا اختيارَ له في أن يؤدّيها أو لا يُؤدّيها.

ونعلم أن الكون كله مُسخَّر للإنسان قبل أن يُوجدَ؛ ثم خلق الله الإنسان مُختارًا.

وقد يظن البعض أن الكائنات المُسخّرة ليس لها اختيار، وهذا خطأ؛ لأن تلك الكائنات لها اختيار حَسمتْه في بداية وجودها، ولنقرأ قول الحق: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وهكذا نفهم أن الحق سبحانه خيَّر خلقه بين التسخير وبين الاختيار، إلا أن الكائنات التي هي ما دون الإنسان أخذتْ اختيارها مرَّة واحدة؛ لذلك لا يجب أن يُقال: إن الحق سبحانه هو الذي قهرها، بل هي التي اختارت من أول الأمر؛ لأنها قدرتْ وقت الأداء، ولم تقدر فقط وقت التحمل كما فعل الإنسان، وكأنها قالت لنفسها؛ فلأخرج من باب الجمال؛ قبل أن ينفتح أمامي باب ظلم النفس.

ونجد الحق سبحانه يصف الإنسان: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فقد ظلم الإنسانُ نفسهَ حين اختار أنْ يحملَ الأمانة؛ لأنه قدر وقت التحمُّل ولم يقدر وقت الأداء، وهو جَهُول لأنه لم يعرف كيف يُفرِّق بين الأداء والتحمُّل،

بينما منعت الكائنات الأخرى نفسها من أن تتحمَّل مسئولية الأمانة، فلم تظلم نفسها بذلك.

وهكذا نصل إلى تأكيد معنى التسخير وتوضيحه بشكل دقيق، ونعرف أنه إيجاد الكائن لمهمة لا يملك أن يتخلَّف عنها؛ أما الاختيار فهو إيجاد الكائن لِمُهمة له أن يُؤدِّيها أو يتخلَّف عنها.

وأوضحنا أن المُسخَّرات كان لها أنْ تختارَ من البداية، فاختارتْ أن تُسخَّر وألا تتحملَ الأمانة، بينما أخذ الإنسانُ المهمةَ، واعتمد على عقله وفِكْره، وقَبِل أن يُرتِّب أمور حياته على ضوء ذلك.

ومع ذلك أعطاه الله بعضًا من التسخير كي يجعل الكون كله فيه بعضًا من التسخير وبعضًا من الاختيار؛ ولذلك نجد أن بعضًا من الأحداث تجرى على الإنسان ولا اختيار له فيها: كأن يمرضَ أو تقع له حادثة أو يُفلس.

ولذلك أقول: إن الكافر مُغفَّل لاختياره؛ لأنه ينكر وجود الله ويتمرَّد على الإيمان، رغم أنه لا يقدر أن يصُدَّ عن نفسه المرض أو الموت.

وفي الآية التي نحن بصددها الآن يقول الحق سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾ فهذا يعني أنه هو الذي خلق البحر، لأنه هو الذي خلق السموات والأرض؛ وجعل اليابسة ربع مساحة الأرض؛ بينما البحار والمحيطات تحتل ثلاثة أرباع مساحة الأرض.

أي: أنه يُحدِّثنا هنا عن ثلاثة أرباع الأرض، وأوجد البحار والمحيطات على هيئة نستطيع أن نأخذَ منها بعضًا من الطعام فيقول: ﴿ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾.

ومن بعض عطاءات الحق سبحانه أن يأتي المَدُّ أحيانًا ثم يَعقبه الجَزْر؛ فيبقى بعض من السمك على الشاطئ، أو قد تحمل موجة عَفيَّة بعضًا من السمك وتلقيه على الشاطئ.

وهكذا يكون العطاء بلا جَهد من الإنسان، بل إن وجودَ بعض من الأسماك على الشاطئ هو الذي نبَّه الإنسان إلى أهمية أن يحتالَ ويصنع السِّنارة؛ ويغزل الشبكة؛ ثم ينتقل من تلك الوسائل البدائية إلى التقنيّات الحديثة في صيد الأسماك.

لكن الـ﴿ حِلْيَةً ﴾ التي يتم استخراجها من البحر فهي اللؤلؤ، وهي تقتضي أن يغوصَ الإنسان في القاع ليلتقطها. ويلفتنا الحق سبحانه إلى أسرار كنوزه فيقول: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ [طه: ٦].

وكل كنوز الأمم توجد تحت الثَّرى، ونحن إن قسمنا الكرة الأرضية كما نقسم البطيخة إلى قِطَع كالتي نُسميّها «شقة البطيخ» سنجد أن كنوز كل قطعة تتساوى مع كنوز القطعة الأخرى في القيمة النفعية؛ ولكن كُلّ عطاء يوجد بجزء من الأرض له ميعاد ميلاد يحدده الحق سبحانه.

فهناك مكان في الأرض جعل الله العطاء فيه من الزراعة؛ وهناك مكان آخر صحراوي يخاله الناس بلا أي نفع، ثم تنفجر فيه آبار البترول، وهكذا.

وتسخير الحق سبحانه للبحر ليس بإيجاده فقط على الهيئة التي هو عليها؛ بل قد تجد له أشياء ومهام أخرى مثل انشقاق البحر بعصا موسى عليه السلام؛ وصار كل فِرْق كالطَّود العظيم.

ومن قبل ذلك حين حمل اليَمّ موسى عليه السلام بعد أن ألقتْه أمه فيه بإلهام من الله: ﴿ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ ﴾ [طه: ٣٩].

وهكذا نجد أن أمرًا من الله قد صدر للبحر بأن يحملَ موسى إلى الشاطئ فَور أن تُلقيَه أمه فيه.

وهكذا يتضح لنا معنى التسخير للبحر في مهام أخرى، غير أنه يوجد به السمك ونستخرج منه الحُليّ. ونعلم أن ماءَ البحر مالح؛ عكس ماء النهر وماء المطر؛ فالمائية تنقسم إلى قسمين؛ مائية عَذبة، ومائية مِلْحية.

وقوله الحق عن ذلك: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [فاطر: ١٢].

ويسمُّونهم الاثنين على التغليب في قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ [الرحمن: ١٩].

والمقصود هنا الماء العَذْب والماء المالح، وكيف يختلطان، ولكن الماء العَذْب يتسرَّب إلى بطن الأرض، وأنت لو حفرتَ في قاع البحر لوجدْتَ ماء عَذْبًا، فالحق سبحانه هو الذي شاء ذلك وبيَّنه في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٢١].

وهنا يقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾.

واللحم إذا أُطلق يكون المقصود به اللحم المأخوذ من الأنعام، أما إذا قُيِّد بـ «لحم طري» فالمقصود هو السمك، وهذه مسألة من إعجازية التعبير القرآني؛ لأن السمك الصالح للأكل يكون طَرّيًا دائمًا.

ونجد مَن يشتري السمك وهو يَثْني السمكة، فإن كانت طريّة فتلك علامةٌ على أنها صالحةٌ للأكل، وإن كانت لا تنثنى فهذا يعني أنها فاسدة، وأنت إن أخرجت سمكة من البحر تجد لحمها طَرّيًا؛ فإن ألقيتها في الماء فهي تعود إلى السباحة والحركة تحت الماء؛ أما إن كانت ميتة فهي تنتفخ وتطفو.

وتقييد اللحم هنا بأنه طريّ كي يخرجَ عن اللحم العادي وهو لَحم الأنعام؛ ولذلك نجد العلماء يقولون: مَنْ حلفَ ألا يأكل لَحمًا؛ ثم أكل سمكًا فهو لا يحنث؛ لأن العُرف جرى على أن اللحم هو لَحم الأنعام.

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية عن تسخير البحر: ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾.

وهكذا نجد أن هذه المسألة تأخذ جهدًا؛ لأنها رفاهية؛ أما السمك فقال عنه مباشرة: ﴿ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾.

والأكل أمر ضروري لذلك تكفّله الله وأعطى التسهيلات في صَيده، أما الزينة فلكَ أن تتعبَ لتستخرجه، فهو تَرَفٌ. وضروريات الحياة مَجْزولة؛ أما تَرَف الحياة فيقتضي منك أن تغطسَ في الماء وتتعبَ من أجله.

وفي هذا إشارة إلى أن مَنْ يريد أن يرتقي في معيشته؛ فليُكثِر من دخله ببذل عرقه؛ لا أن يُترِف معيشته من عرق غيره.

ويقول سبحانه: ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ .

والحِلْية كما نعلم تلبسها المرأة. والمَلْحظ الأدنى هنا أن زينةَ المرأة هي من أجل الرجل؛ فكأن الرجل هو الذي يستمتع بتلك الزينة، وكأنه هو الذي يتزّين. أو: أن هذه المُستخرجات من البحر ليست مُحرّمة على الرجال مِثل الذهب والحرير؛ فالذهب والحرير نَقْد؛ أما اللؤلؤ فليس نَقدًا.

واللبس هو الغالب الشائع، وقد يصحّ أن تُصنعَ من تلك الحيلة عَصًا أو أي شيء مما تستخدمه.

ويتابع سبحانه في نفس الآية: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ .

والمَاخِر هو الذي يشق حلزومه الماء، والحُلزوم هو الصدر.

ونجد مَن يصنعون المراكب يجعلون المقدمة حادةً لتكون رأس الحربة التي تشق المياه بخرير.

وفي هذه الآية امتنَّ الحق سبحانه على عباده بثلاثة أمور: صيد السمك، واستخراج الحُليّ، وسَير الفلك في البحر؛ ثم يعطف عليهم ما يمكن أن يستجدّ؛ فيقول: ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾.

وكأن البواخر وهي تشقّ الماء ويرى الإنسان الماءَ اللين، وهو يحمل الجسم الصَّلْب للباخرة فيجد فيه متعة، فضلاً عن أن هذه البواخر تحمل الإنسانَ من مكان إلى مكان.

ويُذيّل الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

ولا يُقال ذلك إلا في سَرد نعمة آثارُها واضحة ملحوظة تستحقّ الشكر من العقل العادي والفطرة العادية، وشاء سبحانه أن يتركَ الشُّكر للبشر على تلك النعم، ولم يُسخرهم شاكرين.



مُعْجِزةُ بَدْء خَلْق الإنسان.. والرّدّ على دَارون

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾ [النساء: ١].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في خواطره حول هذه الآية: المراد من قوله: ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من الضلع، وهذا شيء لم نشهد أوله، والشيء الذي لم يشهده الإنسان فالحجة فيه تكون ممن شهده، وسبحانه أراد أن يرحمنا من متاهات الظنون في هذه المسألة، مسألة كيف خُلِقْنا، وكيف جئنا؟

إن كيفية خلقك ليس لك شأنه بها، فالذي خلقك هو الذي يقول لك فاسمع كلامه لأن هذه مسألة لا تتعلق بعلم تجريبي؛ ولذلك عندما جاء «دارون» وأراد أن يتكبر ويتكلم، جاءت النظرية الحديثة لتهدم كلامه، قالت النظرية الحديثة «لدارون»: إن الأمور التي أثرت في القرد الأول ليكون إنسانًا، لماذا لم تؤثر في بقية القرود ليكونوا أناسا وينعدم جنس القرود؟! وهذا سؤال لا يجيب عليه «دارون»، لذلك نقول: هذا أمر لم نشهده فيجب أن نستمع ممن فعل، والحق سبحانه يقول: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝ ﴾ [الكهف: ٥١].

ومادام لم يشهدهم، فهل يستطيع أحد منهم أن يأتي بعلم فيها؟ إن أحدًا لا يأتي بعلم فيها، وبعد ذلك يرد على من يجئ بادعاء علم فيقول: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ معنى مضلين أنهم سيضلونكم في الخلق. كأن الله أعطانا مناعة في الأقوال الزائفة التي يمكن أن تنشأ من هذا عندما قال: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾. فقد أوضح لنا طبيعة من يضللون في أصل الخلق وفي كيفية الخلق، فهم لم يكونوا مع اللهِ ليعاونوه ساعة الخلق حتى يخبروا البشر بكيفية

الخلق. فإن أردتم أن تعرفوا فاعلموا أنه سبحانه الذي يقول كيف خلقتم وعلى أي صورة كنتم، ولكن من يقول كذا وكذا، هم المضللون، والمضللون هم الذين يلفتونكم عن الحق إلى الباطل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ولماذا لم يقل: «خلقكم من زوجين» وانتهى؟ لأنه عندما يرد الشيء إلى اثنين قد يكون لواحد من الاثنين هوى، وإنما هذه ردت إلى واحدة فقط، فيجب ألا تكون لكم أهواء متنازعة، لأنكم مردودون إلى نفس واحدة، وأما عن نظرية «دارون» وما قاله من كلام فقد قيض الله لقضية الدين وخاصة قضية الإسلام علماء من غير المسلمين اهتدوا إلى دليل يوافق القرآن، فقام العالم الفرنسي «مونيه»، عندما أراد أن يرد على الخرافات التي يقولونها من أن أصل الإنسان كذا وكذا[1]، وقال: أنا أعجب ممن يفكرون هذا التفكير، هل توجد المصادفة ما نسميه «ذكرًا» ثم توجد المصادفة شخصًا نسميه «أنثى» ويكون من جنسه لكنه مختلف معه في النوع بحيث إذا التقيا معًا جاءا بذكر كالأول أو بأنثى كالثاني؟!

كيف تفعل المصادفة هذه العملية؟ سنسلم أن المصادفة خلقت آدم، فهل المصادفة أيضًا خلقت له واحدة من جنسه. ولكنها تختلف معه في النوع بحيث إذا التقيا معًا ينشأ بينهما سيال عاطفي جرف وهو أعنف الغرائز، ثم ينشأ منهما تلقيح ينشئ ذكرًا كالأول أو ينشئ أنثى كالثاني؟ أي مصادفة هذه؟ هذه المصادفة تكون عاقلة وحكيمة، سموها مصادفة ونحن نسميها: الله.

لقد ظن «مونيه» - هداه الله إلى الإسلام - أنه جاء بالدليل الذي يرد به على

(١) لو حدث شيء من التطوّر والارتقاء - حسب ما يدّعي دارون - للزم أن تتطوّر القردة الموجودة بيننا في زماننا، وتترقّى كما ترقّى أسلافها من قبل، وكما يدَّعي فأصبحوا بشرًا بعد أن كانوا قردة؟ وعلى زعم دارون، هل يمكن أن يصير البرغوث فيلاً، وأن تنقلب النملةُ نعجة ؟!

«دارون»، نقول له: إن القرآن قد مس هذه المسألة حين قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وهذه هي العظمة إنه خلق الرجل وخلق الأنثى؛ وهي من جنسه، ولكنها تختلف معه في النوع بحيث إذا التقيا معًا أنشأ الله منهما رجالاً ونساء. إذًا فهو عملية مقصودة، وعناية وغاية وحكمة، إذًا فقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ هذه جاءت بالدليل الذي هُدِيَ إليه العالم الفرنسي «مونيه» أخيرًا.

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ وانظروا عظمة الأسلوب في قوله: ﴿ وَبَثَّ ﴾ أي: ونشر. وسنقف عند كلمة «نشر» لأن الخلق يجب أن ينتشروا في الأرض، وكي يأخذوا جميعًا من خيرات الله في الأرض جميعًا.

و «النشر» معناه تفريق المنشور في الحيز، فهناك شيء مطوي وشيء آخر منشور، والشيء المطوي فيه تجمع، والشيء المنشور فيه تفريق وتوزيع، إذًا فحيز الشيء المتجمع ضيق، وحيز الشيء المبثوث واسع، معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا ﴾ أي: من آدم وحواء، ﴿ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ واكتفى بأن يقول ﴿ وَنِسَآءً ﴾ ولم يقل: «كثيرات» لماذا؟ لأن المفروض في كل ذكورة أن تكون أقل في العدد من الأنوثة. وأنت إذا نظرت مثلا في حقل فيه نخل، تجد كم ذكرًا من النخل وكم أنثى؟ ستجد ذكرًا أو اثنين.

إذًا القلة في الذكورة مقصودة لأن الذكر مخصب ويستطيع الذكر أن يخصب آلافًا، فإذا قال الله: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا ﴾ فالذكورة هي العنصر الذي يفترض أن يكون أقل كثيرًا، فماذا عن العنصر الثاني وهو الأنوثة؟ لابد أن يكون أكثر، والقرآن يأتي لينبهك إلى المعطيات في الألفاظ لأن المتكلم الله، ولكن إذا نظرت لقوله: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا ﴾ أي: من آدم وحواء وهما اثنان: ﴿ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ فتكون جمعًا وهذا ليدلك على أن المتكاثَر يبدأ بقلة ثم ينتهي بكثرة. ونريد أن

نفهم هذه كي نأخذ منها الدليل الإحصائي على وجود الخالق، فهو «بث منهما رجالا كثيرًا ونساء» والجمع البشري الذي ظهر من الاثنين سيبث منه أكثر.. وبعد ذلك يبث من المبثوث الثاني مبثوثًا ثالثًا، وكلما امتددنا في البث تنشأ كثرة، وعندما تنظر لأي بلد من البلاد تجد تعداده منذ قرن مضى أقل بكثير جدًا من تعداده الآن.

مثال ذلك : كان تعداد مصر منذ قرن لا يتعدى خمسة ملايين، ومن قرنين كان أقل عددًا، ومن عشرة قرون كان أقل، ومن عشرين قرنًا كان أقل، إذًا فكلما امتد بك المستقبل فالتعداد يزيد، لأنه سبحانه يبث من الذكورة والأنوثة رجالاً كثيرًا ونساء وسيبث منهما أيضًا عددًا أكبر.

إذًا فكلما تقدم الزمن تحدث زيادة في السكان، ونحن نرى ذلك في الأسرة الواحدة، إن الأسرة الواحدة المكونة عادة من أب وأم، وبعد ذلك يمكن أن نرى منهما أبناء وأحفادًا وعندما يطيل الله في عمر أحد الوالدين يرى الأحفاد وقد يرى أحفاد الأحفاد. إذًا كلما تقدم الزمن بالمتكاثَر من اثنين يزداد وكلما رجعت إلى الماضي يقل؛ فالذين كانوا مليونًا من قرن كانوا نصف مليون من قرنين، وسلسلها حتى يكونوا عشرة فقط، والعشرة كانوا أربعة، والأربعة كانوا اثنين هما آدم وحواء.

فعندما يقول الحق: إنه خلق آدم وحواء، وتحاول أنت أن تسلسل العالم كله سترجعه لهما، ومادام التكاثر ينشأ من الاثنين، فمن أين جاءا؟ الحق سبحانه يوضح لنا ذلك بقوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ . وهو بذلك يريحنا من علم الإحصاء وكان من الضروري أن تأتي هذه الآية كي تحل لنا اللغز في الإحصاء، وكلما أتى الزمن المستقبل كثر العالم وكلما ذهبنا إلى الماضي قل التعداد إلى أن يصير وينتهي إلى اثنين، وإياك أن تقول إلى واحد، لأن واحدًا لا يأتي منه تكاثر، فالتكاثر يأتي من اثنين ومن أين جاء الاثنان؟ لابد أن أحدًا خلقهما، وهو

قادر على هذا، ويعلمنا الله ذلك فيقول: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ ونأخذ من «بث» الانتشار، ولو لم يقل الله هذا لكانت العقول الحديثة تتوه وتقع في حيرة وتقول: نسلسل الخلق حتى يصيروا اثنين، والاثنان هذان كيف جاءا؟ إذًا لابد أن نؤمن بأن أحدًا قد أوجدهما من غير شيء.

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا ﴾ لأن النشر في الأرض يجب أن يكون خاصًا بالرجل، فالحق يقول: ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة:١٠].

والحق يقول: ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ [الملك: ١٥]. والأنثى تجلس في بيتها تديره لتكون سكنًا يسكن إليها، والرجل هو المتحرك في هذا الكون، وهي بذلك تؤدي مهمتها.

وبعدما قال: ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾، يقول: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾. لقد قدم الدليل أولا على أنه إله قادر، وخلقكم من عدم وأمدكم وسخر العالم لخدمتكم، وقدم دليل البث في الكون المنشور الذي يوضح أنه إله، فلابد أن تتلقوا تعليماته، ويكون معبودًا منكم، أي مطاعًا، والطاعة تتطلب منهجًا: افعل ولا تفعل، وأنزل الحق القرآن كمنهج خاتم، ويقول: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ﴾.

انظر إلى (القفشة)، للخلق الجاحد، إنه سبحانه بعد أن أخذهم بما يتعاملون ويتراحمون ويتعاطفون به أوضح لهم: أنتم مع أنكم كنتم على فترة من الرسل إلا أن فطرتكم التي تتغافلون عنها تعترف بالله كخالق لكم.

وأنت إذا أردت إنفاذ أمر من الأمور، وتريد أن تؤثر على من تطلب منه أمرًا، تقول: سألتك بالله أن تفعل ذلك، لقد أخذ منهم الدليل، فكونك تقول: سألتك بالله أن تفعل ذلك فلابد أنك سألته بمعظم، إذًا فتعظيم الله أمر فطري في البشر، والمطموس هو المنهج الذي يقول: افعل ولا تفعل.

والإنسان من هؤلاء الجاحدين عندما يسهو، ويطلب حاجة تهمه من آخر،

فهو يقول له: سألتك بالله أن تفعل كذا. وما دام قد قال: سألتك بالله فكأن هناك قضية فطرية مشتركة هي أن الله هو الحق، وأنه هو الذي يُسأل به، ومادام قد سئل بالله فلن يخيِّب رجاء من سأله.



مُعْجِزَةُ الذَّرَة

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية: «والظُّلْم: الأصل فيه محبّة الانتفاع بجهد غيره، فعندما تظلم واحدًا فهذا يعني أنك تأخذ حقه، وحقه ما جاء به بجهده وعرقه، وتأخذه أنت بدون جهد ولا عرق. ويتبع هذا أن يكون الظالم قويًا. لكن ماذا عن الذي يظلم إنسانًا لحساب إنسان آخر؟ إنه لم ينتفع بظلمه ولكن غيره هو الذي انتفع. وهذا شرّ من الأول.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**بادِروا بالأعمال ستكون فِتنًا كقطع اللّيل المُظْلِم يُصْبِح الرّجُل مؤمنًا ويُمْسِي كافرًا أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا يبيع دينه بِعَرَضٍ من الدنيا**»[1].

لأنه ظلم إنسانًا لنفع عبد آخر ولم يأخذ هو شيئًا لنفسه.

إذًا فالظلم إما أن يكون الانتفاع بثمرة جهد غيرك من غير كد، وإما أن تنفع شخصًا بجهد غيره، والله سبحانه وتعالى إذا نظرنا إليه - وهو قوة القوى - إذا أراد أن يظلم - وحاشا لله أن يظلم - فماذا يكون شكل ظلمه؟ إن الظلم يتناسب مع قوة الظالم، إذًا فقوة القوى عندما تظلم فظلمها لا يُطاق، ثم لماذا يظلم؟ وماذا يريد أن يأخذ وهو من وهب؟ إنه سبحانه مستغنٍ، ولن يأخذ من هذا ليعطي ذاك، فكلهم بالنسبة له سواء؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، كلهم متساوون، فلماذا يظلم؟

إن الظلم بالنسبة لله محال عقليًا ومحال منطقيًا، فلا يمكن لله أن يضيع عمل جسنة ولا أن يضاعف سيئة. فهذه لا تتأتى، وتلك لا تتأتى، والله واهب كل

---

(١) رواه مسلم وغيره.

النعم للناس جميعًا. ومادام هو من وهب كل النعم، فسبحانه غير منتفع بآثاره في خلقه. إن الحق سبحانه وتعالى ينفي عن نفسه الظلم في قوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

فكلمة ﴿ بِظَلَّٰمٍ ﴾ مثل قولنا: فلان «أكّال» وفلان «نوّام». وهي تختلف عن قولنا: فلان نائم، يعني نام مرة، ولكن «نوام» فهذا يعني مداومته على النوم كثيرًا، أي أنه إما أن يكون مبالغًا في الحدث، وإما أن يكون مكررًا للحدث، فالمبالغة - كما نعرف - تأتي مرة لأن الحدث واحد لكنه قوي، ومرة يكون الحدث عاديًا لكنه مكرر، هذه هي المبالغة، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ نفي للمبالغة، وهذا لا يقتضي إثبات غير المبالغة.

ونقول: الله لو ظلم لكان ظلمه مناسبًا قدرته فيكون كبيرًا كثيرًا، ولو كان ظالمًا لشمل ظلمه وعَمّ الخلق جميعًا فيكون كذلك كبيرًا كثيرًا ولكن الله - سبحانه - يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾. وسبحانه يحسب السيئة سيئة واحدة، أما الحسنة فيضاعفها.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ .

﴿ مِثْقَالَ ﴾ يعني ثقل ووزن، والثقل هو: مقدار جاذبية الأرض للشيء. فعندما يكون وزن الشيء قليلاً وتُلقيه من أعلى، فهو ينزل ببطء، أما الشيء الثقيل فعندما تلقيه من أعلى فهو ينزل بسرعة؛ لأن قوة الجاذبية له تكون أقوى، والإنسان منا حين ينظر إلى كلمة ﴿ مِثْقَالَ ﴾؛ ويعبر عنها بأنها وزن، فمعيار الميزان هنا ﴿ ذَرَّةٍ ﴾. وما «الذرة»؟

قال العلماء فيها: هي رأس النملة الصغيرة التي لا تكاد تُرى بالعين المجردة، أو النملة نفسها، هذه مقولة، أو الذرة كما قال ابن عباس حين سُئل عنها: أخذ شيئًا من تراب الأرض ثم نفخه، فلما نفخ تطاير التراب في الهواء، فقال لهم: كل واحدة من هذه اسمها « ذرة» وهو ما نسميه «الهباء»، ونحن الآن الموجودين في مكان واحد لا نرى شيئًا في الجو، لكن انظر إلى حزمة ضوئية - أي ثقب تدخل

منه أشعة الشمس - فساعة ترى ثقبًا يُدخل أشعة الشمس ترى غبارًا كثيرًا يسبح، والمهم أنك لا تراه جاريًا إلا في شعاع الشمس فقط، فهو كان موجودًا ونستنشقه، فما الذي جعلني لا أره؟ لأنه بلغ من الصغر واللطف مبلغًا فوق طوق العين أن تراه، فالذرة واحدة من هذا الغبار، واسمه «الهباء» وواحدة الهباء هي الذرة.

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا: أن كل شيء موزون إلى أقل درجات الوزن وهو الذرة، وهي الهباء، ونحن لا نراها إلا في نور محجوز، لأننا في النور القوي لا نرى تلك الذرات، بل نراها فقط في نور له مصدر واحد ونافذ، والحق سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة، وهذا تمثيل فقط؛ لأن الذرة يمكن أن تكبر، فالذي يكبر يمكن أن يصغر، وقال الحق ذلك ولم يكن عند الإنسان المقياس الذي يُفتت به الذرة، وقد حدث أن استطاع الإنسان ذلك، فبعد الحرب العالمية الأولى صنعت ألمانيا اسطوانات تحطيم الجوهر الفرد، أو الجزء الذي لا يتجزأ كما كان يصفه الفلاسفة قديمًا، ومعنى جزء لا يتجزأ أي لا يمكن أن يأتي أقل منه. ولم يلتفتوا إلى أن أي شيء له مادة إن كان يقبل التكبير فهو أيضًا يقبل التصغير. والمهم أن توجد عند الإنسان الآلة التي تدرك الصغر.

ومثال ذلك عندما صعدت الأقمار الصناعية وأخذوا من الجو صورة لمدينة نيويورك؛ خرجت الصورة صغيرة لمدينة نيويورك، بعد ذلك كبروا الصورة؛ فأخرجوا أرقام السيارات التي كانت تسير! كيف حدث هذا؟ لقد كانت الصورة الصغيرة تحتوي تفاصيل أكثر دقة لا تراها العين المجردة، وعندما يتم تكبيرها يتضح كل شيء حتى أرقام السيارات وضحت بعد أن كانت غير ظاهرة، وإن كنت موجودًا في نيويورك في هذه الساعة أكنت تظهر فيها؟ لا يمكن أن تظهر.. لماذا؟ لأنّ صورتك صغرت إلى الحد والقدر الذي لا يمكنك أن تراها وهي بهذا الحجم وهكذا، فالنور عندما يكون محزومًا، فالحزمة الضوئية التي تدخل إلى مكان ما، لها من القوة التي تظهر ذرة الهباء التي لم تكن تراها.

إذًا فنور من الله مخلوق ظهرت فيه الذرة، أيخفي على نور الخالق ذرة؟ لا يمكن أن تخفى عليه سبحانه ذرة؛ لأن النور الذي خلقه أظهر الذرة والهباء الذي

كان موجودًا، ولا نراه، فلن يخفي على نور النور ذرة في الأرض.

وهكذا نعرف أن المسألة بالنسبة لله عملية قطعية، وعندما اخترعوا اسطوانة تحطيم الجوهر الفرد كانت مثل عصارة القصب، ونحن نعرف أن عود القصب يوضع بين عمودين من الحديد، والعمود الواحد اسمه «اسطوانة» وعندما يضيقون الاسطوانتين ثم يمررون عود القصب بينهما، فلابد أن تكون المسافة بينهما ضيقة حتى إذا نفذ عود القصب يُعصر، إذًا فكلما ضيقت بين الاسطوانتين يزداد العصر، ومادامت الاسطوانتان تجري كل واحدة منهما على الأخرى فهنا فراغ ضئيل جدًّا، وحاول العلماء الألمان تضييق الاسطوانتين تضييقًا يفتت لنا هذه الذرة، ونجحوا، وأصبح هناك شيء آخر أقل من الذرة.

وظن السطحيون الذين يتربصون بالإسلام وبكتاب الله الدوائر، ويريدون أن يجدوا فيه منفذًا.

قالوا: إن الله قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ على أنها أقل شيء وظهر أن هناك أقل من مثقال ذرة؛ لأن الذرة تحطمت.

وقلنا لهؤلاء: أنتم أخذتم آية ونسيتم آيات، فالقرآن قد جاء معجزة ليواجه مجتمعات شتى من لدن رسول الله ﷺ إلى أن تقوم الساعة، فلابد أن يكون فيه ما يشبع العقول من لدن رسول الله ﷺ إلى أن تقوم الساعة. ولو أن عطاء القرآن صُب مرة واحدة في عصر الرسالة لجاءت القرون التالية وليس للقرآن عطاء. فأراد ربنا أن يكون القرآن هو المعجزة والمنهج المتضمن للأحكام والكليات، وهذه أمور مفهومة بالنسبة لعهد رسول الله ﷺ وإلى أن تقوم الساعة. لكن لا يزال هناك كونيات ونواميس للحق في الوجود لم تظهر بعد، فسبحانه يعطي كل عصر على قدر اتساع فهمه.

وعندما نعرف أسرار قضية كونية لا يزيد علينا حكم، فعندما نعرف قضية مثلاً كقضية الذرة وتفتيتها ووجود إشارات لها في القرآن الكريم لا يزيد ذلك علينا أي حكم. بل ظلت الأحكام كما هي.

فالأحكام واضحة كل الوضوح؛ لأن من يفعلها يثاب، ومن لا يفعلها يعاقب. والناس الذين ستقوم عليهم الساعة مثل الناس الذين عاصروا حضرة النبي ﷺ؛لذلك لابد أن تكون الأحكام واحدة، فمن ناحية أن القرآن كتاب أحكام فهذا أمر واضح وضوحًا لا زيادة فيه، ولم يفهم المعاصر لرسول الله ﷺ حكمًا ثم جاء الإنسان في زماننا ليفهم حكمًا آخر، بل كل الأحكام سواء.

والقرآن كمعجزة هو أيضًا معجزة للجميع. ولابد أن تكون هناك معجزة لكل جيل. ولكل عصر، ويأتي الإعجاز في الآيات الكونية التي لو لم نعرفها فلن يحدث شيء بالنسبة للأحكام.

مثال ذلك: لو لم نعرف أن الأرض تدور أكان انتفاعنا بالأرض يقل؟ لا، فنحن ننتفع بالأرض سواء أعلمنا كرويتها أم لم نعلم، لكن الحق سبحانه وتعالى يواجه العقول بما يمكن أن تطيقه. فإذا ما ارتقت العقول وتنورت واستنارت بمقتضى طموحاتها العلمية في الكون. فالقرآن إن لم يؤيدها فهو لا يعارضها.

وعندما فتتوا الذرة قال المشككون: إن ربنا يضرب بالذرة المثل لأصغر شيء: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ لكن هناك ما هو أقل من الذرة.

ونرد عليهم: أنتم نظرتم إلى آية ونسيتم آيات. أنتم لم تنتبهوا - كما قلنا - إلى أن من فتتوا الذرة إلى إلكترونات وأيونات وموجب وسالب حاولوا بعد ذلك أن يفتتوا ما فُتت. والآية التي نحن بصددها الآن: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ أرضت العقول التي تعرف الذرة الأصلية هذه واحدة، ولماذا لا نسمع قول الله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

إذًا فهناك ذرة وهناك أصغر من الذرة، ولم تأخذوا في بالكم أن ﴿ أَصْغَرَ ﴾ هذه أفعل تفضيل، ولا يوجد أصغر إلا إن وجد صغير، إذًا فهناك ذرة، وهناك صغير عن الذرة، وهناك أصغر من الصغير، فهناك إذًا ثلاث مراحل، فإن فتتوها فلنا

رصيد في القرآن يقول بالصغر، فإن فتَّم المفتت، فلنا رصيد في القرآن بأصغر؛ لأن كل أصغر لابد أن يسبقه صغير، وإن كنت ستفتت المفتت فما زال عندنا رصيد من القرآن يسبق عقولكم في الابتكار، فإن قلت تفتيت جاز، وإن قلت تجميع جاز؛ لأنها أصغر وأكبر، تفتيت أو تجميع، والمعقول أنك تقول: لا يغيب الأصغر والصغير، والذرة كذلك لا تغيب فكيف يعبر عن الأكبر بأنه لا يغيب مع أنه ظاهر وواضح؟

ونقول لك: إن المتكلم هو ربنا، فالشيء لا يدرك إما لأنه لطيف في غاية الدقة بحيث لا تتعلق به الباصرة فلا يُرى، وأيضًا لا يُدرك لأنه كبير بصورة أكبر من أن تحيط به الباصرة، فحين ترى جبلاً كبيرًا على بعد اثنين من الكيلو مترات أو ثلاثة فأنت لا تدركه؛ لأنه أكبر من أن يحيط به إشعاع بصرك، ولكن الأمر بالنسبة لله يختلف فلا يوجد صغير يَدِقُّ لا يراه، ولا كبير يكبر لا يراه، إذًا فلابد أن تأتي ﴿ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ ﴾ وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ ﴾ [سبأ: ٢].

وانظروا إلى دقة الحق في الرد على الإنكار للساعة وهي قضية كونية تنسحب على كل العصور.. فيقول سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٣ ﴾ [سبأ: ٣].

كان يكفي أن يقول: إن الساعة آتية، لكنه أوضح: اعرفوا أن الساعة آتية، وكل ما فعلتموه معروف، ولماذا يقولون: لا تأتي الساعة؟ إن هذا لون من تكذيب النفس لأنهم لم يعملوا على مقتضى ما يتطلبه قيام الساعة، فالذي لم يعمل لذلك يود لأن من مصلحته ذلك - أن تكون مسألة الساعة كذب؛ لأنه قد عمل أشياء يخاف أن يحاسب عليها، فجاء سبحانه بالآية لكي تردّ على المقولة وعلى الدافع للمقولة. وكل مقولة لها دافع.

لقد كان الدافع لمقولتهم هو إسرافهم على أنفسهم فلم يقدموا عملاً صالحًا فمن مصلحتهم الآمالية ألا تأتي الساعة، كي لا يعاقبوا، وسبحانه يعلم أزلاً ما فعلوا وردّ على المقولة وردّ على الدافع الذهني للمقولة، فأوضح سبحانه: أنا عالم كل أمر ولن يغيب عني عمل من أعمالكم.

وقول الحق في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً ﴾ يعني: وإن يكن الوزن لحسنة يضاعفها الله، وعندما يحدثنا سبحانه عن الحسنة وأنها تُضاعف ثم لا يتكلم عن السيئة فهذا يدل على أن السيئة بمثلها، والحق قد تكلم عن المضاعفة للحسنة في كثير من الآيات: ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾.

وفي آية أخرى يقول الحق: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وبعد ذلك يقول: ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ففيه فرق بين نظام حساب الحسنات ونظام حساب السيئات، فالحسنة تضاعف لعشر أمثالها لسبعمائة ضعف، هذا هو نظام الحساب، وإرادة خالق هذا النظام تعطي كما تريد، إذا كنا نحن - كبشر - عندما نوظف واحدًا نقول: أنت تدخل السلم الوظيفي، وتبدأ السلم الوظيفي من أول درجاته ثم تترقى درجة بعد درجة، ثم يأتي رئيس الدولة ليعينك في درجة أعلى من ذلك بكثير، فما بالنا بحساب الرب الأعلى؟! إنه يعطي بعملية حسابية فيها زيادة فضل؛ ولذلك قال بعد هذه الآية: ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي إنه سبحانه يعطي من عنده ذلك الأجر العظيم، وهذا اسمه «محض الفضل» وكيف يسميه الله أجرًا مع أنه زائد؟ لأن هذا الفضل جاء تابعًا للأجر، فإذا لم يعمل الإنسان هذا العمل فإنه لا يستحق الأجر، وبالتالي فلا ينال فضلاً وحين يضرب الله الأمثال للناس فذلك لتقريب المعاني؛ لأن الله قاله والله صادق فيما يقول، فيعطي الحق سبحانه وتعالى مُثلاً إيناسية في الكون، حتى لا تستبعد أن الحسنة تذهب لهذه الأضعاف المضاعفة.

فيوضح لك: هذه الأرض أمامك هات حبة واحدة وضعها في الأرض تخرج لك سبع سنابل وكل سنبلة فيها مائة حبة فإذا كانت الأرض - وهي مخلوقة لله - أعطت سبعمائة ضعف، فكم يعطي من خلق الأرض؟! إنه يعطي بغير حساب.

إذًا فكلمة ﴿مِن لَّدُنْـهُ﴾ هذه تعطيك الباب الواسع الذي يتناسب مع الله، فالأرض تعطيك قدر جهدها، وعلى قدر العناصر الغذائية الموجودة فيها.. والذي عنده وبيده الخير وخلق كل الكون يوضح: إذا كان الخلق من خلقي يعطي حتى الكافر، سبعمائة ضعف فالذي خلق هذا يعطي للمؤمن أجرًا للحسنة بلا حدود؛ ولذلك فالإيناسات التمثيلية في الكون يتركها الله لتقرب للعقل المعنى البعيد الذي قد يقف فيه.

فالإنسان منا مادة: هي البدن وتحل فيه الروح، وعندما تسحب الروح من البدن، ماذا يصير؟ يصير الجسد رِمة، ويتحلل لعوامله الأولى وتنتهي منه مظاهر الحياة.

إذًا فالروح هي السبب في الحركة، وفي أن كل جهاز يقوم بعمله، وفي النمو، وعندما تسحب الروح ينتهي الأمر، إن الروح هي التي تدير كل هذا الجسم، والروح لا لون لها، ولا أحد يراها، ولا يشمها كائن، فكيف ندركها إذن؟

نقول: إن الجوهر الذي يدخل في جسدك ويعطيه الحركة فيديره. أنت لا تراه ولا تحسّه، وهو غيب بالنسبة لك، فإذا حُدّثت أن ربك غيب فلا تتعجب، فروحك التي بين جنبيك لا تعرف كُنهها، وعليك إذًا أن تصدق عندما يقال لك: ربك ليس بمحدود بمكان وعندما يقول سبحانه: ﴿لَّا تُـدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فكلنا نقول: نعم هذا كلام صحيح؛ لأنه إذا كان هناك مخلوق لله وهو الروح لم تدركه الأبصار، أفتريد أن يُدرَك من خَلَقَ؟ لا يمكن، وهو سبحانه من عظمته أنه لا يُدَرك.

وسبحانه يقول: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْـهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ونقف عند كلمة ﴿مِن

﴿ لَّدُنْـهُ ﴾ ونعرف أن فيه فرقًا بين الإتيان بالناموس - وهو النظام الموضوع - والعطاء المباشر، وعندما يقول الحق: ﴿ مِن لَّدُنْـهُ ﴾ فهذا يعني أن الوسائط تمتنع. ونعلم قصة سيدنا موسى عندما ذهب ليقابل العبد الصالح قال تعالى في وصف العبد الصالح: ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥].

وهذا يعني أن العبد الصالح قد تعلم ليس بوساطة أحد، بل من الله مباشرة، بدليل أن الذي جاء ليتعلم منه وتعلم منه ثم وقف معه في أمور جاءت على خلاف ما تجري به النواميس والعادات فكلمة ﴿ مِن لَّدُنَّا ﴾ تعني تجاوز الحجب، والوسائط، والأنظمة.

والحق سبحانه يحترم أصل عملك ويسمي عطاءه لك ﴿ أَجْرًا ﴾، لأنه أعطى من لدنه بعدما أعطى له النصيب المقدر كأجر، وهذا الأجر موصوف بأنه عظيم، لأنه مناسب للمعطي» ا.هـ.



مُعْجِزةُ خَلْق البَعُوض

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - في خواطره الإيمانية حول هذه الآية: كل تكاليف من الله نفعلها لأن الله شرعها ولا نفعلها لأي شيء آخر.. وكل ما يأتينا من الله من قرآن نستقبله على أنه كلام الله ولا نستقبله بأي صيغة أخرى.. ذلك هو الإيمان الذي يريد الله منا أن نتمسك به، وأن يكون هو سلوك حياتنا.

تلك مقدمة كان لابد منها إذا أردنا أن نعرف معنى الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ وعندما ضرب الله مثلاً بالبعوضة.. استقبله الكفار بالمعنى الدنيوي دون أن يفطنوا للمعنى الحقيقي.. قالوا كيف يضرب الله مثلاً بالبعوضة ذلك المخلوق الضعيف.. الذي يكفي أن تضربه بأي شيء أو بكفك فيموت؟ لماذا لم يضرب الله تبارك وتعالى مثلاً بالفيل الذي هو ضخم الجثة شديد القوة؟! أو بالأسد الذي هو أقوى من الإنسان وضرب لنا مثلاً بالبعوضة.. فقالوا: ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ ولم يفطنوا إلى أن هذه البعوضة دقيقة الحجم خلقها معجزة.. لأن في هذا الحجم الدقيق وضع الله سبحانه وتعالى كل الأجهزة اللازمة لها في حياتها.. فلها عينان ولها خرطوم دقيق جدًّا ولكنه يستطيع أن يخرق جلد الإنسان.. ويخرق الأوعية الدموية التي تحت الجلد ليمتص دم الإنسان.

والبعوضة لها أرجل ولها أجنحة ولها دورة تناسلية ولها كل ما يلزم لحياتها.. كل هذا في هذا الحجم الدقيق.. كلما دق الشيء فإنه محتاج إلى دقة خلق أكبر.

ونحن نشاهد في حياتنا البشرية أنه مثلاً عندما اخترع الإنسان الساعة.. كان

حجمها ضخمًا جدًا لدرجة أنها تحتاج إلى مكان كبير.. وكلما تقدمت الحضارة وارتقى الإنسان في صناعته وحضارته وتقدمه، أصبح الحجم دقيقًا وصغيرًا، وهكذا أخذت صناعة الساعات تدق.. حتى أصبح من الممكن صنع ساعة في حجم الخاتم أو أقل.. وعندما بدأ اختراع المذياع أو الراديو كان حجمه كبيرًا.. والآن أصبح في غاية الدقة لدرجة أنك تستطيع أن تضعه في جيبك أو أقل من ذلك.. وفي كل الصناعات عندما ترتقي.. يصغر حجمها لأن ذلك محتاج إلى صناعة ماهر وإلى تقدم علمي..

وهكذا حين ضرب الله مثلاً بالبعوضة وما فوقها.. أي بما هو أقل منها حجمًا.. فإنه تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلى دقة الخلق[1].. فكلما لطف الشيء وصغر حجمه فإنه يحتاج إلى دقة الخلق.. ولكن الكفار لم يأخذوا المعنى على هذا النحو وإنما أخذوه بالمعنى الدنيوي البسيط الذي لا يمثل الحقيقة.

فالله سبحانه وتعالى حينما ضرب هذا المثل.. استقبله المؤمنون بأنه كلام الله.. واستقبلوه بمنطق الإيمان بالله فصدقوا به سواء فهموه أو لم يفهموه.. لأن المؤمن يصدق كل ما يجيء من عند الله سواء عرف الحكمة أو لم يعلمها.. واقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢، ٥٣].

إن كل مصدق بالقرآن لا يطلب تأويله أو الحكمة في آياته.. ولذلك قال الكافرون: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ ويأتي رد الحق تبارك وتعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ

(١) قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: «أخبر - تعالى - أنه لا يستصغر شيئًا يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة كما لا يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف مِن ضَرْب المثل بها» اهـ.

كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾.. من هم الفاسقون؟

هم الذين ينقضون عهد الله.. أول شيء في الفسق أن ينقض الفاسق عهده.. ويقال فسقت الرطبة أي بعدت القشرة عن الثمر.. فعندما تكون الثمرة أو البلحة حمراء تكون القشرة ملتصقة بالثمرة بحيث لا تستطيع أن تنزعها منها.. فإذا أصبحت الثمرة أو البلحة رطبًا تسود قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة.. هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله.. ينسلخ عنه بسهولة ويسر، لأنه غير ملتصق به.. وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه.

فلا تؤدي الصلاة مثلاً وتفعل ما نهى الله عنه لأنك فسقت عن دينه.. والذي أوجد الفسق هو أن الإنسان خُلِق مختارًا.. قادرًا على أن يفعل أو لا يفعل.. وبهذا الاختيار أفسد الإنسان نظام الكون.. فكل شيء ليس للإنسان اختيار فيه تراه يؤدي مهمته بدقة عالية كالشمس والقمر والنجوم والأرض.. كلها تتبع نظامًا دقيقًا لا يختل لأنها مقهورة.. ولو أن الإنسان لم يُخْلَقْ مُخْتارًا.. لكان من المستحيل أن يفسق.. وأن يبتعد عن منهج الله ويفسد في الأرض.. ولكن هذا الاختيار هو أساس الفساد كله.



نقصانُ الأرضِ مِن أطرافِها

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد: ٤١].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - عقب هذه الآية: ﴿ يَرَوْا ﴾ هنا بمعنى «يعلموا» ولم يَقُل ذلك؛ لأن العلم قد يكون عِلمًا بغيب، ولكن ﴿ يَرَوْا ﴾ تعني أنهم قد علموا ما جاء بالآية عِلْم مشهد ورؤية واضحة، وليس مع العين أين.

وإذا جاء قول الحق سبحانه ليخبرنا بأمر حدث في الماضي أو سيحدث في المستقبل؛ ووجدنا فيه فعل الرؤية؛ فهذا يعني أننا يجب أن نؤمن به إيمان مَشْهدٍ، لأن قوله سبحانه أوثق من الرؤية، وعلمه أوثق من عينيك.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ ﴾.

وهذا قول للحاضر المعاصر لهم.

وتعريف الأرض هنا يجعلها مجهولة، لأننا حين نرغب في أن نُعرِّف الأرض؛ قد يتجه الفكر إلى الأرض التي نقف عليها؛ وبالمعنى الأوسع يتجه الفكر إلى الكرة الأرضية التي يعيش عليها كل البشر .

وقد تُنسَبُ الأرض إلى بقعة خاصة وقع فيها حَدَثٌ ما؛ مثل قول الحق سبحانه عن قارون: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [القصص: ٨١].

ويقول الحق سبحانه عن الأرض كلها: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٥٥].

وبطبيعة الحال هم لن يأخذوا كل الأرض، ولكن ستكون لهم السيطرة عليها.

وسبحانه يقول أيضًا: ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وهكذا نفهم أن كلمة «الأرض» تطلق على بُقعة لها حَدث خاص، أما إذا أُطلقت؛ فهي تعني كل الأرض، مثل قول الحق سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝﴾ [الرحمن: ١٠].

وقوله الحق هنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

موجَّه إلى قريش، فقد كانت لهم السيادة ومركزها مكة، ثم من بعد ذلك وجدوا أن الموقف يتغيَّر في كُلِّ يوم عن اليوم الآخر؛ ففي كل يوم تذهب قبيلة إلى رسول الله ﷺ في المدينة لِتعلِنَ إسلامها وتبايعه.

وهكذا تنقص أمام عيونهم دائرة الكفر، إلى أن أعلنوا هم أنفسهم دخولهم في الإسلام.

وهكذا شاء الحق سبحانه أن نقصت أرضُ الكفر، وازدادت أرض الإيمان، ورَأَوا ذلك بأنفسهم ولم يأخذوا عِبرةً بما رأوه أمام أعينهم من أن الدعوة مُمْتدة، ولن تتراجع أبدًا، حيث لا تزداد أرض إلا بمكين فيها.

والمكين حين ينقص بموقعه من معسكر الكفر فهو يُزيد رُقعة الإيمان، إلى أن جاء ما قال فيه الحق سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝﴾ [النصر: ١-٣].

وهناك أناس مُخلِصون لدين الله، ويحاولون إثبات أن دين الله فيه أشياء تدلُّ على المعاني التي لم تُكتشف بعد، فقالوا على سبيل المثال فَور صعود الإنسان إلى القمر: لقد أوضح الحق ذلك حين قال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

وقالوا: إنه سلطان العلم.

ولكن ماذا يقولون في قوله بعدها: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ

فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ [الرحمن: ٣٥].

فهل يعني ذلك أنه أباح الصعود بسلطان العلم كما تقولون؟

ولهؤلاء نقول: نحن نشكر لكم محاولة رَبْطكم للظواهر العلمية بما جاء بالقرآن، ولكن أين القمر بالنسبة لأقطار السموات والأرض؟! إنه يبدو كمكان صغير للغاية بالنسبة لهذا الكون المُتَسِع، فأين هو من النجم المسمَّى بالشِّعْرى، أو بسلسلة الأجرام المُسَمَّاة بالمرأة المُسلْسلَة؟ بل أين هو من المَجَرَّات التي تملأ الفضاء؟!

وحين تنظر أنت إلى النجوم التي تعلوك تجد أن بينك وبينها مائة سنة ضوئية، ولو كنت تقصد أن تربط بين سلطان العلم وبين القرآن، فعليك أن تأخذ الاحتياط، لأنك لو كنت تنفذُ بسلطان العلم لما قال الحق سبحانه بعدها: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾.

وإن سألت: وما فائدة الآية التي تحكي عن هذا السلطان؟

فهي قد جاءت لأن الرسول قد أخبر القوم أنه صعد إلى السماء وعُرِج به، أي: أنه صُعِد وعُرِج به بسلطان الله.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾[1].

وكلمة «أطراف» تدلنا على أن لكل شيء طُولاً وعَرضًا تتحدد به مساحته؛ وكذلك له ارتفاع ليتحدد حجمه. ونحن نعرف أن أيَّ طول له طرفان، وإن كان

---

(١) قال الأستاذ سيّد قطب - رحمه الله تعالى - في «الظلال» (٢٠٦٥) في تفسيره لهذه الآية: «إن يد الله القوية لبادية الآثار فيما حولهم، فهي تأتي الأمم القويّة الغنيّة - حين تبطر وتكفر وتفسد - فتنقص من قوتها وتنقص من ثرائها وتنقص من قدرها؛ وتحصرها في رقعة من الأرض ضيّقة بعد أن كانت ذات سلطان وذات امتداد، وإذا حَكَمَ اللّـهُ عليها بالانحسار فلا معقّب لحُكمه، ولابد له من النفاذ» اهـ.

الشيء على شكل مساحي تكون أطرافه بعدد الأضلاع.

ومادام الحق سبحانه يقول هنا: ﴿مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ أي: من كل نقطة في دائرة المحيط تعتبر طرفًا، ومعنى ذلك أنه سبحانه قد شاء أن تضيق أرض الكفر، وأن يُوسِّع أرض المؤمنين من كل جهة تحيط بمعسكر الكفر، وهذا القول يدل على أنه عملية مُحدَثة، ولم تكن كذلك من قبل.

ويتابع سبحانه من بعد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ أي: أن الموضوع قد بُتَّ فيه وانتهى أمره.. ونحن في حياتنا اليومية نقول: «هذا الموضوع قد انتهى؛ لأن الرئيس الكبير قد عقَّبَ على الحكم فيه».

ولحظة أن يُصِدر الله حُكمًا؛ فلن يأتي له استئناف، وهذا معنى قوله الحق: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾.

وكأن هذا القول الحكيم يحمل التنبؤ بما أشار به القضاء بإنشاء الاستئناف؛ ولا أحد يُعقِّب على حُكم الله؛ لأن المُعقِّب يفترض فيه أن يكون أيقظَ من المُعقَّب عليه؛ وعنده قدرةُ التفات إلى ما لم يلتفت إليه القاضي الأول، ولا يوجد قَيُّوم إلا الله، ولا أحدَ بقادر على أن يعلم كل شيء إلا هو سبحانه.

وآفة كل حُكم هو تنفيذه؛ ففي واقعنا اليومي نجد مَنِ استصدر حُكمًا يُعاني من المتاعب كي يُنفِّذه؛ لأن الذي يُصدِر الحكم يختلف عَمَّن ينفذه، فهذا يتبع جهة، وذاك يتبع جهة أخرى.

ولكن الحُكم الصادر من الله؛ إنما يُنفَّذ بقوته سبحانه، ولا يوجد قويٌّ على الإطلاق سِواه، ولذلك يأتي قوله الحق: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

فكأن الله يُنبِّهنا بهذا القول إلى أن الحكم بالعدل يحتاج إلى سرعة تنفيذ.

ونحن نرى في حياتنا اليومية: كيف يُرهق مَن له حكم بحقٍّ عادل؛ ولو أننا نُسرِع بتنفيذ الأحكام لَسادَت الطمأنينةُ قلوبَ أفراد المجتمع.

ونحن نجد استشراء العصبيات في الأخذ بالثأر إنما يحدث بسبب الإبطاء في

نظر القضايا؛ حيث يستغرق نظر القضية والحكم فيها سنوات؛ مِمَّا يجعل الحقدَ يزداد. لكن لو تَمَّ تنفيذ الحكم فَورَ معرفة القاتل، وفي ظل الانفعال بشراسة الجريمة؛ لَمَا ازدادت عمليات الثأر ولَهَدأت النفوس.



تَبْدِيلُ الجُلود

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: ٥٦].

و﴿نُصْلِيهِمْ﴾ من الاصطلاء، قد يقول قائل: مادام يصلي النار وكلنا يعرف أن نار الدنيا حين تحرق شيئًا ينتهي إلى عدم، وحين ينتهي إلى عدم إذًا فلا يوجد ألم!

ونقول: لتنتبه إلى أن الحق سبحانه وتعالى يقول في هذا الأمر: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ ..

إذًا فالعذاب ليس كنار الدنيا، لأن نار الدنيا تحرق وتنتهي المسألة. أما نار الآخرة فإنها عذاب سرمدي دائم مكرر ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ .. فإذا ما حُرِّقَت الجلود فإن جلودًا أخرى ستأتي، أهي عين الأولى أم غيرها؟ وحتى أوضح ذلك: أنت عندما يكون عندك خاتم مثلاً، ثم تقول: أنا صنعت من الخاتم خاتمًا آخر، فالمادة واحدة أيضًا، فهل التعذيب للجلود أو للأعضاء؟ إن العذاب دائمًا للنفس الواعية، بدليل أن الإنسان قد يصيبه ورم فيه بعض الصديد «دُمّل» يتعبه ولا يقدر على ألمه.. وبعد ذلك يغفل فينام، بمجرد أن ينام فلا ألم.. لكن عندما يستيقظ يتألم من جديد.

إذًا فالألم ليس للعضو بل للنفس الواعية، بدليل أننا عندما ارتقينا في الطب، قلنا إن النفس الواعية نستطيع أن نخدرها بحيث يحدث الألم ولا تشعر به، ويفتح «الدُّمل» بالمشرط ولا يحس صاحبه بأي ألم. وهكذا تجد أن الجلود والأعضاء ليس لها شأن بالعذاب، إنما هي موصلة للمعذب، والمعذَّب هي النفس الواعية.

بدليل أنها ستشهد علينا يوم القيامة.. تشهد الجلود والجوارح، وستكون آلة لتوصيل العذاب.. ومسرورة لأنها توصل لهم العذاب.

إنه نظام إلهي فلا تتعجبوا من القرآن، فإن العلم كلما تقدم هدانا إلى شيء من آيات الله في الكون. أنتم - الآن - تخدرون النفس الواعية وتشقون الجسد بالمشارط كما يحلو لكم فلا يحدث له ألم، وعرفتم أن الألم ليس للعضو، إنما الألم للنفس الواعية، إذًا فكل الجوارح هي آلات توصل الألم للنفس الواعية، وتكون مسرورة؛ لأن النفس الواعية تعذب، وهذه يشبهونها مثلاً بواحد عنده «حكة» في جلده، فيهرش، والهرش يسيل دمه فيكون مستلذًا.

إذًا فقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي: أن الجلود تبدل وتنشأ جلود أخرى من نفس مادتها توصل العذاب للنفس الواعية، وهكذا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ نحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى أنزل كتابًا هو القرآن، وجعله معجزة ومنهجا، وهذه هي الميزة التي امتاز بها الإسلام. فمنهج الإسلام هو عين المعجزة، وكل رسول من الرسل كان منهجه شيئًا ومعجزته كانت شيئًا آخر.

إن سيدنا موسى منهجه التوراة ومعجزته العصا، وسيدنا عيسى منهجه الإنجيل، ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، لكن معجزة رسول الله ﷺ كانت القرآن، لأن دينه سيكون الامتداد النهائي لآخر الدنيا، ولذلك جعل الله منهجه هو عين معجزته، لتكون المعجزة دليلاً على صدق المنهج في أي وقت، ولا يستطيع واحد من أتباع أي نبي سابق على رسول الله ﷺ أن يقول: إن معجزة الرسول الذي أتبعه هي منهجه؛ لأن معجزات الرسل السابقين على رسول الله كانت عمليات كونية انتهت مثل عود كبريت احترق، فمن رآه رآه وانتهى، لكن المسلم يستطيع أن يقف ويعلن بملء فِيه: إنَّ محمدًا رسول الله وصادق، وتلك معجزته.

فمعجزة محمد ﷺ باقية بقاءً أبديًا، ومتصلة به أبدًا، أما معجزة كل رسول سبق رسول الله ﷺ فقد أدت مهمتها لمن رآها وانتهت، وانفصلت معجزة كل

رسول سابق على رسول الله ﷺ عن منهجه.

والمنهج القرآني فيه أحكام، والأحكام معناها؛ افعل كذا، ولا تفعل كذا. وهي واضحة كل الوضوح منذ أن أنزل الله القرآن على رسوله وحتى تقوم الساعة، ومن فعل مطلوب الأحكام يثاب، ومن لم يفعله يعاقب، وكل الناس سواسية في مطلوب الأحكام إلى أن تقوم الساعة.

أما آيات الله الكونية التي لا تتأثر.. فأي فائدة للإنسان إن عرفها أو لم يعرفها؛ فقد طمرها الله وسترها في القرآن مع إشارة إليها، لأن العقل المعاصر لنزول الكتاب لم يكن قادرًا على استيعابها في زمن الرسالة. ولو أن القرآن جاء بآية واضحة تقول: «إن الأرض كروية وتدور، بالله ماذا كان المعاصرون لرسول الله ﷺ يقولون؟! إن بعضًا من البشر الآن يكذبون ذلك، فما بالنا بالبشر المعاصرين لرسول الله ﷺ الذين لو قال لهم رسول الله ذلك لانصرفوا عن اتباع ما جاء به.

لقد كانوا يسفيدون من كروية الأرض، مثلما يستفيد منها الفلاح أو البدوي، ومثلما يستفيد الناس الآن الذين لم يدرسوا الكهرباء برؤية التلفزيون وضوء المصباح الكهربائي وغير ذلك من الاستخدامات، دون معرفة علمية بتفاصيل ذلك، إنّ الشمس تسطع على الدنيا فيتبخر الماء من الأنهار والمحيطات والبحار ليصير سحابًا، ثم ينزل المطر من السحاب. وكل هذه الآيات الكونية لم يعط الله أسرارها إلا بقدر ما تتسع العقول، وترك في كتابه ما يدل على ما يمكن أن تنتهي إليه العقول الطموحة بالبحث العلمي.

وعندما نتعرف نحن - المسلمين - على اكتشاف علمي جديد في الكون، نقول: إن القرآن قد أشار له، لكن قبل ذلك لا يصح أن نقول ذلك حتى لا يكذب الناس هذا الكتاب المعجز، فسبحانه القائل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

لو أن القرآن قال: إن كل شيء في الوجود يتكاثر، وفيه موجب وفيه سالب، ذكر وأنثى، أكانوا يصدقون ذلك؟! لا، لأنهم كانوا لا يعرفون الذكر والأنثى إلا

في الرجل والمرأة، ويعرفون ذلك في الحيوانات؛ وأيضًا في بعض النباتات مثل النخل، لكن هناك نباتات كثيرة لا يعرفون حكاية التكاثر فيها، ومثال ذلك القمح الذي نزرعه ونأكله، وكذلك الذرة، لم يكونوا عارفين بأن عنصر الذكورة يوجد في «الشواشي» العليا في كوز الذرة، وأن الهواء يضرب تلك الشواشي فتنزل منها حبوب اللقاح فيخرج الحب، ولذلك نجد الزّارع الذكي هو الذي يفتح «كوز الذرة» من أعلاه قليلاً حتى يتيح لحبوب اللقاح أن تصل إلى موقعها. وقد يفتح الفلاح أحد «كيزان الذرة» فيجد حبة ميتة وسط الحبوب المتراصة ويكتشف أنها حبة ليس لها خيط أي لم تتصل بحبوب اللقاح وهو ما يقولون عنه في الريف «سنة عجوز».

إذًا فكل تكاثر له ذكورة وأنوثة، ولذلك يقول ربنا: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس: ٣٦].

وكنا نعرف الأزواج في الأنفس، ثم عرفناها في النبات، وجاء الحق بـ ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لِتُدخل كل شيء، وتكشف الموجب والسالب في الكهرباء، وصرنا نعرف أن كل كائن فيه ذكر وأنثى، وكلما تقدم العلم فهو يشرح الآيات الكونية.

ومن رحمة الحق سبحانه بعقول الأمة المكلَّفة برسالة محمد ﷺ لم يشأ أن يجعل نواميسه في الكون واضحة وصريحة حتى لا تقف العقول فيها وتعجز عن فهمها، وخاصة أن الكتاب واجه أمّة أمّيَّة؛ ليست لها ثقافة. وهب أنه واجه العالم المعاصر، إن هناك قضايا في الكون لا يعلمها العالم المعاصر، فلو أن القرآن تعرض لها بصراحة لكانت سببًا من الأسباب التي تصرف الناس عن الكتاب. والقرآن جاء كتاب منهج، والمعجزة أمر جاء لتأييد المنهج، فلم يشأ أن يجعل من المعجزة ما يعوق عن المنهج، لكنه ترك في الكون طموحات للعقل المخلوق لله والمادة الكونية المخلوقة لله، وكل يوم يكتشف العقل البشري أشياء، وهذا الاكتشاف لا يأتي من فراغ، بل يأتي من أشياء موجودة.

إذًا فلو رددت أدق أقضية العلم التي يصل إليها العقل المعاصر، ونسبتها في الكون لرجعت إلى الأمر البديهي. فلا يوجد صاحب عقل ابتكر أو جاء بحاجة

جديدة، إنما هو أعمل عقله في موجود فاستنبط من مقدمات الموجود قضية معدومة، ثم أصبحت القضية المعدومة مقدمة معلومة ليستنبط منها من يجيء بعد ذلك.

ولذلك فالعلماء عادة قوم يغلبهم طابع التهذيب عندما يقولون: اكتشفنا الأمر الفلاني، يعني كأنه كان موجودًا.

إن الحق سبحانه وتعالى يعطي لنا فكرة تقرب لنا الفهم، فنحن عندما كنا نتعلم الهندسة مثلاً؛ عرفنا أن الهندسة مكونة من نظريات، تبدأ من نظرية «واحد»، وتنتهي إلى ما لا نهاية، وحين جاء لنا مدرس ليبرهن لنا على نظرية «مائة»، استخدم في البرهان على ذلك النظرية التسع والتسعين، وعندما كان يبرهن على النظرية «التسع والتسعين» استعمل ما قبلها.

إذًا فكل برهان على نظرية يستند إلى ما قبلها، والعقل الواعي المفكر المستنبط هو الذي يرتب المقدمات ويستخلص منها النتائج، وكل شيء في الكون يشترك فيه كل الناس. لكن العقل الذي يرتب ويستنبط يخيل إليه،وإلى الناس أنه جاء بجديد، وهو لم يأت بجديد، بل ولَّد من الموجود جديدًا، مثال ذلك الطفل عندما يولد من أبويه، هل هما جاءا به من عدم؟ لا، بل جاء الولد من تزاوج، وعندما نسلسل الأمر نصل إلى آدم، فمن الذي جاء بآدم؟ إنه الله.

إذًا فالبديهيات التي في الكون هي خميرة كل علم تقدمي وهي من صنع الله الذي أتقن كل شيء صنعًا، وكل نظرية مهما كانت معقدة في الكون منشؤها من الأمر البديهي، مثال ذلك البخار؛ عندما اكتشفوه وقبل أن يسيّروا به الآلات ماذا حدث؟ كان هناك من يجلس فالتفت فوجد الإناء الذي به الماء يغلي ثم وجد غطاء الإناء يرتفع وينخفض، وعندما تعرف على السرّ، اكتشف أن كل بخار يستطيع أن يعطي قوة دافعة، وبذلك بدأ عصر البخار، إذًا فهو ذكي، وقد أخذ اكتشافه من بديهية موجودة في الكون، فإياك أن تغتر وتقول: إن العقل هو الذي اخترع، ولكن العقل عمل بالجهد في مطمورات الله في الوجود، ورتب ورتب ثم أخرج الاكتشاف.

لذلك فعندما يبتكر العقل البشري شيئًا جديدًا نقول له: أنت لم تبتكر، بل اكتشفت فقط، والحق سبحانه وتعالى يترك هذه العملية في الوجود. ويقول: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

والبشرية عندما تكتشف شيئًا جديدًا، نقول لهم: القرآن مسّها وجاء بها، فيقولون: عجبًا هل فعل القرآن ذلك منذ أربعة عشر قرنًا، على الرغم من أنه نزل ليخاطب أمة أمية، وجاء على لسان رسول أمّي؟! ونقول: نعم

والآية التي نحن بصددها فيها هذا: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

والجلود والأحاسيس شرحناها من قبل، ونظرية «الحسّ» - كما نعرف - شغلت العلماء الماديين، وأرادوا أن يعرفوا كيف نحسّ، منهم من قال: نحن نحسّ بالمخ.

نقول لهم: لكن هناك مسائل لا تصل للمخ ونحس بها، بدليل أنه عندما يأتي واحد أمام عيني ويوجه أصبعه ليفتحها ويثقبها فقبلما يصل أصبعه أغلق عيني أي أن شيئًا لم يصل للمخ حتى أحسّ. وبعض العلماء قال: إن الإحساس يتم عن طريق النخاع الشوكي والحركة العكسية، ثم انتهوا إلى أن الإحساس إنما ينشأ بشعيرات حسية منبطحة مع الجلد؛ بدليل أنك عندما تأخذ حقنة في العضل، فالحقنة فيها إبرة، ويكون الألم مثل لدغة البرغوث يحدث بمجرد ما تنفذ الإبرة من الجلد، وبعد ذلك لا تحس.

إذًا فمركز الإحساس في الإنسان هو الشعيرات الحسية المنبطحة على الجلد، بدليل أن ربنا أوضح: أنه عندما يحترق الجلد يمتنع الإحساس، فأنا أبدل لهم الجلد ليستمر الإحساس: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾.

أي صارت محترقة احتراقًا تامًّا وتعطلت عن الإحساس بالألم، آتيهم بجلد آخر لأديم عليهم العذاب؛ لأنه هو الذي سيوصل للنفس الواعية فتتألم، إذًا فالآية مسّت قضية علمية معملية، لو أن القرآن تعرض لها بصراحة وجاء بصورة في

الإحساس تقول: «يا بني آدم محلّ الإحساس عندكم الجلد»، لما فهموا شيئًا، لكنه تركها لتنضج في العقول على مهل.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ فتكون علّة التبديل للجلود التي أحرقت بجلود جديدة كي يدوم العذاب[1] ويذيل الحق الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

والعزيز: هو الذي لا يُغلب ولا تَقدر أن تحتاط من أنه يهزمك أبدًا، فقد يقول كافر: لقد تلذذنا بالمعصية مرة لمدة خمس دقائق، ومرة لمدة ساعتين فما يضيرني أن يحترق جلدي وتنتهي المسألة؟! نقول له: لا، إن الذي يعذبك لا يُغلب فسوف يديم عليك العذاب بأن يبدل لك الجلد بجلد آخر، وسبحانه حكيم. فالمسألة ليست مسألة جبروت يستعمله، لا. هو يستعمل جبروته بعدالة.



(١) قال مقاتل: «تأكله النار كل يوم سبع مرّات». وقال الحسن: «سبعين ألف مرّة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا فعادوا كما كانوا». انظر: «تفسير القرطبي» (٥/ ٢١٩).

لَمْحُ الْبَصَر

قال الحق - سبحانه - : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النحل: ٧٧].

يقول فضيلة الإمام الشيخ الشعراوي - رحمه الله - : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾.

أي: له وحده لا شريك له.

ومعنى السموات والأرض، أي: وما بينهما وما وراءهما، ولكن المشهور من مخلوقات الله السماء والأرض.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُۚ ﴾.

جاءت الآية بهذا الغَيْب الوحيد؛ لأنه الغيب الذي استأثر الله به.. ولا يُجلّيها لوقتها إلا هو.. فناسب الحديث عن الغيب أن يأتي بهذا الغَيب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله.

وما هو لَـمْح البصر؟

عندنا أفعال متعددة تدلّ كلّها على الرؤية العامة، وإن كان لكل منها معنًى خاصٌّ بها نقول: رأى ونظر ورَمق ولحظ ولمح.. فرأى مثلاً أي بجُمع عينه، ورمق بأعلى، ولحظَ بجانب، فكلُّها مرتبطة بحركة الحدقة، هذه الحركة ما نسميه باللمح.

إذًا لمح البصر هو تحرُّك حَدقة العين إلى ناحية الشيء المرئي.. فإن أردتَ أن ترى ما فوقك تحركت الحدقة إلى أعلى، وإن أردت أن ترى ما هو أسفل تحركت الحدقة إلى أسفل وهكذا.

هذه الحركة هي لُمح البصر، انتقال الحدقة من وضع إلى وضع.

إذًا شبَّه الحق تبارك وتعالى أمر الساعة عنده سبحانه بلمح البصر، ولكن اللمح حدث، والأحداث تحتاج إلى أزمان، وقد تطول الأزمان في ذاتها ولكنها تقصر عند الرائي.

وقد قرَّب إلينا العلم الحديث هذه القضية بما توصّل إليه من إعادة المشاهد المصوَّرة على البطيء ليعطيك فرصة متابعتها بدقة، فنراهم مثلاً يُعيدون لك مَشهدًا كرويًا لترى كل تفاصيله، فتجد المشهد الذي مَرّ كلمح البصر يُعرَض أمامك بطيئًا في زمن أطول، في حين أن الزمن في السرعة يتجمع تجمّعًا لا تدركه أنت بأيّ معيار، لا بالدقيقة ولا بالثانية.

إذًا فهي جزئيات حركة في جزئيات زمن، فلمَح البصر الذي هو تحرُّك حَدقة العين تحتاج لوقت ولزمن متداخل، وليس هكذا أمر الساعة، بل هذا أقرب ما يعرفه الإنسان، وأقرب تشبيه لِفَهم أمر الساعة بالنسبة له سبحانه.

إذا قيل لك: ما أمر فلان؟ وما شأنه؟ تأخذ في سَرد الأحداث.. حدث كيت وكيت.. فإن قلنا: وما أمر الساعة؟ ما شأنها؟ ساعة تقوم، حيث يموت الأحياء أولاً، ثم يحيا الجميع من لَدُن آدم عليه السلام ثم حَشر وحساب وثواب وعقاب.

أحداث كثيرة وعظيمة لخلق متعددين من الإنس والجن.. يحدث هذا كله كلمح البصر بالنسبة لنا، ولكن إياك أن تتصور أن هذا يحتاج إلى وقت بالنسبة لله سبحانه.

فالأشياء بالنسبة له سبحانه لا تعالج، وإنما هي كُن فيكون، حتى كُن مكوّنة من حرفين: الكاف لفظ وله زمن، والنون لفظ وله زمن، إنما أمر الساعة أقرب من الكاف والنون، ولكن ليس هناك أقلّ من هذا في فهمنا.

والحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن أهل القبور، قال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾[النازعات: ٤٦].

في حين أننا نرى أنهم غابوا كثيرًا في قبورهم.. إذًا كيف يُقَاسُ الزمن؟

يُقاس بتتبُّعك للأحداث، فحينما لا يُوجد حَدَث لا يُوجَد زمن.. وهذا ما نراه في حال النائم الذي لا يستطيع تحديد الزمن الذي نامه إلا على غالب ما يكون في البشر.

ولذلك، في قصة أهل الكهف الذين ناموا ثلاث مائة عام وتسعة أعوام قالوا: ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [المؤمنون: ١١٣].

فهذا هو الغالب في عُرف الناس؛ ذلك لأنهم استيقظوا فلم يجدوا شيئًا حولهم يدل على زمن طويل.. الحال كما هو لم يتغيّر فيهم شيء.. فلو استيقظوا فوجدوا أنفسهم شيوخًا بعد أن كانوا فتية لَعلِموا بمرور الزمن.. إذًا الزمن بالنسبة لعدم الحدث زمن مَلغيّ.

أو نقول: إن أمر الساعة في أن الحق سبحانه يجعلها جامعة للناس إلا كلمح البصر، فكلّ ما يحدث فيها لا يقيسه بزمن، لأن الذي يُقاسُ بالزمن إنما هي الأحداث الناشئة من فاعل له قدرة وقوة تتوزع على الزمن.

فلو أردتَ نَقْل هذا الشيء من هنا إلى هنا فسوف يحتاج منك وقتًا ومجهودًا، أما لو كلفت طفلاً بنقل هذا الشيء فسوف يأخذ وقتًا أكثر ويحتاج مجهودًا أكثر.. إذًا فالزمن يتناسب مع قدرة الفاعل تناسبًا عكسيًا.

ولذلك فالرسول ﷺ حينما حدَّث الناس بالإسراء والمعراج قالوا: أتدّعي أنك أتيتها في ليلة، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهرًا.. هذا لأن انتقالهم يحتاج لعلاج ومُزَاولة، تأخذ وقتًا يتناسب وقدراتهم في الانتقال بالإبل من مكة إلى بيت المقدس.. ومحمد ﷺ لم يقل: أسريتُ، بل قال: أُسرِي بي، الذي أسرى به هو الله سبحانه، فالزمن يُقاس بالنسبة للحق سبحانه وتعالى.

وكذلك إذا قِيسَ زَمن أمر الساعة بالنسبة لقدرته سبحانه فإنه يكون كلمح البصر، أو هو أقرب من ذلك.. إنما هو تشبيه لِنُقرّب لكم الفهم.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: ٧٧].

أي: يكون أمر الساعة كذلك؛ لأن الله قادر على كل شيء، ومادامت الأحداث تختلف باختلاف القدرات، فقدرة الله هي القدرة العُليا التي لا تحتاج لزمن لفعل الأحداث.



مِن دلائِل القُدرة: إمْسَاكُ الطَّيْر في الهواء

قال الحقُّ - سبحانه - : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: ٧٩].

هذا مَثَلٌ مُشَاهَد للجميع، الطير في السماء.. ما الذي يُمسكها أن تقعَ على الأرض؟ وكأن الحق سبحانه يحب أن يُلفتنا إلى قضية أكبر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١].

علينا أن نُصدِّق هذه القضية.. فنحن لا ندرك بأعيننا جرم الأرض، ولا جرم الشمس والنجوم والكواكب.. ونحن لا نقدر على معرفة كل ما في الكون.. إذًا يجب علينا أن نُصدّق قول ربنا، ولا نجادل فيه.

وإليكم هذا المثل الذي تشاهدونه كل يوم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾.

إياك أن تقول إنها رَفْرفة الأجنحة، فنحن نرى الطائر يُثبّت أجنحته في الهواء، ومع ذلك لا يقع إلى الأرض، فهناك إذًا ما يمسكه من الوقوع؛ لذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩].

أي: أنها في حالة بَسط الأجنحة، وفي حالة قبضِها تظل مُعلّقة لا تسقط.

وكذلك نجد من الطيور ما له أجنحة طويلة، لكنه لا يطير مثل الأوز وغيره من الطيور.

إذًا ليست المسألة مسألة أجنحة، بل هي آية من آيات الله تمسك هذا الطير في جَوِّ السماء.. فتراه حُرًا طليقًا لا يجذبه شيء إلى الأرض، ولا يجذبه شيء إلى السماء، بل هو حُرٌّ يرتفع إن أراد الارتفاع، وينزل إن أراد النزول.

فهذه آية مُحسَّة لنستدلّ بها على قدرة الله غير المحسَّة إلا بإخبار الله عنها، فإذا ما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ

أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ [فاطر: ٤١]. آمنا وصدّقنا.

وقوله تعالى: ﴿ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ ﴾.

أي: في الهواء المحيط بالأرض، والمتأمل في الكون يجد أن الهواء هو العامل الأساسي في ثبات الأشياء في الكون، فالجبال والعمارات وغيرها.. ما الذي يمسكها أن تقع؟!

إياك أن تظن أن الأسمنت والحديد وهندسة البناء.. لا، بل يمسكها الهواء الذي يحيط بها من كل جانب، بدليل أنك لو فرَّغتَ جانبًا منها في الهواء لانهارت فورًا نحو هذا الجانب؛ لأن للهواء ضغطًا، فإذا ما فرَّغتَ جانبًا منها قَلَّ فيه الضغط فانهارت.

فالهواء - إذًا - هو الضابط لهذه المسألة، وبالهواء يتوازن الطير في السماء، يسير كما يهوى، ويتحرك كما يحب.

ثم يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: أن الطير الذي يطير في السماء فيه آيات أي عجائب، عجائب صَنعة وعجائب خَلْق، يجب أن تتفكَّروا فيها وتعتبروا بها.

ولكي نقف على هذه الآية في الطير نرى ما حدث لأول إنسان حاول الطيران.. إنه العربي عباس بن فِرْنَاس[١]، أول مَن حاول الطيران في الأندلس، فعمل لنفسه جناحين، وألقى بنفسه من مكان مرتفع.. فماذا حدث لأول طائر بشري؟

طار مسافة قصيرة، ثم هبط على مُؤخرته فكُسرت؛ لأنه نسي أن المسألة ليست مجرد الطيران، فهناك الهبوط الذي نسي الاستعداد له، وفاته أن يعمل له «زِمكّى»[٢]. وهو الذيل الذي يحفظ التوازن عند الهبوط.

---

(١) من أهل قُرطبة، توفى سنة ٢٧٤هـ.

(٢) **الزَّمك**: إدخال الشيء بعضه في بعض، والزّمكي: أصل ذنب الطائر، وقيل: هو منبته، وقيل: هو ذنبه كلّه.

وكذلك الذين يصنعون الطائرات كم تتكلف؟ وكم فيها من أجهزة ومُعدات قياس وانضباط؟ وبعد ذلك تحتاج لقائد يقودها أو مُوجّه يُوجّهها، وحينما أرادوا صناعة الطائرة جعلوها على شكل الطير في السماء له جناحان ومقدمة وذيل، ومع ذلك ماذا يحدث لو تعطّل محركها.. أو اختلّ توازنها؟!

إذًا الطير في السماء آية تستحق النظر والتدبُّر؛ لنعلمَ منها قدرة الخالق سبحانه:

ويقول تعالى: ﴿ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴾.

يؤمنون بوجود واجد الوجود، يؤمنون بحكمته ودقَّة صُنعه، وأنها لا مثيل لها من صنعة البشر مهما بلغت من الدقة والإحكام.



مع أهل الكهف

الكهف فجوة داخلة في الجبل.. لابد أن نبحث قليلاً ونكتشف ما هو داخل هذا الكهف ونعرفه.. والكهف الحسّي الذي ذكره الله أوّلاً في السورة[1] هو الفتية الذين آمنوا بربهم.. هؤلاء الفتية كانوا مؤمنين.. خافوا على أنفسهم من طغيان باطل كافر.. فانتقلوا إلى كهف يختبئون فيه حتى لا يدفعهم هؤلاء الكفار إلى عدم الإيمان ويعودوا بهم إلى الكفر.. والله سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه مهما ظهر الباطل وطغى.. فإن الإيمان موجود في الدنيا.. قد يكون مستورًا عنا.. ولكنه موجود لا ينتهي أبدًا.

هذه هي الآيات الأولى من السورة.. ولكننا عندما نتأمل.. فإننا نجد في هذه الآيات عددًا من المعجزات القرآنية.. التي يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا بها.. وأن يوجّه نظرنا إليها، يقول الله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف: ١١].

وهذه هي المعجزة الأولى فالله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الشيء الذي لا ينام في الحواس هو الأذن.. أنت حين تغمض عينيك لا ترى.. ولكنك لا تستطيع أن تغمض أذنيك أبدًا.. والأذن تظل مفتوحة تؤدي وظيفتها سواء أردت أو لم ترد.. إذا كنت لا تريد أن ترى شخصًا.. فأنت تغمض عينيك فلا تراه أو تشيح عنه بوجهك.. ولكنك إذا لم ترد أن تسمع صوت نفس الشخص.. فأنت لا تستطيع أن تغمض أذنيك.

وإذا كان هناك إنسان نائم.. فقد تمرّ بيدك قرب عينيه فلا يستيقظ.. ولكنك متى أحدثت صوتًا بجانب أذنه فإنه يستيقظ على الفور.. فالله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أوّلاً: أن الأذن لا تنام أبدًا.. وثانيًا: أنها أداة الاستدعاء.. ثالثًا: إنك لو

---

(١) يعني سورة الكهف.

فصلت الأذن عن ضوضاء الدنيا فإن الإنسان يمكن أن ينام فترة طويلة.. ولكنه من المستحيل أن ينام إذا تعرضت الأذن لضوضاء الدنيا.. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى حين أراد أن يجعل أهل الكهف ينامون سنين طويلة دون أن يحسوا بما حولهم.. فإنه لم يأخذ أبصارهم.. ولم يجعل حركة قلوبهم تهبط قليلاً كحركة قلب النائم.. ولكنه ضرب على آذانهم وكان هذا كافيًا جدًّا.. ليفصل بينهم وبين الدنيا تمامًا طوال فترة نومهم.. والأذن هي أداة الاستدعاء في الآخرة.

ثم ننتقل إلى آية أخرى.. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ [الكهف: ١٨].

العقل البشري يجب أن يتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾.

لماذا قال الله سبحانه وتعالى هذا الكلام.. وما هو الداعي لأن توضع هذه الألفاظ في الآية.. مع أنها لو حذفت لا تغير من السياق كثيرًا.. كما قلت وأقول دائمًا: إن لكل كلمة في القرآن الكريم معنى معجزًا.. بعضه وصل إليه العقل.. والبعض الآخر سيصل إليه العقل بعد سنوات طويلة.. إذا تأملنا في الآية الكريمة: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾.

نجد أن الله سبحانه وتعالى سيبعث هؤلاء الفتية كآية من آياته.. أي سيعيدهم مرة أخرى إلى حياة البشر.. ومن هنا فإنه يضع قواعد الصحة للرقاد الطويل.. فنجد أننا الآن إذا أصيب أحدنا بمرض يتطلب رقادًا طويلاً.. فإن الأطباء يحذّرون من أن المريض يجب أن يُقَلَّب يمينًا ويسارًا حتى لا يصاب جسمه بالقروح.. أو تحدث له انسدادات في الدورة الدموية في القدمين.. أو في الجزء الأسفل من الجسم.

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أن الرقاد الطويل يجب أن يتم معه تقليب للإنسان الراقد.. بحيث لا يرقد على جزء واحد من جسده فترة طويلة.. فيصاب بأضرار بالغة يعرفها الطب جيدًا هذه الأيام.. كشف عنها الله

سبحانه وتعالى من علمه للناس فعرفها لهم.

ومن هنا فإنه سبحانه وتعالى وقبل أن يكتشف العالم البشري ذلك بسنوات طويلة وضع هذه الآية الكريمة ليخبرنا بأنه مادام هناك رقاد طويل فيجب أن يقلب الإنسان يمينًا ويسارًا.. وأن يكون هذا أساسًا في المحافظة على صحته.. أو على الأقل في منع أضرار بالغة عنه.



معجزة القرآن.. وتحويل القبلة

نأتي إلى الآية الكريمة التي ذكرها الله في كتابه العزيز عن القِبلة: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وأنا أريد هنا أن أنبه إلى شيء هام جدًا وهو استخدام حرف «السين».. وحرف السين لا يستخدم إلا في شيء مستقبلي.. أي شيء سيحدث في المستقبل ولا يمكن أن أقول سيفعل فلان كذا ويكون قد قام بالفعل.. بل لابد أن يكون لم يقم به ولكن سيحدث في المستقبل.. أي أنه لم يتم.. ولكنه قادم.

يأتي الله في كتابه العزيز ويقول لنبيه الكريم: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾. ومعنى أنهم سيقولون أنهم لم يقولوا بعد.. ولكنهم بعد تغيير القبلة سيقولون.. وهؤلاء الذين سيقولون هم أعداء الدين الذين يحاولون التشكيك فيه وإذاعة الأباطيل عنه.. يأتي الله سبحانه وتعالى ويقول: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾.

يعني أن الله سبحانه وتعالى يصف هؤلاء الناس قبل أن يقولوا بأنهم سفهاء.. ثم يخبر نبيّه والمؤمنين أن هؤلاء السفهاء سيقولون: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾.

ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى قد تحدى هؤلاء الكفار في أمر اختياري مستقبلي لم يحدث.. وقال إنهم سيقولونه.. وإن هؤلاء الذين سيرددون هذا القول هم سفهاء.. وهنا المعجزة.. فالأمر هنا اختياري يمكن للكفار أن يفعلوه وألا يفعلوه.. ويزيد على ذلك أن الله سبحانه وتعالى وصفهم بلفظ منفر وهو السفهاء.. والقرآن كلام الله المتعبد به إلى يوم القيامة لا تغيير فيه ولا تبديل.. ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن هؤلاء الناس حينما سمعوا هذه الآية لم يسألوا عن تغيير القبلة وتجنبوا كل هذا.. إذًا لكانوا قد طعنوا القرآن وطعنوا الدين في قضية إيمانية كبرى، ولكنهم جاءوا وقالوا أن محمدًا ﷺ قال في كلام يوحى إليه من الله أنه سيأتي أناس لقبهم بالسفهاء.. ويسألون ما الذي ولى المسلمين عن قبلتهم.. لكن أحدًا لم يسأل ولم يثر هذا الموضوع لتعلموا جميعًا أن هذا الكلام غير موحى

به.. وأن هذا الدين من عند محمد.

ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو القائل.. وهو الفاعل.. يجعل على يد خصوم القرآن وخصوم محمد ﷺ ما يثبت صدق رسالته ويؤكد حقيقتها.. فيقول سبحانه وتعالى أنه سيأتي سفهاء من الناس ويسألون عن سبب تغيير القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام.. وأنا أنبئكم عنهم قبل أن يأتوا.. وأقول لكم ما سيرددونه قبل أن ينطقوا به.. ثم أعلن أن هؤلاء الناس هم سفهاء.. ويأتي فعلاً هؤلاء الكفار ويقولون هذا الكلام ويرددون ما جاء به القرآن..مثبتين صدق كلام الله .. بينما هم يحاولون أن يضلوا عن دينه.. وهكذا يأتي الله سبحانه وتعالى على يد خصوم القرآن بالدليل القاطع على صدق هذا الكتاب الكريم ويجعل الذين يحاولون هدم هذا الدين مثبتين له بأمر الله وهم لا يملكون في ذلك اختيارا.

إذًا فتغيير القبلة فيه معجزة إيمانية كبرى.. على أن الله سبحانه وتعالى.. قد تحدى خصوم هذا الدين في أمر اختياري.. أما قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١٤٢] فهذا إعجاز آخر على أن الإسلام سينتشر في بقاع الدنيا كلها.. وأن المصلين في كل مكان سيتجهون اتجاهات مختلفة.. فهذا سيتجه مشرقًا إلى القبلة.. وهذا سيتجه غربًا.. وذاك شمالاً.. وذاك جنوبًا.. ولو أنهم جميعًا يتجهون إلى مكان واحد وهو بيت الله الحرام.. إلا أن بعضهم سيتجه شرقًا وبعضهم غربًا وبعضهم شمال شرق.. وفي كل الاتجاهات هم يتجهون إلى بيت الله.. كما أن الصلاة إذا تعذر على الإنسان معرفة القبلة، يمكن أن تكون صحيحة باتجاهه إلى المكان الذي يعتقد أنه الاتجاه إلى بيت الله.. كذلك تكون الصلاة في الطائرة أو الباخرة.. مع أن الطائرة أو الباخرة قد تغير اتجاهها أثناء الصلاة.. والمقصود هنا بالقبلة هو وحدة الهدف للمسلمين وهو التوجه إلى بيت الله الحرام.. والمقصود أكثر هو التسليم لله سبحانه وتعالى بالألوهية .

فأنت في الحج مثلاً تُقبّل حَجَرًا.. وتَرْجُم حجرًا.. ولا تخضع ذلك إلى منطق العقل المحدود.. ولكن تخضعه إلى أمر الله سبحانه وتعالى.. وإن له حكمته في كل

شيء قد أمر به.. فأنت في هذه الحالة أحد ثلاثة:

إنسان مؤمن بالله تتبع ما يقوله الله بحق الألوهية، وبحق عبوديتك له.. ولذلك نجد الخطاب في الطاعات بالنسبة للمؤمنين في القرآن الكريم فيما يتعلق بالطاعات فلا يقول: «يا أيها الناس لا تفعلوا كذا وافعلوا كذا» ولكنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.. والخطاب هنا للمؤمن الذي يدرك يقينًا أن قدرات الله وعلمه أكبر وأقوى من قدرته.. وهو يتبع ما قاله الله كما يتبع المريض ما قاله أكبر أطباء العالم ليشفى من مرضه.. ولا يناقشه في هذا الدواء وذاك.. ولا في النظام الذي يتبعه في العلاج لأن المفروض أن علم الطبيب أكبر كثيرًا من علم المريض.. وفرق، ولا مقارنة بين علم الله وعلم البشر.

أما الكافر أو غير المؤمن فهذا يفعل ما يشاء فليس بعد الكفر ذنب.. تمامًا كما يمزق أوامر أكبر طبيب يعالجه ويتبع هواه.. فيشقى ولكن لا يلومه لأنه ليس بعد الكفر ذنب.. وإذا لم تؤمن فافعل ما شئت.

أمّا الثالث فإنسان يعبد عقله وهو يريد أن يصل بعقله إلى منزلة متساوية مع علم الله سبحانه وتعالى.. وهذا يضل ويشقى ولا يصل إلى شيء لأن علم الله لا يحيط به أحد.

هذه قضية إيمانية كبرى.. ولقد أراح الله العقول وجنبها كثيرًا من الشقاء بأن أعطاها من علمه خلال رسالاته ما يبين لها طريق الحياة الطيبة على الأرض.. ولكن بعض هذه العقول يأبى أن تشمله رحمة الله.. فيتعب نفسه ويتعب عقله ولا يصل إلى شيء.

ولقد جاء الله سبحانه وتعالى بقضية الإيمان الكبرى وهي التسليم لله في العبادة والتكاليف.. ولم يأت بها في أي مجال آخر.. أي أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون الإيمان امتحانًا للنفس البشرية وتسليمًا لله سبحانه وتعالى.. فقال الله جل جلاله إذا أردت أن تعبدني وتؤمن بي وأنه لا إله إلا أنا فهذا هو الطريق.. افعل كذا ولا تفعل كذا.. وفي هذا اختبار لطاعتك وإيمانك.. ومدى استقرار هذا

الإيمان في القلب.. فإذا كنت آمنت بي ربًا وخالقًا فاعبدني كما رسمت لك الطريق.. وأنا حين أعبد الله أعبده كما يريد هو أن يعبد.. ولا أضع من تشريعي أنا وعقلي طريقًا أعلم به الله سبحانه وتعالى كيف يعبد.. فهو الله وأنا العبد.

ولعل تغيير القبلة امتحان للإيمان.. فالاتجاه إلى المشرق أو المغرب لن يكلف المؤمن جهدًا.. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].



من دلائل القُدْرة: الحواسّ الْخَمْس

الإنسان في صلته بالعالم الخارجي يتمتع بما نسميه بالحاسة أو الحواس.. فأنت ككائن بشري حين تتصل بالعالم الذي يحيط بك فإنك تتصل به عن طريق حواس حددت بخمس هي: أن يسمع الإنسان ويرى ويشم ويلمس ويتذوق.. هذه الحواس نفهم بواسطتها العالم الخارجي.. ونميز بواسطتها هذا العالم.. بل ونعطيه الصفات التي نطلقها عليه.. فصفات الألوان مثلاً نميزها بحاسة البصر.. ونوع الطعام مثلاً نعطيه لفظ الحلو.. ولفظ المرّ .. ولفظ الجيّد.. ولفظ الرديء.. بحاسة التذّوق إلى آخر هذا الكلام.. إذًا فنحن نتصل بالعالم الموجود خارجنا عن طريق هذه الحواس.. ولكن ماذا عن عالم ما هو داخل النفس البشرية.. وكيف يمكن أن يتم الاتصال بين الإنسان.. وما هو موجود في داخله.. هل يتم هذا الاتصال عن طريق الحواس أو عن طريق أشياء أخرى يطلق عليها بعض الناس البديهيات.. وبعض الناس لفظ إلهام خاص.. وبعض الناس ألفاظًا أخرى.. ولكن المؤكد أن هذا الإحساس الذي يتم بالنسبة لما في داخل النفس البشرية لا يتم عن طريق الحواس الخمس التي تتصل عن طريقها بالعالم الخارجي.. وإنما يتم عن طريق أشياء أخرى.. يطلق عليها كما قلت إلهام أو بديهيات.. أو إحساس داخلي إلى آخر هذا.

ولنشرح الموضوع بشيء من التفصيل.. نبدأ أوّلاً بالأشياء التي يصل إليها الإنسان عن طريق حواسه التي تصله بالعالم الخارجي.. فهو يرى ألوانًا مختلفة.. ويسمع أصواتًا مختلفة.. ويلمس أشياء مختلفة.. ويتذوق أطعمة مختلفة.. ويشم روائح مختلفة.. هذا هو اتصال الإنسان بالعالم الخارجي.. أما اتصاله بما في داخله فيأتي مثلاً عن طريق شعوره بالجوع.. إننا لا نرى الجوع.. ولا نلمسه، ولا نشمه، ولا نتذوقه.. ولكننا نشعر به.. وما ينطبق على الجوع ينطبق على الأشياء الأخرى.. مثل الحب والكره مثلاً.. الإنسان يحب شخصًا ما.. ويكره شخصًا

ما.. أو شيئًا ما دون أن يكون لذلك سبب حسيّ معروف.

إذًا فهناك أشياء في داخلنا.. تسمح لنا بأن نشعر شعورًا مُعيّنًا.. هذا الشعور نحس به ونعرفه تمامًا.. ولكننا لا نرى بحواسنا.. إن الإنسان مهما قال في شرح أسباب الحب والكراهية لا يستطيع أن يصل إلى الحاسة التي تسبب الحب.. أو التي تسبب الكراهية.. فهذه الحاسة لا تدخل ضمن الحواس الخمس التي يتصل الإنسان عن طريقها بالعالم الخارجي.. أو التي تحدد علاقة الإنسان بالعالم المادي.. ومن هنا فإن العلماء حريصون حينما يتحدثون عن الحواس على أن يقولوا أن هذه الحواس هي التي توصل الإنسان إلى العالم الخارجي.. وأن الإنسان له ملكات وغرائز وشعور وإلهام وأشياء أخرى في داخله توصله إلى داخل النفس البشرية وتؤثر في هذه النفس.

والذي لا يخضع للمنطق، نحاول أن ننكر أن في داخل الإنسان أشياء كثيرة غير الحواس التي توصله إلى العالم الخارجي.. وأن الإنسان يستطيع أن يتصل بالعالم.. بينما ما بداخله يطرق بلا اتصال أو إحساس معين.. الحقيقة أن الإلهام أو الشعور والإحساس بما في داخل النفس البشرية يوجد قبل إحساس هذه النفس بما حولها من العالم.. تلك سنة الخلق.. فالطفل الصغير مثلاً يحسّ بالجوع والعطش.. ويعبر عنهما بالبكاء قبل أن يستطيع أن يستخدم حواسه في الاتصال بالعالم الخارجي.. وهو يحس بالحنان والدفء.. والحب والكُره.. والقسوة.. والرحمة.. كل هذه الأشياء توجد في داخل نفسه مع دقات الحياة الأولى.. بينما الحواس تنتظر أسابيع أو شهورًا قبل أن تستطيع أن تؤدي مهمتها بشكل يمكن أن يعبر عنه الطفل.

وإذا درسنا هذه الحواس الداخلية.. نجد أن أقواها هو إحساس الإنسان بوجود الله.. هذا الإحساس الذي قد يفتقر إلى شيء من الدقة بالنسبة لعظمة الله وقدرته.. والكون.. ووجوده.. وكل شيء من هذا النوع.. ولكن هذا الإحساس يؤكد وجود قوة داخل الإنسان تدفعه إلى أن يشعر ويحس بوجود الخالق سبحانه وتعالى.

فاسم الله مثلاً لا تدركه الحواس الخمس.. لأنه أكبر من قدرتها.. ولكن تدركه حاسة داخل الإنسان.. حاسة غير مرئية.. ومن هنا فإن كلمة الله التي هي فوق قدرة الحواس الخمس نجد أن الأذن تفهمها عندما تسمعها.. ولا يمكن للأذن أن تفهم شيئًا لا يوجد أصلاً داخل النفس البشرية.. بحيث يكون التصور هنا ليس غريبًا تمامًا.. على هذه النفس.. بل هو معروف لها بشكل ما.. قد لا نفهمه نحن.. ولا نستطيع أن نحلله.. ولكنه معروف، فعندما يذكر لنا أحد اسم الله.. فإن الذي يقفز إلى عقولنا هو وجود قوة خارقة.. هي التي خلقت هذا العالم.. وأن هذه القوة خارج نطاق العقل.. بل وخارج نطاق الحواس.

إذًا كيف ندرك وجود هذه القوة.. وكيف يكون اسمها مألوفًا عندنا.. وهي خارج نطاق الحواس.. وخارج نطاق العقل..هنا يأتي ما في داخل النفس.. وهو الإلهام أو الشعور ليقول لنا أن هذه القوة، رغم أنها فوق مستوى العقل والحواس.. موجودة داخل النفس.. والنفس تفهم وتحس بوجودها.

وفي العصر القديم بدأ الفلاسفة خصوصًا فلاسفة اليونان يبحثون عما وراء المادة.. عما وراء هذا العالم المادي.. عن الخلق.. وعن القوة التي أوجدت هذا العالم.. إلى آخر فلسفة اليونان القديمة عما وراء المادة.. مَن الذي قال لهم أن هناك شيئًا وراء العالم المادي يجب أن يدرس.. كيف عرفوا أن هناك شيئًا خلاف المادة.. مع أن الحواس الخمس لا تقول لنا شيئًا إلا عن المادة.. ونحن هنا لا نناقش الفلسفة اليونانية.. وسواء نجحت هذه الفلسفة أو غيرها أو فشلت.. موضوع لا يهمنا.. وإنما الأمر الذي يهمّنا أنهم كانوا مدفوعين لينظروا إلى ما وراء الطبيعة.. وأنه كان لديهم أشياء داخل أنفسهم ليست أشياء حواسية.. أي لا تخضع للحواس ليفعلوا ذلك.

بل إن الإنسان منذ فجر التاريخ .. منذ بداية خَلْقه.. وهو يبحث عمّا وراء المادة.. يبحث عنه بطرقه المختلفة.. وهو أحيانًا يتخذه سبيلا آخر لإظهار خضوعه أو عبوديته لهذه القوة التي هي وراء المادة.. ولكن المهم في هذا كله أن هناك شعورًا داخليًا في النفس البشرية.. يقول لها أن هناك شيئًا وراء الطبيعة.. إن

هناك قوة ما وراء هذا العالم.. وأن هذه القوة هي قوة عظيمة وخارقة.. هناك شعور داخلي في كل نفس بشرية بوجود الله.. تلك القوة التي هي وراء هذا الكون.. هناك شيء داخل النفس البشرية يجعلها تدرك أو تفهم أن العالم المادي الذي يرونه لا يمكن إلا أن يكون وراءه قوة خارقة قادرة منظمة قوية.

ولكن العالم المادي نفسه الذي نعيش فيه.. لا يمكن أن يخلق فينا هذا الشعور.. لا يمكن أن يقول لنا إذا استخدمنا حواسنا فقط إن هناك قوّة قادرة قاهرة خلف كل هذا.. إذًا لابد أن هناك قوة أخرى خلاف هذا العالم المادي هي التي وضعت فينا هذا التصور.. وعلمتنا أن هناك شيئًا خلاف المادة يجب أن يتم البحث عنه.. ومن هنا بدأ البحث والفكر والاتجاه نحو هذه القوة.. ولو لم يكن هناك شعور في داخلنا.. وإحساس قوي بوجود هذه القوة لما بحثنا.. ولما دخل كل هذا البحث عبر تاريخ البشرية.

على أن هناك ملاحظة أخرى أحب أن أسجلها.. هي أن الإنسان حين يصل إلى مرحلة التفكير في وجود الله.. أو المرحلة التي يعقل فيها أن هناك قوة خارقة وراء هذا الكون.. لابد أن تكون قد مرت فترة من عمره.. فالإنسان عادة لا يبدأ في التفكير في مثل هذه الأمور أو التحدث عنها بعمق دون أن يكون قد تجاوز سن العشرين أو الثلاثين على الأقل.. ليكون لديه نضج العقل الكافي لمناقشة أمر عميق كهذا.. والسؤال الذي يجب أن يطرح هنا هو بأي منطق عَبد هؤلاء الناس الله قبل الوصول إلى هذه السن؟ وكيف تفهموا كل هذه الفلسفة التي تحتاج إلى عقل ناضج وإلى علم ودراسة وتأمل حتى يستطيعوا أن يصلوا إلى أن هناك شيئًا وراء المادة؟

ولكننا نجد العقول البسيطة التي لم تقرأ كتابًا واحدًا.. ولم تدرس ما هي المادة تعرف أن الله موجود.. وتعبده بفهم.. ونجد أولئك الذين لم يناقشوا هذا الموضوع على الإطلاق يتقبلون وجود الله ويقومون بعبادته.. دون أن يحسوا أن هناك تناقضًا بين الكون الذي يعيشون فيه وبين وجود الخالق سبحانه وتعالى.. بل أن أكثرهم يحس بانسجام فطري غريب بأن الله سبحانه وتعالى ووجود الكون

شيئان لابد منهما.. ووجودهما حقيقة داخل النفس.

ولكن إذا كان يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد وجود الله.. فما الذي أوجد هذا القلق في العالم.. وما الذي أوجد المذاهب المتضاربة.. ولماذا يحاول بعض الناس أن يثبت وجود الله.. وبعض الناس أن ينكر وجود الله..ما سبب هذا التضارب العجيب الذي نراه مادامت النفس البشرية يوجد فيها بالفطرة ما يؤكد وجود الله؟

الحقيقة أن الذي صنع هذا هو هوى النفس.. وكل من حاول أن يخوض في هذا الموضوع وضع الخيال مكان المنطق.. ووضع التصور مكان التفكير..ومن هنا فإن العقل البشري في محاولته أن يخوض فيما هو أكبر من قدراته لم يستطع أن يقدم ما يريده.. فانطلق إلى الخيال.

وأريد هنا أن أضرب مثلاً يوضح ذلك.. إذا أقفلنا باب هذه الحجرة التي نجلس فيها.. ثم طرق أحدهم الباب فكلنا يعرف أن هناك شخصا ما هو الذي طرق الباب.. هذه قدراتنا.. وهذه نقطة لا خلاف عليها.. فإذا بدأنا نسأل أنفسنا من الذي طرق الباب؟ هل هو رجل أم امرأة؟ قصير أم طويل؟ أبيض أم أسود؟ عربي أم أعجمي؟ هنا يبدأ الخلاف.. لماذا؟ لأننا لا نحكم المنطق والعقل.. ولكن نحكم الخيال.

وهذا هو ما حدث بالنسبة لعدد من البشر.. لقد أرهقوا أنفسهم في تخيل الله.. مع أن هذا التخيل خارج عن نطاق العقل البشري.. ومستحيل.. ذلك لأننا لكي نتخيل شيئًا ما.. فإن هذا الشيء يجب أن يشبه شيئًا في قدرات العقل.. فأنت حين تريد أن تشرح شكلاً معينًا لإنسان ولا يستطيع أن يفهمك تقول له: إنه شيء يُشْبه الكرة.. وحينئذ تكون قد نقلت هذا التصور من خارج قدرة العقل البشري إلى داخلها.. فاستطاع الإنسان أن يتصور ذلك الشيء.. ولكن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء.. إذًا كل ما سيقوله الفلاسفة هو من باب التخيل الذي لا يمكن أن يدركه العقل.. ولا يخضع لمنطق.. ومن هنا فإننا لو قطعنا المنطق لما اختلفنا..

ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بنفسه عما يريدنا أن نعرفه عنه وعن عبادته.. ولكننا نريد أن نتجاوز ذلك إلى أشياء ليست في قدرة العقول البشرية .. فنضيع ولو أننا تمسكنا بما قاله لنا الله.. لكان في ذلك المنطق السليم.. إذًا فإن ما يؤكد وجود الله أنه موجود في قلوبنا بالفطرة.. وطريقة عبادة الله وطاعته وكل ما يريدنا أن نعرفه عنه موجود في رسالاته التي أرسلها بواسطة أنبيائه المختارين.. فالمنطق يقول أننا نتبع هذه الرسالات.. والخيال يقول أننا نبحث عما فوق قدرات العقل.. ونتوه مع أن رسالات الله سبحانه وتعالى للبشر هي في حقيقتها أكبر دليل على وجود الله.



الـرُوح

قال الحق - سبحانه - : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

حينما سُئل رسول الله ﷺ عن الروح.. كان السائلون يريدون أن يعرفوا ما هي الروح.. ومم تتكون.. وكيف تهب الحياة للجسد ثم تذهبها عنه.. وهنا رد الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

أي أن الروح سر من أسرار الله سيظل غيبًا عنا إلى يوم القيامة.. الله سبحانه وتعالى يقول: إن علمكم الأرضي الذي تظنون أنه كثير.. وهو في الحقيقة أقل القليل.. علمكم هذا لن يصل بكم إلى سر الروح.. أنتم تسألون ما هي الروح.. وأنا أقول لكم إن علم البشرية كلها لن يصل إليها.. بل لن يصل إلى أسرارها.. وأقول هذا يقينًا.. وهذا تحدٍّ من إعجاز القرآن الكريم.. فمازالت البشرية بكل علمها وعلمائها عاجزة عن أن تقترب من الروح.. أو تكشف سرًا واحدًا من أسرارها.

بل إن تحدي الله سبحانه وتعالى قد جعل هذه الروح، وهي تعيش في جسد بشري.. يعجز صاحب هذا الجسد عن أن يعلم شيئًا عنها.. كيف جاءت وكيف خرجت.. بل إنك تسأل أعلم علماء الأرض الذين يجادلون في الله بغير علم ولا استحياء ويأخذون الرؤية المادية على أساس أنها يقين العلم كله.. أولئك الذين يحاولون ستر وجود الله ويعلنون الكفر والإلحاد ويطالبون أن يروا الله.. نقول لهم: إن الله برحمته قد أظهر لنا في هذه الحياة الدنيا جهلكم وأنتم تدعون العلم.. فالروح في أجسادكم.. معكم في رحلتكم من المهد إلى اللحد.. أو من الميلاد إلى القبر.. وأنا أسألكم يا من تدعون العلم.. أين هي الروح التي في أجسادكم.. هل هي في القلب الذي ينبض أو في العقل الذي يفكر.. أو في القدم التي تمشي.. أو في اليد التي تبطش.. أو في اللسان الذي يتكلم.. أو في الرئة التي تتنفس.. أين هي؟

وأين مكانها؟ والجواب طبعًا أن أحدًا لا يستطيع أن يحدد مكانها.. فنقول لهم: ما هو شكلها؟ فيقفون صامتين بلا جواب.. فنقول لهم هل هي موجودة؟ فيقولون نعم موجودة لأنها تعطينا الحياة.. فنقول لهم إذا كانت الروح وهي موجودة يقينيًا في كل كائن حي قد عجزتم عن تحديد مكانها أو شكلها.. أو أن تروها رؤية العين.. ومع ذلك فهي موجودة وجودًا يقينيًا.. إذا كان ذلك لمخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى.. لا تستطيعون الإحاطة به.. فكيف تريدون رؤية الله وتقولون لن نؤمن حتى نرى الله جهرًا.. وأنتم عاجزون عن أن تروا الروح وهي مخلوق من مخلوقات الله في أجسادكم.. ألا يصيبكم الخزي وأنتم تجاهرون بأن عدم رؤية الله إنكار لوجود الله جل جلاله.. ألا تكفي هذه التجربة لتبين لكم أنكم تفترون على الله.. وكان من الأجدر بكم أن تسجدوا لقدرة الله سبحانه وتعالى الذي وضع فيكم هذا الإعجاز.. وتوقنون بوجود الله.. وبعظيم علمه.. وتسجدون له وتسبحونه.

ولكن لماذا أخفى الله سبحانه وتعالى علم الروح عن البشرية؟

لأنه أولاً دليل قدرة.. وثانيًا دليل الوجود بلا رؤية.. وثالثًا لأن حقيقة الروح سواء علمت بها أو لم تعلم لن تفيدك شيئًا في حياتك الدنيا.. فالانتفاع بالروح لا يقضي ولا يقتضي العلم بها.. ولكي نقرب هذا المعنى إلى القارئ نقول: إن الله سبحانه وتعالى قد خلق أشياء كثيرة لا يقتضي الاستفادة بها علمًا من المستفيد.. فالكهرباء مثلاً أستفيد بها سواء علمت أو لم أعلم.. فالأمي الذي لا يقرأ يضع يده على الجرس فيحدث رنينًا وعلى مفتاح النور فتضيء الحجرة.. هل يعرف هذا الرجل الذي لا يقرأ ولا يكتب حقيقة الكهرباء؟ أبدًا.. ولكنه ينتفع بها.

بل أنت في حياتك ملايين الأشياء التي تنتفع بها ولا تعرف شيئًا عن حقيقتها.. هل يعرف كل من يركب الطائرة نظريات الطيران.. وهل يدري كل من يستخدم التليفون كيف تتم المكالمة.. وهل يعرف كل من يشاهد برنامجًا تليفزيونيًا ينقل بالقمر الصناعي.. كيف يتم الاتصال أو نقل الصوت والصورة

عن طريق الأقمار الصناعية.. وهل لو جهل من يزرع الأرض أن الأرض كروية وأنها تدور حول نفسها.. هل لو جهل هذه الحقيقة، فإنه لا يستطيع الاستفادة من الأرض في أن تنتج له ما يريد من طعام.

وأستطيع أن أمضي بلا نهاية في أشياء أقول عنها ينتفع بها ملايين الناس دون أن يعرفوا سرها.. لأقول إن الله سبحانه وتعالى برحمته عندما يحجب حقيقة الروح عنا فإن ذلك لا يؤثر في انتفاعنا بهذه الروح في رحلة الحياة.

إذًا أنت تنتفع بالروح التي تعطيك الحياة والحركة وإن كنت تجهل ما هي.. ولا يعني أن الله قد حجب حقيقتها عنك أنك لا تستطيع أن تنتفع بها.. إنها في داخلك.. في كل خلية من جسدك تهبها الحياة والحركة.

نعود إلى قول الحق: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾.

وماذا تعني كلمة أمر الله .. القرآن يبين لنا ذلك.. فالله يقول: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢].

إذًا أمر الله بالنسبة لنا هو إرادة الله سبحانه وتعالى لهذا الجسد أن يحيا، هو التفسير لمعنى الأمر من الله سبحانه وتعالى أي الإيجاد بكلمة ﴿ كُن ﴾ .. والخروج من علم القادر وهو الله سبحانه وتعالى إلى علم غير القادر وهو الإنسان بكلمة ﴿ كُن ﴾، وهذا الخروج يحدث ليباشر الشيء دوره ويؤدي مهمته في الكون.. فأمر الله سبحانه وتعالى يكون إيذانًا بأن يباشر الشيء مهمته في الكون بكلمة ﴿ كُن ﴾.

نأتي بعد ذلك إلى الآية الكريمة: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القيامة: ٢٦- ٣٠].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٣- ٨٧].

والله سبحانه وتعالى يـ ث في هذه الآيات عن الروح وهي تغادر الجسد

وهي تخرج منه.. إنه يتحدث عن لحظة الموت.. لحظة الفراق بين الجسد والروح.. والله سبحانه وتعالى عندما يتحدث هنا عن الروح يتحدث عن شيء له دخول وله خروج.. أو عنصر تام.. فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يهب للجسد الحياة وحدث ذلك بكلمة «كن» .. قد دخلت الروح إلى الجسد لتعطيه الحياة.. وإذا أراد الله أن يسلب الحياة أخرج من الجسد تلك الروح التي تعطيه الحياة.. فإذا جاء بعض العلماء وقالوا أنهم وضعوا عددًا من الذين يحتضرون فوق ميزان حساس ثم لاحظوا لحظة الوفاة أن الجسم يفقد جزءًا فجائيًا من وزنه.. وأنهم يدللون بذلك على أن الروح لها وزن يسير.. نقول لهم: إن ما تقولونه ليس علمًا، ولكنه ظن فقط.. أي أنكم تظنون ذلك.. فقد يكون هذا الوزن الذي يفقد نتيجة كمية من الهواء من الجسد فجأة.. أو توقف سريان الدم.. أو نتيجة أي تفاعل مادي يحدث ساعة الوفاة.. وأن هذا لا يعني يقينًا أن الروح لها وزن.. ولذلك فإن البحث العلمي على أن الروح لها وزن أو ليس لها وزن مجرد عبث.



الحكمَةُ من تَعدّد الزّوجَات

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾ [النساء: ٣].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله - : «الحقُّ هنا في سورة النساء يقول: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ أي إن خفتم ألا ترفعوا الظلم عن اليتامى، ومعنى أن تخاف من ألا تقسط لأنك بار تعرف كيف تنقذ نفسك من مواطن الزلل. أي فإن خفتم أيها المؤمنون ألا ترفعوا الجور عن اليتامى فابتعدوا عنهم وليسد كل مؤمن هذه الذريعة أمام نفسه حتى لا تحدثه نفسه بأن يجور على اليتيمة فيظلمها، وإن أراد الرجل أن يتزوج فأمامه من غير اليتامى الكثير من النساء.

ومادامت النساء كثيرات فالتعدّد يصبح واردًا، فهو لم يقل: اترك واحدة وخذ واحدة، لكنه أوضح: اترك اليتيمة وأمامك النساء الكثيرات، إذًا فقد ناسب الحال أن تجيء مسألة التعدد هنا، لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يرد الرجل الولي عن نكاح اليتيمات مخافة أن يظلمهن، فأمره بأن يترك الزواج من اليتيمة الضعيفة؛ لأن النساء غيرها كثيرات. ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾.

وقول الحق: ﴿ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ أي غير المحرمات في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [النساء: ٢٢].

وفي قوله سبحانه: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ

أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ [النساء: ٢٣، ٢٤].

إذًا فما طاب لكم من النساء غير المحرمات هن اللاتي يحللن للرجل ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ وهنا يجب أن نفهم لماذا جاء هذا النص؛ ولماذا جاء بالمثنى والثلاث والرباع هنا؟

إنه سبحانه يريد أن يُزَهِّد الناس في نكاح اليتيمات مخافة أن تأتي إلى الرجل لحظة ضعف فيتزوج اليتيمة ظالمًا لها، فأوضح سبحانه: اترك اليتيمة، والنساء غيرها كثير، فأمامك مثنى وثلاث ورباع، وابتعد عن اليتيمة حتى لا تكون طامعًا في مالها أو ناظرًا إلى ضعفها أو لأنها لم يعد لها وليّ يقوم على شأنها غيرك.

ونريد أن نقف هنا وقفة أمام قوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ ما معنى مثنى؟ يقال ﴿ مَثْنَىٰ ﴾ أي اثنين مكررة، كأن يقال: جاء القوم مثنى، أي ساروا في طابور وصف مكون من اثنين اثنين. هذا يدل على الوحدة الجائية.

ويقال: جاء القوم ثلاث، أي ساروا في طابور مكون من ثلاثة؛ ثلاثة، ويقال: جاء القوم رباع، أي جاء القوم في طابور يسير فيه كل أربعة خلف أربعة أخرى.

ولو قال واحد: إن المقصود بالمثنى والثلاث والرباع أن يكون المسموح به تسعة من النساء.

نقول له: لو حسبنا بمثل ما تحسب، لكان الأمر شاملا لغير ما قصد الله، فالمثنى تعني أربعة، والثلاث تعني ستة، والرباع تعني ثمانية، وبذلك يكون العدد ثمانية عشر، ولكنك لم تفهم، لأن الله لا يخاطب واحدًا، لكن الله يخاطب جماعة فيقول: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾.

فإذا قال مدرس لتلاميذه: افتحوا كتبكم، أيعني هذا الأمر أن يأتي واحد ليفتح كل الكتب ؟ لا، إنه أمر لكل تلميذ بأن يفتح كتابه، لهذا فإن مقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحادًا.

وعندما يقال: اركبوا سياراتكم، أي أن يركب كل واحد سيارته. إذًا فمقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحادًا، وقوله الحق: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾.

هو قول يخاطب جماعة، فواحد ينكح اثنتين وآخر ينكح ثلاث نساء، وثالث ينكح أربع نساء.

والحق سبحانه وتعالى حينما يشرع الحكم يشرعه مرة إيجابًا ومرة يشرعه إباحة، فلم يوجب ذلك الأمر على الرجل، ولكنه أباح للرجل ذلك، وفيه فرق واضح بين الإيجاب وبين الإباحة. والزواج نفسه حتى من واحدة مباح. إذًا ففيه فرق بين أن يلزمك الله أن تفعل وأن يبيح لك أن تفعل؛ وحين يبيح الله لك أن تفعل، ما المرجح في فعلك؟ إنه مجرد رغبتك.

ولكن إذا أخذت الحكم، فخذ الحكم من كل جوانبه، فلا تأخذ الحكم، بإباحة التعدد ثم تكف عن الحكم بالعدالة، وإلا سينشأ الفساد في الأرض، وأول هذا الفساد أن يتشكك الناس في حكم الله. لماذا؟ لأنك إن أخذت التعدد، وامتنعت عن العدالة فأنت تكون قد أخذت شقا من الحكم، ولم تأخذ الشق الآخر وهو العدل، فالناس تجنح أمام التعدد وتبتعد وتميل عنه لماذا؟ لأن الناس شقوا كثيرًا بالتعدد أخذًا لحكم الله في التعدد وتركًا لحكم الله في العدالة.

والمنهج الإلهي يجب أن يؤخذ كله، فلماذا تكره الزوجة التعدد؟ لأنها وجدت أن الزوج إذا ما تزوج واحدة عليها التفت بكليته وبخيره وببسمته وحنانه إلى الزوجة الجديدة، لذلك فلابد للمرأة أن تكره زواج الرجل عليها بامرأة أخرى.

إن الذين يأخذون حكم الله في إباحة التعدد يجب أن يلزموا أنفسهم بحكم

الله أيضا في العدالة، فإن لم يفعلوا فهم يشيعون التمرد على حكم الله، وسيجد الناس حيثيات لهذا التمرد، وسيقال: انظر، إن فلانا تزوج بأخرى وأهمل الأولى، أو ترك أولاده دون رعاية اتجه إلى الزوجة الجديدة.

فكيف تأخذ إباحة الله في شيء ولا تأخذ إلزامه في شيء آخر، إن من يفعل ذلك يشكك الناس في حكم الله، ويجعل الناس تتمرد على حكم الله والسطحيون في الفهم يقولون: إنهم معذورون، وهذا منطق لا يتأتى.

إن آفة الأحكام أن يؤخذ حكم جزئي دون مراعاة الظروف كلها، والذي يأخذ حكما عن الله لابد أن يأخذ كل منهج الله.

هذا إنسانًا عدل في العِشْرَة وفي النفقة وفي البيتوتة وفي المكان وفي الزمان ولم يرجح واحدة على أخرى، فالزوجة الأولى إن فعلت شيئًا فهي لن تجد حيثية لها أمام الناس. أما عندما يكون الأمر غير ذلك فإنها سوف تجد الحيثية للاعتراض، والصراخ الذي نسمعه هذه الأيام إنما نشأ من أن بعضًا قد أخذ حكم الله في إباحة التعدد ولم يأخذ حكم الله في عدالة المعدد. والعدالة تكون في الأمور التي للرجل فيها خيار. أما الأمور التي لا خيار للرجل فيها فلم يطالبه الله بها.

ومن السطحيين من يقول: إن الله قال: اعدلوا، ثم حكم أننا لا نستطيع أن نعدل. نقول لهم: بالله أهذا تشريع؟، أيعطي الله باليمين ويسحب بالشمال؟ ألم يشرع الحق على عدم الاستطاعة فقال: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٩].

ومادام قد شرع على عدم الاستطاعة في العدل المطلق فهو قد أبقى الحكم ولم يلغه، وعلى المؤمن ألا يجعل منهج الله له في حركة حياته عضين بمعنى أنه يأخذ حكمًا في صالحه ويترك حكمًا إن كان عليه.

فالمنهج من الله يؤخذ جملة واحدة من كل الناس؛ لأن أي انحراف في فرد من أفراد الأمة الإسلامية يصيب المجموع بضرر. فكل حق لك هو واجب عند

غيرك، فإن أردت أن تأخذ حقك فأد واجبك، والذين يأخذون حكم الله في إباحة التعدد يجب أن يأخذوا حكم الله أيضًا في العدل، وإلا أعطوا خصوم دين الله حججا قوية في إبطال ما شرع الله، وتغيير ما شرع الله بحجة ما يرونه من آثار أخذ حكم وإهمال حكم آخر.

والعدل المراد في التعدد هو القسمة بالسوية في المكان، أي أن لكل واحدة من المتعددات مكانًا يساوي مكان الأخرى، وفي الزمان، وفي متاع المكان، وفيما يخص الرجل من متاع نفسه، فليس له أن يجعل شيئًا له قيمة عند واحدة، وشيئًا لا قيمة له عند واحدة آخرى، يأتي مثلا ببيجامة (منامة) صوف ويضعها عند واحدة، ويأتي بأخرى من قماش أقل جودة ويضعها عند واحدة، لا. لابد من المساواة، لا في متاعها فقط، بل متاعك أنت الذي تتمتع به عندها، حتى أن بعض المسلمين الأوائل كان يساوي بينهن في النعال التي يلبسها في بيته، فيأتي بها من لون واحد وشكل واحد وصنف واحد، وذلك حتى لا تَدِلَّ واحدة منهن على الأخرى قائلة: إن زوجي يكون عندي أحسن هندامًا منه عندك؛ والعدالة المطلوبة - أيضا - هي العدالة فيما يدخل في اختيارك؛ لأن العدالة التي لا تدخل في اختيارك لا يكلف الله بها، فأنت عدلت في المكان، وفي الزمان، وفي المتاع لكل واحدة، وفي المتاع لك عند كل واحدة، ولكن لا يطلب الله منك أن تعدل بميل قلبك وحب نفسك؛ لأن ذلك ليس في مكنتك.

والرسول ﷺ يعطينا هذا فيقول: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم ويعدل ويقول: «**اللَّهُمَّ هذا قسمي فيما أَمْلِك فلا تَلُمْني فيما تَملك ولا أملك**»[1]. يعني القلب.

إذًا فهذا معنى قول الحق: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء: ١٢٩].

(١) حديثٌ صحيحٌ. رواه أصحاب السنن.

لأن هناك أشياء لا تدخل في قدرتك، ولا تدخل في اختيارك، كأن ترتاح نفسيًا عند واحدة ولا ترتاح نفسيًا عند أخرى، أو ترتاح جنسيًا عند واحدة ولا ترتاح عند أخرى، لكن الأمر الظاهر للكل يجب أن تكون فيه القسمة بالسوية حتى لا تَدِلَّ واحدة على واحدة.

وإذا كان هذا في النساء المتعددات - وهن عوارض - حيث من الممكن أن يخرج الرجل عن أي امرأة - بطلاق أو فراق فما بالك بأولادها منه؟ لابد أيضًا من العدالة.

والذي يفسد جو الحكم المنهجي لله أناسًا يجدون رجلاً عدَّد، فأخذ إباحة الله في التعدد، ثم لم يعدل، فوجدوا أبناءه من واحدة مهملين مشردين، فيأخذون من ذلك حجة على الإسلام، والذين حاولوا أن يفعلوا ما فعلوا في قوانين الأحوال الشخصية إنما نظروا إلى ذلك التباين الشديد الذي يحدثه بعض الآباء الحمقى نتيجة تفضيل أبناء واحدة على أخرى في المأكل والملبس و التعليم.

إذًا فالمسلم هو الذي يهجر دينه ويعرضه للنقد والنيل من أعدائه له. فكل إنسان مسلم على ثغرة من ثغرات دين الله تعالى فعليه أن يصون أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته من أي انحراف أو شطط؛ لأن كل مسلم بحركته وبتصرفه يقف على ثغرة من منهج الله، ولا تظنوا أن الثغرات فقط هي الشيء الذي يدخل منه أعداء الله على الأرض كالثغور، لا، الثغرة هي الفجوة حتى في القيم يدخل منها خصم الإسلام لينال من الإسلام.

إنك إذا ما تصرفت تصرفًا لا يليق فأنت فتحت ثغرة لخصوم الله. فسُدَّ كل ثغرة من هذه الثغرات، وإذا كان الرسول ﷺ قد توسع في العدل بين الزوجات توسعًا لم يقف به عند قدرته، وإن وقف به عند اختياره، فالرسول ﷺ حين مرض كان من الممكن أن يعذره المرض فيستقر في بيت واحدة من نسائه، ولكنه كان يأمر بأن يحمله بعض الصحابة ليطوف على بقية نسائه في أيامهن فأخذ قدرة الغير. وكان إذا سافر يقرع بينهن، هذه هي العدالة.

وحين توجد مثل هذه العدالة يشيع في الناس أن الله لا يشرع إلا حقًا، ولا يشرع إلا صدقًا، ولا يشرع إلا خيرًا، ويسد الباب على كل خصم من خصوم دين الله، حتى لا يجد ثغرة ينفذ منها إلى ما حرم دين الله، وإن لم يستطع المسلم هذه الاستطاعة فليلزم نفسه بواحدة، ومع ذلك حين يلزم المسلم نفسه بزوجة واحدة، هل انتفت العدالة مع النفس الواحدة؟ لا، فلا يصح ولا يستقيم ولا يحل أن يهمل الرجل زوجه. ولذلك حينما شكت امرأة إلى عمر بن الخطاب ﷺ أن زوجها لا يأتي إليها وهي واحدة وليس لها ضرائر، فكان عنده أحد الصحابة، فقال له: أفتها (أي أعطها الفتوى).

قال الصحابي: لك عنده أن يبيت عندك الليلة الرابعة بعد كل ثلاث ليال. ذلك أن الصحابي فرض أن لها شريكات ثلاثا، فهي تستحق الليلة الرابعةُ. وسُر عمر ﷺ من الصحابي؛ لأنه عرف كيف يفتى حتى في أمر المرأة الواحدة.

إذًا قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾ أي لا تظنوا أن المطلوب منكم تكليفيًا هو العدالة حتى في ميل القلب وحبّه، لا إنما العدالة في الأمر الاختياري، وما دام الأمر قد خرج عن طاقة النفس وقدرتها فقد قال سبحانه: ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾.

ويأخذ السطحيون الذين يريدون أن يبرروا الخروج عن منهج الله فيقولوا: إن المطلوب هو العدل وقد حكم الله أننا لا نستطيع العدل.

ولهؤلاء نقول: هل يعطي ربنا باليمين ويأخذ بالشمال؟ فكأنه يقول: اعدلوا وأنا أعلم أنكم لن تعدلوا؟! فكيف يتأتّى لكم مثل هذا الفهم؟!

إن الحق حين قال: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ أي لا يتعدى العدل ما لا تملكون من الهوى والميل؛ لأن ذلك ليس في إمكانكم، ولذلك قال: ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾.

نقول ذلك للذين يريدون أن يطلقوا الحكم غير واعين ولا فاهمين عن الله،

ونقوله كذلك للفاهمين الذين يريدون أن يدلسوا على منهج الله، وهذه المسألة من المسائل التي تتعرض للأسرة، وربها الرجل. فهب أن رجلاً ليس له ميل إلى زوجته، فماذا يكون الموقف؟ أمن الأحسن أن يطلقها ويسرحها، أم تظل عنده ويأتي بامرأة تستطيع نفسه أن ترتاح معها؟ أو يطلق غرائزه في أعراض الناس؟؛ إن الحق حينما شرع، إنما شرع دينا متكاملاً، لا تأخذ حكمًا منه لتترك حُكمًا آخر.

والأحداث التي أرهقت المجتمعات غير المسلمة ألجأتهم إلى كثير من قضايا الإسلام. وأنا لا أحب أن أطيل، هناك بعض الدول تكلمت عن إباحة التعدد لا لأن الإسلام قال به، ولكن لأن ظروفهم الاجتماعية حكمت عليهم أنه لا يحل مشاكلهم إلا هذا، حتى ينهوا مسألة الخليلات. والخليلات هن اللائي يذهب إليهن الرجال ليهتكوا أعراضهن و ويأتوا منهن بلقطاء ليس لهم أب.

إن من الخير أن تكون المرأة الثانية، امرأة واضحة في المجتمع، ومسألة زواج الرجل منها معروفة للجميع، ويتحمل هو عبء الأسرة كلها، ويمكن لم يريد أن يستوضح كثيرًا من أمر هؤلاء الناس أن يرجع إلى كتاب تفسير في هذا الموضوع للدكتور محمد خفاجة حيث أورد قائمة بالدول وقراراتها في إباحة التعدد عند هذه الآية.

وهنا يجب أن ننتبه إلى حقيقة وهي: أن التعدد لم يأمر به الله، وإنما أباحه، فالذي ترهقه هذه الحكاية لا يعدد، فالله لم يأمر بالتعدد ولكنه أباح للمؤمن أن يعدد. والمباح أمر يكون المؤمن حُرًّا فيه يستخدم رخصة الإباحة أو لا يستعملها، ثم لنبحث بحثا آخر. إذا كان هناك تعدد في طرف من طرفين فإن كان الطرفان متساويين في العدد، فإن التعدد في واحد لا يتأتى، والمثل هو كالآتي:

إذ دخل عشرة أشخاص حجرة وكان بالحجرة عشرة كراسي فكل واحد يجلس على كرسي، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يأخذ واحد كرسيًا للجلوس وكرسيًا آخر ليمد عليه ساقيه، لكن إذا كان هناك أحد عشر كرسيًا، فواحد من الناس يأخذ كرسيًا للجلوس وكرسيًا آخر ليستند عليه، إذًا فتعدد طرف في طرف

لا ينشأ إلا من فائض. فإذا لم يكن هناك فائض، فالتعدد - واقعًا - يمتنع، لأن كل رجل سيتزوج امرأة واحدة وتنتهي المسألة، ولو أراد أن يعدد الزواج فلن يجد.

إذًا فإباحة التعدد تعطينا أن الله قد أباحه وهو يعلم أنه ممكن لأن هناك فائضًا. والفائض كما قلنا معلوم، لأن عدد ذكور كل نوع من الأنواع أقل من عدد الإناث. وضربنا المثل من قبل في النخل وكذلك البيض عندما يتم تفريخه؛ فإننا نجد عددًا قليلاً من الديوك والبقية إناثًا. إذًا فالإناث في النبات وفي الحيوان وفي كل شيء أكثر من الذكور.

وإذا كانت الإناث أكثر من الذكور، ثم أخذ كل ذكر مقابله فما مصير الأعداد التي تفيض وتزيد من الإناث؟ إما أن تعف الزائدة فتكبت غرائزها وتحبط، وتنفس في كثير من تصرفاتها بالنسبة للرجل وللمحيط بالرجل، وإما أن تنطلق، تنطلق مع من؟ إنها تنطلق مع متزوج. وإن حدث ذلك فالعلاقات الاجتماعية تفسد.

ولكن الله حين أباح التعدد أراد أن يجعل منه مندوحة لامتصاص الفائض من النساء؛ ولكن بشرط العدالة. وحين يقول الحق: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً ﴾، أي إن لم نستطع العدل الاختياري فليلزم الإنسان واحدة. وبعد ذلك يقول الحق: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾.

وهناك من يقف عند ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ويتجادل، ونطمئن هؤلاء الذين يقفون عند هذا القول ونقول: لم يعد هناك مصدر الآن لملك اليمين؛ لأن المسلمين الآن في خنوع، وقد اجترأ عليهم الكفار، وصاروا يقتطعون دولاً من دولهم. وما هبّ المسلمون ليقفوا لحماية أرض إسلامية. ولم تعد هناك حرب بين مسلمين وكفار، بحيث يكون فيه أسرى، و (ملك اليمين).

ولكننا نداقع عنه أيام كان هناك ملك يمين. ولنر المعنى الناضج حين يبيح الله متعة السيد بما ملكت يمينه، انظر إلى المعنى، فالإسلام قد جاء ومن بين أهدافه أن يصفي الرق، ولم يأت ليجيء بالرق.

وبعد أن كان لتصفية الرق سبب واحد هو إرادة السيد، عدد الإسلام مصارف تصفية الرق؛ فارتكاب ذنب ما يقال للمذنب: اعتق رقبة كفارة اليمين، وكفارة ظهار فيؤمر رجل ظاهر من زوجته بأن يعتق رقبة وكفارة فطر في صيام، وكفارة قتل.... إلـخ، إذًا فالإسلام يوسع مصارف العتق.

ومن يوسع مصارف العتق أيريد أن يبقى على الرق، أم يريد أن يصفيه ويمحوه؟؛ ولنفترض أن مؤمنًا لم يذنب، ولم يفعل ما يستحق أن يعتق من أجله رقبة، وعنده جوار، هنا يضع الإسلام القواعد لمعاملة الجواري:

إن لم يكن عندك ما يستحق التكفير، فعليك أن تطعم الجارية مما تأكل وتلبسها ما يلبس أهل بيتك، لا تكلفها ما لا تطيق، فإن كلفتها فأعنها، أي فضل هذا، يدها بيد سيدها وسيدتها، فما الذي ينقصها؟ إن الذي ينقصها إرواء إلحاح الغريزة، وخاصة أنها تكون في بيت للرجل فيه امرأة، وتراها حين تتزين لزوجها، وتراها حين تخرج في الصباح لتستحم، والنساء عندهن حساسية لهذا الأمر، فتصوروا أن واحدة مما ملكت يمين السيد بهذه المواقف؟ ألا تهاج فيها الغرائز؟

حين يبيح الله للسيد أن يستمتع بها وأن تستمتع به، فإنه يرحمها من هذه الناحية ويعلمها أنها لا تقل عن سيدتها امرأة الرجل فتتمتع مثلها. ويريد الحق أيضا أن يعمق تصفية الرِّق، لأنه إن زوجها من رجل رقيق فإنها تظل جارية أمة، والذي تلده يكون رقيقا، لكن عندما تتمتع مع سيدها وتأتي منه بولد، فإنها تكون قد حررت نفسها وحررت ولدها، وفي ذلك زيادة في تصفية الرق، وفي ذلك إكرام لغريزتها. لكن الحمقى يريدون أن يؤاخذوا الإسلام على هذا !!

يقول الحق: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾.

فالعدل أو الاكتفاء بواحدة أو ما ملكت اليمين، ذلك أقرب ألا تجوروا؛ وبعض الناس يقول: ﴿أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي ألا تكثر ذريتهم وعيالهم. ونقول لهم: إن كان كذلك فالحق أباح ما ملكت اليمين، وبذلك يكون السبب في وجود

العيال قد اتسع أكثر، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ أي أقرب ألا تظلموا وتجوروا، لأن العْول فيه معنى الميل، والعول في الميراث أن تزيد أسهم الأنصباء على الأصل، وهذا معنى عالت المسألة، وإذا ما زاد العدد فإن النصيب في التوزيع ينقص. ا.هـ.

وفي موطن آخر **قال الإمام** - رحمه الله تعالى - : وسبحانه وتعالى يريد أن يحل مشكلة نفسية قد تتعرض لها الأسر التي لا توجد فيها خميرة عقدية إيمانية، لا عند الرجل ولا عند المرأة، ولو كانت هذه الأسر تمتلك الخميرة الإيمانية المسبقة وأخذت أحكام الله بحقها لما وجدت هذه المشكلة، إنها مشكلة التعدد.

ظاهر الأمر أن الرجل حين يعدد زوجاته يكون محظوظًا، لأنه غير مقيد بواحدة بل له إلى أربع، والمغبون هي المرأة، لأنها مقيدة بزوج واحد، فليست كل امرأة مهضومة، لأن الزوجة الجديدة تشعر بالسعادة..

وقد نجد امرأة قال له زوجها: سأتزوج بثانية، ورضيت هي بذلك، بعد أن وازنت بين أمورها فاختارت خير الأمور.

روي أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها، وكان لها منه ولد فقالت لا تطلقني ودعني أقوم على ولدي وتقسم لي..

فقال: إن كان هذا يصلح فهو أحب إليّ فأقرها..

إذًا فالغمة في زواج الرجل من زوجة أخرى لا تعم كل النساء، فإن أحدث الزواج الغم والحزن عند الزوجة الأولى فهو يحدث سرورًا عند الزوجة الثانية.

والمرأة معذورة في ذلك لأن الرجل أخذ حكم الله في أن يعدد ولم يأخذ مع هذا الحكم أن يعدل.

والرجل يظلم المرأة حين يأخذ الحكم الذي في صالحه وهو إباحة التعدد ولا يأخذ من مبيح التعدد وهو المشرع الأعلى- وهو الله- الأمر بأن يعدل بين زوجاته.

لقد جنحت المجتمعات لأنهم رأوا الرجل حين يتزوج بأخرى لا يلتفت إلا للزوجة الجديدة، ويهمل القديمة وأولاده منها، لذلك فالنساء معذورات في أن يغضبن من هذه المسألة ..

ولو أن الرجل أخذ حكم الله بالعدل كما أخذ إباحة الله في التعدد لحدث التوازن. وحين تعرف المرأة الأولى أن حقها لن يضيع لا في نفسها ولا في بيتها ولا في رعاية أولادها..

فهي تقول: «من الأفضل أن يكون متزوجًا أمام عيني بدلاً من أن يدس نفسه في أعراض الناس» .

إذًا.. فالذي يثير المسألة كإشكال أن الرجل يأخذ بعض الكتاب فيعمل به ويترك بعضه فلا يطبقه ولا يعمل به..

والذين يأخذون إباحة الله في التعدد لابد أن يأخذوه بأصوله التي وضعها الله في إطار العدالة..

وحين يكون للرجل امرأتان مثل سيدنا معاذ بن جبل، فكل امرأة لها حق في البيتوتة، ليلة لزوجة وليلة لأخرى مثلاً، وكان ﷺ لا يتوضأ عند واحدة في ليلة الأخرى مع أن الوضوء قربة لله.

والأعجب من ذلك عندما ماتت الزوجتان في الطاعون، أمر بدفن الاثنتين في قبر واحد[1].

والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الخلق وأمر بالعدالة في المستطاع، وعلى الرجل أن يعدل زَمَنًا، ويعدل نفقة، ويعدل ابتسامة، ويعدل مؤانسة ومواساة، والرجل في كل ذلك يستطيع، لكنه لا يستطيع أن يعدل في ميل القلب، وهو أمر مكتوم؛ لذلك قال الحق: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ

(١) وقيل: أنه لمّا أراد الصّلاة عليهما، أَقْرَع بينهما، مَن يجعلها أمامه!!

فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾ [النساء: ١٢٩] أي أن العدل الحبي مستحيل.

وقال النبي ﷺ: «**اللهم هذا قَسمِي فيما أَمْلِك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**». يعني القلب[1].

إذًا ففيه فرق بين ميل القلب وهو مواجيد نفسية والنزوع النفسي.والعملية الوجدانية لا يقدر عليها أحد، ولا يوجد تقنين يقول للرجل: أحب فلانة.. إلا إذا أراد الحب العقلي، أما الحب العاطفي فلا.. والذي يأمر به الشرع هو أن يحب الإنسان بالعقل، أما حب العاطفة فلا تقنين له أبدًا.

وقد يحب الإنسان الدواء المُرّ بعقله لا بعاطفته ويسرّ الإنسان من صديق جاء بهذا الدواء من الخارج؛ لأن الدواء سيشفيه بإذن الله.

إذًا ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾ ما هو كُلَّ الميل؟

ويوضحه - سبحانه - بقوله: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ﴾ وهي المرأة التي لا هي أَيِّم أي لا زوج لها فتطلب الزواج، ولا هي متزوجة فتستمتع بوجود زوج، ويحجزها الرجل دون أن يمارس مسئوليته عنها، فيوضح الحق: أنا لا أطلب منك أن تميل بقلبك هنا، أو هناك؛ لأن هذه المسألة ليست ملكًا لك، ولكني أريد العدالة في الموضوعات الأخرى؛ كأن تسوّي في البيتوتة والنفقة، ومطلوبات أولادك، وأن تعدل بين أزواجك في المؤانسة، أما المعنى الآخر وهو ميل القلب فأنا لا أكلف به.

وسبحانه حين يشرّع لخلقه أعلم بمن خلق، وقد جعل لكل مخلوق منا عواطف ينشأ عنها ميل، وجعل له غرائز، وخيارات في الانفعالات ولو أراد سبحانه أن يحجر على الميل لما خلقه، ولكنه - جلا وعلا - يطلق الميول لتتم بالميول مصالح الكون مجتمعة، فحين يمنح القلب أن يحب، يعلم سبحانه أن

---

(١) سبق تخريجه.

عمارة الكون تنشأ بالحب. فلو لم يحب العالم أن يكشف أسرار الله في خلقه لما حمَّل نفسه متاعب البحث والاطلاع والتجربة، وكل ما يترتب على ذلك من مشقات.

ولو لم يحب الإنسان إتقان عمله لما رأيت عملاً مجوَّدًا. ولو لم يحب الإنسان أولاده لما تحمل المشقة في تبعات تربيتهم. إذًا فالحب له مهمة. والله لا يريد منا أن نمنع الحب. لكنه يريد منا أن نعلي مطالب الحب، فنجعل للحب مجالاته المشروعة لا أن ينطلق الحب في الكون ليعربد في أعراض الناس.

إنك حين تجعل الحب موجهًا إلى خير لا يأتيك منه أو للناس شرّ. وعندما ننظر - مثلاً - إلى دافع وغريزة حب الاستطلاع نجد أن الله قد خلقها في الإنسان ليصعد ابتكاراته المسعدة في الحياة. ولو لم توجد غرائز حب الاستطلاع لما تعب المكتشف في أن يبتكر شيئًا أو يخترعه ويكتشفه حتى يريحنا نحن البشر، ولما فكر الإنسان في أن يستعمل البخار ليحمل عن الناس مشقات السفر ومشقات حمل الثقيل إن هذا الاكتشاف أراحنا باختراع الباخرة أو القطار.

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلي غريزة حب الاستطلاع فينبغي أن نجعلها في مجالها المشروع فلا نجعلها تجسسًا على عورات الناس مثلاً، وكذلك جعل الله غريزة حب المال في الإنسان؛ لأن حب المال يدفع الإنسان إلى أن يعمل، ويستفيد الناس من عمله أراد أو لم يرد. كذلك غريزة الجنس جعلها الله في الإنسان ولها سعار ليحفظ بها النوع الإنساني. إنّه سبحانه لا يريد منها أن تنطلق انطلاقًا يلغ في أعراض الناس، إذًا فالغرائز خلقها الله لمهمة. والشرائع جاءت لتحفظ الغرائز في مجال مهمتها وتمنع عنها انطلاقاتها المسعورة في غير المجالات التي حددها لها المنهج.

إذًا فالميل أمر فطري في النفس البشرية وقد أوضح الحق سبحانه: أنا خلقت الميل ليخدم عمارة الكون، ولكن أريد منكم أن تصعدوا الهوى وتعلوه في هذا الميل، وحين تعددون الزوجات، لا أطلب منكم البعد عن كل الميل؛ لأن ذلك أمر لا يحكمه منطق عقلي، ولكن أحب أن تحددوا الميل وتجعلوه في مجاله القلبي

فقط، ولا يصح أن يتعدى الميل عند أحدكم إلى ميله القالبي.

أحب أيها العبد المؤمن من شئت وأبغض من شئت، لكن لا تجعل هذا الحب يقود قالبك لتعطي من تحب خير غيره ظلمًا، وأبغض أيها العبد من شئت، فلا يستطيع مقنن أن يقنن للقلب أن يبغض أو يحب، لكن بغضك لا تعديه عن قلبك إلى جوارحك لتظلم من تبغض.

ولنا الأسوة في سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ حينما مرّ عليه قاتل أخيه، ولفت نظره جليس له: هذا قاتل أخيك، هنا قال عمر ﷺ: وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام؟! كأن إسلام هذا القاتل قد أنهى المسألة عند عمر ﷺ وعندما جاء هذا القاتل لمجلس عمر، قال له سيدنا عمر: إذا أقبلت عليّ إلوِ وجهك عني، لأن قلبي لا يرتاح لك، فسأل الرجل: أوعدم حبك لي يمنعني حقًا من حقوقي؟ قال عمر: لا.

قال الرجل: إنما يبكي على الحب النساء. هذا عمر وهو الخليفة، والرجل من الرعية. لكن عمر الخليفة يخاف من الظلم، ويملك هذا الشخص وهو تحت إمرة وحكم الخليفة عمر ﷺ قدرة الرفض لمشاعر الحب أو الكراهية مادامت لا تمنع حقوقه كمواطن.

إن الحق سبحانه وتعالى حينما يخلق ميول القلوب يضع أيضًا القاعدة: إياك أيها المؤمن أن تعدى ميل القلب إلى القالب، وليكن ميل القلب كما تحب، كذلك إن أنت أيها المؤمن تزوجت وبعد ذلك تزوجت امرأة أخرى فالمنهج لا يطلب منك أن تعدل العدل المطلق الذي ينصب على شيء لا تملكه وهو ميل قلبك. ولكن المنهج يضع لك القواعد التي يسير عليها سلوك قالبك. وعليك أن تعدل في قسمة الزمن والنفقة والكسوة وبشاشة الوجه وحسن الحديث. ولا تخضع ذلك لميل القلب، وبعد ذلك أنت وقلبك أحرار.

ونرى بعضًا من الذين يحبون أن يظهروا بين الناس كفاهمين للقرآن أو دعاة تجديد، يركبون الموجة ضد التعدد. ونقول: قبل أن يركب الواحد منكم الموجة

ضد التعدد، ويقف منه موقف الرافض له مدعيًا أنه يفهم النص القرآني، **إننا نقول له**: عليك أن تبحث عن أسباب السخط على التعدد، هي ليست من التعدد في ذاته، ولكنها تأتي من أن المسلم يأخذ إباحة الله للتعدد، ولا يأخذ حكم الله في العدالة، فلو أن المسلم أخذ بالعدالة مع التعدد لما وجدنا مثل هذه الأزمة. ولذلك يقول الواحد من هؤلاء: إن الحق سبحانه وتعالى أمر بلزوم واحدة والاقتصار عليها عند خوف ترك العدل في التعدد فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

ثم جاء في آية أخرى وقال: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

ونقول: إن الواحد منكم إن أراد أن يفهم القرآن، فعليه أن يعلم أن الحق سبحانه لم يقف في هذه الآية عند قوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ إنما فرع على عدم الاستطاعة في العدل فقال: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ إنه - سبحانه - فرع على عدم الاستطاعة في العدل فأمر بعدم الميل كل الميل. وتلك حكمة المشرع الأول الذي يعلم مَن خلق وكيف خلق.

ولو أن الحق لم يفرِّع على ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟﴾ لجاز لهؤلاء الذين يركبون الموجة المطالبة بعدم التعدد أن يقولوا ما يقولون؛ لذلك نقول لهم:

انتبهوا إلى أن الحق سبحانه أوضح: عدم استطاعتكم للعدل هو أمر أنا أعلمه، ولذلك أطلب منكم ألا تميلوا كل الميل وذلك باستطاعتكم، ومعنى هذا أنه سبحانه قد أبقى الحكم ولم يسلبه.

﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ وفي هذا القول أمر بألا يترك الرجل زوجته الأولى كالمعلقة وهي المرأة التي لم يتحدد مصيرها ومسارها في الحياة، فلا هي بغير زوج فتتزوج، ولا هي متزوجة فتأخذ قسمها وحظها من زوجها، بل عليه أن يعطيها حظها في البيتوتة والنفقة والملبس وحسن الاستقبال والبشاشة والمؤانسة والمواساة.

ويقول الحق من بعد ذلك: ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وقوله: ﴿تُصْلِحُواْ﴾ دليل على أنه كان هناك إفساد موجود والمطلوب أن نقوم بالبحث عن الأسباب التي جعلت الرجل يفسد في علاقته الزوجية ليقضي عليها. وبعد ذلك على المسلم أن يستأنف تقوى جديدة في المعاملة على ضوء ما شرع الله. وحين يصلح المسلم ما أفسد من جعل الزوجة الأولى كالمعلقة ويعطيها حقها في البيتوتة والنفقة ورعاية أولادها والإقبال عليها وعلى الأولاد بصورة طيبة فالله سبحانه يغفر ويرحم، ولا يصلح المسلم ما أفسد إلا وهو ينوي ألا يستأنف عملاً إلا إذا كان على منهج التقى، ويجد الحق غفورًا لما سبق ورحيمًا به.

وإن لم يستطع الرجل هذا، ولا قبلت المرأة أن تتنازل عن شيء من قسمها ترضية له تكن التفرقة - هنا - أمرًا واجبًا، فليس من المعقول أن نحكم الحياة الزوجية والحياة الأسرية بسلاسل من حديد، ولا يمكن أن نربط الزوجين بعدم الافتراق إن كانت القلوب متنافرة وكذلك لا نأمن على المرأة أن تعيش هكذا.

إن الذي يقول: لا يصح أن نفرق بين الزوجين، نقول له: كيف تريد أن تحكم الحياة الزوجية بالسلاسل؟ والزواج صلة مبناها السكن والمودة والرحمة، فإن انعدمت هذه العناصر فكيف يستمر الزواج وكيف ترغم زوجًا على أن يعايش زوجة لا يحبها ولا يقبلها وترغم زوجة أن تعيش مع زوج لا تحبه؟ إن التفريق بينهما في مثل هذه الحالة قد يكون وسيلة أرادها الله سبحانه وتعالى ليرزق الزوج خيرًا منها ويرزق الزوجة خيرًا منه.

وكثيرًا ما شهدنا هذا في واقع الحياة، وعاش الزوج مع الزوجة الجديدة سعيدًا، وعاشت الزوجة مع الزوج الجديد سعيدة، أما الذين تشدقوا بمسألة عدم التفريق مع استحالة الحياة الزوجية وهاجموا الإسلام في هذا المجال. فهم يرددون ما كان عند أهل الغرب: من أن الزواج لا انفصال فيه.

إننا نرى العالم كله الآن بكل النصارى واليهود وغيرهم من الملل والنِّحَل

يلجأون إلى الطلاق؛ لأن الأحداث اضطرتهم إلى أن يشرعوا الطلاق، فكأنهم ذهبوا إلى الإسلام لا على أنه إسلام، ولكن على أنه الحل الوحيد لمشكلاتهم.

فإذا ثبت أن الذين يهاجمون جزئية من جزئيات الدين يضطرون إليها تحت ضغط الأحداث فيجب أن ننبههم إلى عدم التسرع والعجلة والحكم على قضايا الدين الإسلامي بأنها غير صالحة؛ لأن الحق أرغم من لم يكن مسلمًا على أن ينفذ قضية إسلامية»ا.هـ.



الْجَهْرُ بالسُّوء.. بَيْنَ الْحَظْرِ والإِبَاحَة

قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النساء: ١٤٨].

إنه سبحانه وتعالى يريد أن يحمي آذان المجتمع الإيماني من «قالات السوء».. أي من الألفاظ الرديئة؛ لأننا نعلم أن الناس إنما تتكلم بما تسمع، فاللفظ الذي لا تسمعه الأذن لا تجد لسانا يتكلم به، ونجد الطفل الذي نشأ في بيت مهذب لا ينطق ألفاظًا قبيحة، وبعد ذلك تجيء على لسانه ألفاظ قبيحة وحينئذ نتساءل: من أين جاءت هذه الألفاظ على لسان هذا الابن؟ ونعرف أنها جاءت من الشارع؛ لأن البيئة الدائمة للطفل ليس بها ألفاظ رديئة، وعندما يتقصى الإنسان عن مصدر هذه الألفاظ، يعرف أن الطفل المهذب قضى بعضًا من الوقت في بيئة أخرى تسربت إليه منها بعض الألفاظ الرديئة.

إذًا فاللُّغة هي بنت المحاكاة، وما تسمعه الأذن يحكيه الإنسان. ونعلم أن اللغة ليست جنسا وليست دما، بمعنى أن الطفل الإنجليزي لو نشأ في بيئة عربية، فهو يتحدث العربية، ولو أخذنا طفلاً عربيًا ووضعناه في بيئة إنجليزية فسيتكلم الإنجليزية.

واللغة الواحدة فيها ألفاظ لا يتكلم بها لسان إلا إن سمعها، وإن لم يسمعها الإنسان فلن ينطق بها، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي المجتمع الإيماني من قالات السوء التي تطرق آذان الناس لأنها ستعطيهم لغة رديئة؛ لأن الناس إن تكلمت بقالات السوء، فسيكون شكل المجتمع غريبًا، وتتردد فيه مقالات سوء في آذان السوء، فكأن الحق سبحانه يوضح: إياكم أن تنطق ألسنتكم بأشياء لا يحبها الله، فليست المسألة أن يريح الإنسان نفسه فقط بنطق كلمة، ولكن نطق هذه الكلمة سيرهق أجيالاً؛ لأن من يسمع الكلمة الرديئة سيرددها، وسيسمعها غيره فيرددها، وتتوالى القدوة السيئة. ويتحمل الوزر الإنسان الذي نطق بكلمة السوء أولاً.

وقالات السوء هذه قد تكون بالحق وقد تكون بالباطل، فإن كانت في الحق مثلاً فلن نستطيع أن نقول: إن كل الناس أهل سوء. وقد يبتدئ إنسان آخر بسباب، ويجوز أن يدعي إنسان على آخر سبابا. إذًا فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي الآذان الإيمانية من ألسنة السوء، لذلك يقول: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ ومقابلها بالطبع هو: أن الله يحب الجهر بالحسن من القول. وساعة يحبك الحق المجتمع هذه الحبكة الإيمانية، أيعالج ملكة على حساب ملكة أخرى؟ لا.

ونعلم أن النفس فيها حب الانتقام وحب الدفاع عن النفس وحب الثأر وما يروح به عن نفسه ويخفف ما يجده من الغيظ. والمثل العربي يقول: «من استُغْضِب ولم يغضب فهو حمار»؛ لأن الذي يُستغضب ولا يغضب يكون ناقص التكوين، فهل معنى ذلك أن الله يمنع الناس من قول كلمة سوء ينفث بها الإنسان عن صدره ويريح بها نفسه؟ لا، لكنه سبحانه يضع شرطًا لكلمة السوء هو: ﴿ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾؛ لأن الظلم هو أخذ حق من إنسان لغيره. وكل إنسان حريص على نفسه وعلى حقوقه. فإن وقع ظلم على إنسان فملكات نفسه تغضب وتفور، فإما أن ينفث بما يقول عن نفسه، وإما أن يكبت ويكتم ذلك.

فإن قال الله: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ واكتفى بذلك، لكان كبتًا للنفس البشرية، وعملية الكبت هذه وإن كانت طاعة لأمر الله لأنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، ولكن قد ينفلت الكبت عند الانفعال، وينفجر؛ لذلك يضع الحق الشرط وهو وقوع الظلم، فيوضح سبحانه: أنا لا أحب الجهر بالسوء من القول، وأسمح به في حدوده المنفثة عن غيظ القلوب؛ لأني لا أحب أن أصلح ملكة على حساب ملكة أخرى. ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: **«إن الغضبَ جَمْرَةُ تُوقد في الْقَلْب، أَلَمَ تَرَوْا إلى انتفاخ أَوْدَاجه وَحُمْرة عينيه، فإذا وجد أحُدكم من ذلك شيئًا فإن كان قائمًا فليجلس، وإن كان جالسًا فَلْيَنَم فإن لم يزُل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء»**[1].

(١) رواه البيهقي في «الشّعب»، وغيره، وإسناده ضعيف.

أي أن يتحرك الإنسان من فور إحساسه بالغضب؛ فيغير من وضعه أو يقوم إلى الصلاة بعد أن يتوضأ أو يغتسل؛ لأنه بذلك ينفث تنفيثًا حركيًا ليخفف من ضغط المواجيد على النفس الفاعلة؛ تمامًا كما يفك إنسان صمامًا عن آلة بها بخار ليخرج بعض البخار.

إذًا فمن وقع عليه ظلم له أن يجهر بالسوء. والجهر له فائدتان:

الأولى: أن ينفث الإنسان عن نفسه فلا يكبت.

وثانيًا: أنه أشاع وأعلن أن هذا إنسان ظالم، وبذلك يحتاط الناس في تعاملهم معه.

وحتى لا يخدع إنسان نفسه ويظن أنه بمنجاة عن سيئاته، فلو ستر كل إنسان الظلم الذي وقع عليه لاستشرى الظلم في عمل السيئات. ولكن إياك أن تتوسع أيها العبد في فهم معنى كلمة «ظلم» هذه؛ لأن الذي ينالك ممن ظلمك إما فعل وإما قول. وعليك أيها المسلم أن تقيس الأمر بمقياس دقيق على قدر ما وقع عليك من ظلم.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

إذًا فالحق سبحانه وتعالى لا يعطينا في الاستثناء إلا على قدر الضرورة. ويوضح: إياكم أن تزيدوا على هذه الضرورة، فإن كان ظلمكم بقول فأنا السميع. وإن كان ظلمكم بفعل فأنا العليم، فلا يتزيد واحد عن حدود اللياقة.

وبذلك يضع الحق الضوابط الإيمانية والنفسية فأزاح الكبت وفي الوقت نفسه لم يقفل باب الطموح الإيماني. لقد سمح للعبد أن يجهر إن وقع عليه ظلم، لكن إن امتلك الإنسانُ الطموح الإيماني فيمكنه ألا يجهر وأن يعفو. إذًا فهناك فارق بين أمر يضعه الحق في يد الإنسان، وأمر يلزمه به قسرًا وإكراهًا عليه؛ فمن ناحية الجهر، جعل سبحانه المسألة في يد الإنسان، ويحب سبحانه أن يعفو الإنسان؛ لأن المبادئ القرآنية يتساند بعضها مع بعض. وسبحانه يقول: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

فإن أباح الله لك أن تجهر بالسوء من القول إذا ظلمك أحدٌ، فقد جعل لك ألا

تجهر بل تعفو عنه، وغالب الظن أن صاحب السوء يستخزي ويعرف أن هناك أناسًا أكرم منه في الخلق، ولا يتعب إنسانٌ إلا أن يرى إنسانًا خيرًا منه في شيء، وعندما يرى الظَالِمُ أن المظلوم قد عفا فقد تنفجر في نفسه الرغبة أن يكون أفضل منه.

إذًا فالمبدأ الإيماني: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ جعله الله مجالاً محبوبًا ولم يجعله قسرًا؛ لأنك إن أعطيت الإنسان حقه، ثم جعلت لأريحيته أن يتنازل عن الحق فهذا إرضاء للكل. وهكذا ينمي الحق الأريحية الإيمانية في النفس البشرية؛ لأنه لو جعلها قسرًا لأصلح ملكة على حساب ملكة أخرى. ولذلك إذا رأيت إنسانًا قد اعتدى على إنسان آخر، فدفع الإنسان المعتدي عليه بالتي هي أحسن وعفا وأصلح فقد ينصلح حال المعتدي، وسبحانه القائل: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

فإن تمادى من بعد ذلك فعلى الإنسان أن يعرف أن الله لا يكذب أبدًا، ولابد أن الخلل في سلوكك يا من تظن أنك دفعت بالتي هي أحسن.

قد يكون الذي دفع بالتي هي أحسن قد قال بلهجة من التعالي: سأعفو عنك، ومثل هذا السلوك المتكبر لا يجعل أحدًا وليًّا حميمًا. لكن إن دفع حقيقة بالتي هي أحسن تواضعًا وسماحة، فلابد أن يصير الأمر إلى ما قاله الله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾. والتفاعلات النفسية المتقابلة يضعها الله في إطارات واضحة وسبحانه القائل: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وذلك حتى لا يستشري المعتدي أيضًا، فهناك إنسان إذا تركناه مرة ومرة يستشري، لكن إذا ما أوقفناه عند حده فهو يسكت، وبذلك نرحم المجتمع من استشراء الفساد، ويُصعب الحق المسألة في رد الاعتداء.

ويثور سؤال: من القادر على تحقيق المثلية بعدالة؟ ونجد على سبيل المثال إنسانًا ضرب إنسانًا آخر صفعة على الوجه، فبأية قوة دفع قد ضرب؟ وفي أي

مكان ضرب؟ ولذلك نجد أن رد العدوان على درجة المثلية المتساوية أمر صعب، ومادام المأمور به أن أعتدى بمثل ما اعتدى به عليّ؛ ولن أستطيع تحقيق المثلية، ولربما زادا لأمر على المثلية؛ وبعد أن كنت المعتدَى عليه صرت المعتدِي، بذلك يكون العفو أقرب وأسلم.

والعمليات الشعورية التي تنتاب الإنسان في التفاعلات المتقابلة يكون لها مواجيد في النفس تدفع إلى النزوع. والعملية النزوعية هي رد الفعل لما تدركه، فإن آذاك إنسان وأتعبك واعتدى عليك فأنت تبذل جهدًا لتكظم الغيظ، أي أن تحبس الغيظ على شدة. فالغيظ يكون موجودًا، ولكن المطلوب أن يمنع الإنسان الحركة النزوعية فقط. وعلى المغتاظ أن يمنع نفسه من النزوع، وإن بقى الغيظ في القلب.

﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. هذه مرحلة أولى تتبعها مرحلة ثانية هي: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فإذا كان المطلوب في المرحة الأولى منع العمل النزوعي، فالأرقى من ذلك أن تعفو، والعفو هي أن تخرج المسألة التي تغيظك من قلبك. وإن كنت تطلب مرحلة أرقى في كظم الغيظ والعفو فأحسن إليه؛ لأن من يرتكب الأعمال المخالفة هو المريض إيمانيًا. وعندما ترى مريضًا في بدنه فأنت تعاونه وتساعده وإن كان عدوًا لك. وتتناسى عداوته؛ فما بالنا بالمصاب في قيمه؟ إنه يحتاج منا إلى كظم الغيظ، أو العفو كدرجة أرقى، أو الإحسان إليه كمرحلة أكثر علوًا في الارتقاء.

إذًا فالحق سبحانه وتعالى يبيح أن تعتدي بالمثل، ثم يفسح المجال لنكظم الغيظ فلا نعتدي ولكن يظل السبب في القلب، ثم يرتقي بنا مرحلة أخرى إلى العفو وأن نخرج المسألة من قلوبنا، ثم يترقى ارتقاء آخر، فيقول سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، ومن فينا غير راغب في حب الله؟ وهكذا نرى أن الدين الإسلامي يأمر بأن يحسن المؤمن إلى من أساء إليه.

وقد يتساءل إنسان: كيف تطلب مني أن أحسن إلى من أساء إليَّ ؟!

والرد: أنت وهو لستما بمعزل عن القيوم؛ فهو قيوم ولا تأخذه سِنة ولا نوم، وكل شيء مرئي له وكلاكما صنعة الله، وعندما يرى الله واحدًا من صنعته يعتدي عليك أو يسيء إليك فسبحانه يكون معك ويجيرك، ويقف إلى جانبك لأنك المعتدَى عليه، إذًا فالإساءة من الآخر تجعل الحق سبحانه في جانبك: وتكون تلك الإساءة في جوهرها هدية لك.

وعندما نفلسف كل المسائل نجد أن الذي عفا قد أخذ أكثر مما لو كان قد انتقم وثأر لنفسه؛ لأنه إن انتقم سيفعل ذلك بقدرته المحدودة، وحين يعفو فهو يجعل المسألة لله وقدرته سبحانه غير محدودة، إن أراد أن يرد عليه، وبعطاء غير محدود إن أراد أن يرضي المعتدي عليه. هذا هو الحق سبحانه وتعالى عندما يلجأ إليه المظلوم العافي المحسن. وهو السميع العليم بكل شيء. ويقول الحق من بعد ذلك: ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩].

لقد عرفنا أن الحق لا يسمح لك بالجهر بالسوء من القول إلا إذا كنت مظلومًا، وهذا يعني أن المسألة تحتمل الجهر وتحتمل الإخفاء، فقال: ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا ﴾ أي إن تظهر الخير، أو تخفي ذلك، أو تعفو عن السوء، وكل هذه الأمور من ظاهر وخفي من الأغيار البشرية، لكن شيئًا لا يخفى على الله، ولا يمكن أن يكون للعفو مزية إيمانية إلا إذا كان مصحوبًا بقدرة، فإن كان عاجزًا لما قال: عفوت. وسبحانه يعفو مع القدرة، فإن أردت أن تعفو فلتتخلق بأخلاق منهج الله، فيكون لك العفو مع القدرة، ولنا أن نعلم أن الحق لا يريد منا أن نستخزي أو نستذل ولكن يريد منا أن نكون قادرين، ومادمنا قادرين فالعفو يكون عن قدرة وهذه هي المزية الإيمانية، لأن عفو العاجز لا يعتبر عفوًا.

والناس تنظر إلى العاجز الذي يقول: إنه عفا - وهو على غير قدرة - تراه أنه استخزى. أما من أراد أن يتخلق بأخلاق منهج الله فليأخذ من عطاءات الله في الكون، ليكون قادرًا وعزيزًا بحيث إن ناله سوء، فهو يعفو عن قدرة ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ

كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾.

وقلنا من قبل: إنك إذا لمحت كلمة ﴿ كَانَ ﴾ على نسبة لله سبحانه وتعالى كنسبة الغفران له أو الرحمة، فعلينا أن نقول: كان ولا يزال، لأن الفعل مع الله ينحل عن الزمان الماضي وعن الحاضر وعن المستقبل؛ فهو سبحانه مادام قد كان وهو لا تناله الأغيار، فهو يظل إلى الأبد.



الحِكْمَـةُ مِنَ الطَّهارة

ها هو الحقُّ - سبحانه - يدخلنا إلى رحابه بالاستعداد للصلاة لأنه واهب كلّ النّعم. ويأمرنا بالاستعداد للصلاة وأن يعدّ كل واحدٍ منّا نفسه لها.

وهذا الإعداد يؤهّل المسلم ليلقى الحقّ فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: ٦].

سبحانه يأمرنا بوضوح محدد: إذا أردتم القيام إلى الصلاة فلابد لكم من تنفيذ عملية الوضوء.

وتتعرض الآية إلى الأركان الأساسية في الوضوء. وقد يلتبس الأمر على بعض الناس ولا يستطيع أن يميز بين سنن الوضوء وأركان الوضوء؛ لأن السنن تقتضي أن يغسل الإنسان يديه ثم يتمضمض، ثم يستنشق الماء وهكذا، هذه هي السنن التي تمتزج بالأركان الأساسية للوضوء.

ويبدأ الحق أركان الوضوء الأساسية بقوله: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

والغسل يتطلب إسالة الماء على العضو، وأن يقطر منه الماء بعد ذلك، والمسح هو اللمس بالماء ليصيب العضو ولا يتقطر منه الماء، إنه مجرد بلولة بالماء.

والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم في هذه الآية عن الوضوء، تكلم عن أشياءَ تُغسل، وعن شيءٍ يُسمح.

فالأمر بالغسل: يشمل الوجه واليدين إلى المرافق، والرجلين إلى الكعبين.

والأمر بالمسح: يشمل بعض الرأس.

والغسل قد يكفي مرة أو اثنتين أو ثلاثًا ليتأكد الإنسان تمامًا من الغسل، ولكن إذا كانت المياه قليلة فيكفي أن يغسل الأجزاء المطلوبة مرة، وأن يتأكد أنه قد غسل المساحات المطلوبة.

إن الزيادة على المرة الواحدة إلى ثلاث مرات أمر مسنون لا واجب، وغسل الوجه معروف تمامًا للجميع، فالوجه هو ما به المواجهة.

والمواجهة تكون من منبت الشعر إلى الذقن، وتحت منتهى لحييه، وهما العظمان اللذان تنبت عليهما الأسنان السفلى، هذا في الطول.

وفي العرض يشمل الوجه ما بين شحمتي الأذنين، ولا أحد يختلف في تحديد الوجه، ولذلك أطلق الحق الوجه ولم يعينه بغاية، فلم يقل: اغسل وجهك من كذا إلى كذا، ولكنه أمر بغسل الوجه، فلا اختلاف في مدلول الوجه لدى الجميع، والكل متفق عليه، هذا إذا ما بدأنا بالفروض الأساسية. لكن إذا ما بدأنا بالسنن فنحن نغسل الكفين إلى الرسغين أولاً ثم نتمضمض ونستنشق.

وبعض العارفين بالله يقول عن هذه المقدمات التي هي من السنن: إنها لم تأت اعتباطًا؛ لأن تعريف الماء هو: السائل الذي لا لون له ولا طعم ولا رائحة، وإن تغير أي وصف من هذه الأوصاف يكون السائل قد خرج عن المائية. فساعة تأخذ الماء بيديك ستطمئن على لون الماء، وتعرف أنه لا لون له، وعندما تتمضمض فأنت تطمئن إلى أنه لا طعم له، وعندما تستنشق فأنت تطمئن على أن الماء لا رائحة له، وبذلك تطمئن إلى أن الماء الذي تستعمله في الوضوء يكون قد استوفى الأوصاف قبل أن تبدأ في عمل المطلوب من أركان الوضوء التي يطلبها الله، والسنة تقدمت هنا على الأركان لحكمة هي أن توفر للإنسان الثقة في الماء الذي يتوضأ منه، وبعد ذلك يغسل الإنسان الوجه من منابت شعر الرأس وتحت منتهى لحييه وذلك طولا وما بين شحمتي الأذنين عرضًا.

وبعد غسل الوجه قال الحق: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، وميز

الحق هنا الأيدي بتحديد المساحة المطلوب غسلها بأنها إلى المرافق، أي أنه زاد غاية لم توجد في الوجه، ولكن جاء الأمر بغسل اليدين إلى المرافق، لأن اليد تطلق في اللغة، ويراد بها الكف.

مثال ذلك في حكم الحق على السارق والسارقة: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

وتطلق اليد أيضًا، ويراد بها الكف، والساعد إلى المرافق.

وتطلق اليد أيضًا، ويراد بها إلى الكتف، فلليد ثلاث إطلاقات، ولو أن الحق قد أمر بغسل اليد ولم يحدد الغسل بـ (إلى المرافق) لغسل البعض كفيه فقط، وغسل البعض يديه إلى المرافق، ولغسل البعض يديه إلى الكتفين.

ولأن الحق يريد غسل اليد على وجهٍ واحدٍ محدد لذلك، قال: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾.

إذًا فساعة يريد الحق شيئًا محددًا، فهو يأتي بالأسلوب الذي يُحدده تحديدًا يقطع الاجتهاد في هذا الشيء.

وكلمة (إلى) تحدد لنا الغاية، كما أن (من) تحدد الابتداء، ولكن هل تدخل الغاية هنا أم لا؟

هل تدخل المرافق في الغسل أم لا؟

إن (إلى) قد تدخل الغاية، ومرة أخرى لا تدخل الغاية.

فمثال إدخالها الغاية قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

هل أسرى الحق برسوله ﷺ إلى المسجد الأقصى ولم يدخله؟ لا أحد يعقل ذلك. إن ﴿إِلَى﴾ هنا تقتضي أن تدخل الغاية؛ لأن الرسول ﷺ كان قد ذهب إلى المسجد الأقصى بمراد الإسراء إليه والدخول والصلاة فيه. ويقول سبحانه: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فهل يدخل الليل في الصيام؟ لا، لأننا لو أدخلنا الليل في الصوم لصار الصيام وصالاً أي نصل الليل بالنهار صائمين. إذًا فمع ﴿إِلَى﴾ تجد الغاية تدخل مرة، وتجدها لا تدخل مرة أخرى. واختلف بعض العلماء حول المرفق هل يدخل في الغسل أو لا؟ وصار في عموم الاتفاق أن يدخل المرفق في الغسل احتياطيًا؛ لأن أحدًا لا يستطيع تحديد المرفق من أين وإلى أين. ونعرف أن هناك احتياطات للتعقل، فمرة نحتاط بالاتساع ومرة نحتاط بالتضييق.

مثال ذلك: عندما نصلي في البيت الحرام، ونحن نعرف أن الكعبة بناء واضح الجدران، وبجانب جدار من جدران الكعبة يوجد الحطيم وهو حجر إسماعيل وهو جزء من الكعبة يحطيه قوس. وعندما يصلي إنسان حول الكعبة، هل يتجه إلى الحطيم أم إلى بناء الكعبة؛ لأنه مقطوع بكعبيته، والاحتياط هنا احتياط بالنقص، فنتوجه إلى الكعبة وهي البناء العالي فقط، ولكن عند الطواف، فإننا نطوف حول الكعبة والحطيم، أي أن الاحتياط هنا يكون بالزيادة؛ لأننا إذا ما طفنا حتى من وراء المسجد فهو طواف حول البيت الحرام.

إذًا فالاحتياط يكون مرة بالنقص ومرة يكون بالزيادة. وفي مجال الوضوء يكون غسل المرافق هو احتياط بالزيادة؛ ذلك أن ﴿إِلَى﴾ تكون الغاية بها مرة داخلة، ومرة تكون الغاية بها غير داخلة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، الأسلوب هنا يختلف، فالمطلوب هو المسح.

كان المطلوب أولاً هو الغسل للوجه على إطلاقه، لأنه لا خلاف على الوجه، ثم غسل اليدين إلى المرافق، وتم تحديد الغاية، لأن الحق يريد الغسل لليدين على لونٍ يقطع الجدل والاجتهاد فيه.

ولو قال الحق: «امسحوا رءوسكم» مثلما قال: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾، لما كان هناك خلاف، لكن لو قال: «امسحوا بعض رءوسكم» فهل يوجد خلاف؟ نعم؛ فذلك البعض لم يحدد، ولو قال: «امسحوا ربع رءوسكم» فهل يوجد خلاف؟

نعم، قد يوجد خلاف لأن تحديد الربع عسير وشاق.

لماذا إذًا اختار الحق هنا هذا الأسلوب ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ مع أن في الآية أساليب كثيرة، منها أسلوب مجرد عن الغاية، وأسلوب موجود به الغاية، وهذا الأسلوب لا هو مجرد، ولا هو موجود به الغاية؟

وقال الحق: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، ولنا أن نبحث عن كيفية استعمال حرف (الباء) التى تسبق « رءوسكم»، إن الباء في اللغة تأتي بمعان كثيرة، قال ابن مالك في (الألفية):

بالباء استعن وعد عوض الصق ... ومثل «مع» و«من» وعن بها انطق

ومقصود بها أن تعطي الحرية للمشرع، لأن الباء تأتي لمعان كثيرة، للاستعانة مثل: كتبتُ بالقلم، ولتعدية الفعل اللازم نحو: ذهبت بالمريض إلى الطبيب.

وللتعويض مثل: اشتريت القلم بعشرين جنيهًا، والالتصاق نحو: مررت بخالدٍ، وتأتي بمعنى (مع) مثل: بعتك البيت بأثاثه أي: مع أثاثه.

وبمعنى (من) مثل: شرب بماء النيل أي من ماء النيل، وبمعنى (عن) مثل قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج: ١]، أي: عن عذاب واقع.

وتأتي أيضًا للظرفية نحو: ذهبت إلى فلان بالليل، أي في الليل، وتكون للسببية نحو: باجتهاد محمد منح الجائزة أي بسبب اجتهاده، إلى غير ذلك من المصاحبة نحو: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [النصر: ٣]، أي: سبح مصاحبًا حمد ربك.

إن الذي يقول: امسحوا بعض رءوسكم ولو شعرة، فهذا أمر يصلح ويكفي وتسعفه الباء لغة، والمسح يقتضي الإلصاق، والآلة الماسحة هي اليد.

وهناك من يقول: نأخذ على قدر الأداة الماسحة، وهي اليد أي: مسح مقدار ربع الرأس.

إذًا كل حكم من هذه الأحكام يصلح لتمام تنفيذ حكم مسح الرأس، ولو أن

الله يريدها على لونٍ واحدٍ لأوضح ما أراد، فإن أراد كل الرأس لقال: امسحوا رءوسكم كما قال: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾.

وإن كان يريد غاية محددة، لحدد كما حدد غسل اليدين إلى المرفقين، وما دام سبحانه قد جاء بالباء، والباء في اللغة تحتمل معاني كثيرة، لذلك فمن ذهب إلى واحدةٍ منها تكفي، لأن أي غاية محتملة بالباء أمر صحيح[1].

والأمر هنا أن يتفهم كل منفذ لحكم محتمل ألا يُخَطِّئَ الحكم الآخر. بل عليه أن يقول: هذا هو مقدار فهمي لحكم الله. والله ترك لنا أن نفهم بمدلول الباء كما أرادها في اللغة. وقد خلقك الحق أيها الإنسان مقهورًا لأشياء لا قدرة لك فيها؛ كحركة الجوارح، وكالأشياء التي تصيب الإنسان كالموت.

إن هناك أشياء أنت مخير فيها، ولذلك كان تكليف الحق لك مبنيًّا على هذا؛ ففي أشياء يقول لك: «افعل كذا» أو «لا تفعل كذا» وفي أشياء أخرى يترك لك حرية التصرف في أدائها. وذلك حتى يتسق التكليف مع طبيعة التكوين الإنساني. فلم يَصُب الله الإنسان في قالب حديدي.

ويقول الحق من بعد الأمر بمسح الرأس: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ .

وكان سياق النص يقتضي كسر اللام في «أرجلكم» ولكن الحق جاء بالأرجل معطوفة على غسل الوجه واليدين. وغير معطوفة على﴿بِرُءُوسِكُمۡ﴾ وهذا يعني أن الرجلين لا تدخلان في حيز المسح؛ إنما تدخلان في حيز الغسل.

ونبه الحق بالحركة الإعرابية على أنها ليست معطوفة على الجزء المصرح بمسحه، ولكنها معطوفة على الأعضاء المطلوب غسلها، ولم يأت الحق بالممسوح في جانب والمغسول في جانب ليدل على أن الترتيب في هذه الأركان أمر تعبدي

---

(١) لم يثبت عن النبي ﷺ أنه اكتفى بمسح جزء من رأسه؛ فعن عبد الله بن زيد: «أن النبي ﷺ مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدّم رأسه، ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردّهما إلى المكان الذي بدأ منه». رواه البخاري ومسلم، وعن المغيرة بن شعبة: «أن النبي ﷺ توضأ ومسح بناصيته، وعلى العمامة، وعلى خفّيه». رواه البخاري.

وإلا لجاء بالمغسول معًا والممسوح معًا، ويحدد الحق أيضًا غسل الرجلين إلى الكعبين: ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾.

والرجل تطلق على القدم، وتطلق على القدم والساق إلى أصل الفخذ. ويريد سبحانه غسل الرجلين محدودًا إلى الكعبين.

وحتى نعلم أن هذه مسائل تعبدية؛ عرفنا أن اليد تطلق على الكف، ومن أطراف الأصابع إلى الكتف يطلق عليه «يد» أيضًا، والمرفق في اليد هو الحد الوسط، و«الكعبين» هو الحد الأول في الساق؛ لأن الوسط بعد الساق هو الركبة.

إذًا ترتيب المسألة في اليدين كف وساعد وعضد، والمرفق في وسط اليد، وفي الرجلين يقف الأمر عند الحد الأول وهو الكعبان. هي - إذًا - مسألة تعبدية وليست مسألة قياسية.

ويبين الحق لنا أنه إذا أراد أمرًا بدقة فهو يحدده بلا تدخل أو خلاف، أما إذا جاء بأمر غير واضح فهو إذنٌ منه سبحانه أن نجتهد فيه لنشعر أن لنا بعض الاختيار في بعض ما تعبدنا الله به، وكله داخل في مرادات الله؛ لأن إيراد النص - شاملاً - لكل المفهومات هو إذنٌ بهذا المفهوم وإذنٌ بذلك المفهوم.

﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ﴾.

إن الوضوء شرع لغير الجنب، أي: أنه لمن يُحدِث حدثًا أصغر، وهناك فرق بين إخراج ما ينقض الوضوء وهو ما يؤذي، وبين إخراج ما يُمْتِع.

فإنزال المني أو حدوث الجماع يقتضي الطهارة بالاغتسال، ونعلم أن الإنسان حين يستمتع بطعامٍ، أو يستمتع برائحةٍ، أو بأي شيءٍ هو محدود بوسيلة الاستمتاع به.

أما الاستمتاع بالجماع فلا يعرف أحدٌ بأي عضو أدرك لذته، وهي مسألة معقدة إلى الآن، ولا يعرف أحدٌ كيف تحدث، مما يدل على أن جميع ذرات التكوين الإنساني مشتركة فيها، وما دام الأمر كذلك فالطهور يقتضي أن يغسل

كل جسمه.

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ ﴾.

وقد يقول قائل: أليست ﴿ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ كالجنابة؟

ونقول: إن الذي يجيء هنا هو حكم ثان يوضح لنا ما ينوب عن المياه، لأن الحق يرتب لعبادة لا تسقط عن المكلف أبدًا، لذلك لن يكلفه بشيءٍ قد لا يجده، فقد لا يجد الإنسان المياه، وعليه إذًا بالتيمم، لأن الصلاة عبادة لا تسقط أبدًا عن المكلف حتى في حالة مرضه، الذي لا يستطيع أن يحرك معه أي عضوٍ من جسمه.

هنا يسمح سبحانه للمريض أن يصلي جالسًا، أو مستلقيًا، أو يصلي بالإيماء برأسه، أو يصلي بأهداب عينيه، وحتى مريض الشلل عليه إجراء خواطر الصلاة وأركانها على قلبه، لأن فرض الصلاة عبادة لا تسقط أبدًا عن الإنسان ما دام فيه عقل.

إننا نعرف أن الصلاة هي الركن الوحيد من أركان الإسلام الذي يتطلب الاستدامة، فيكفي المرء أن يقول الشهادة مرة واحدة في العمر، ويسقط الصوم عن الإنسان إن كان مريضًا، ويطعم غيره، أو يؤديه في أوقات أخرى إن كان مريضًا مرضًا مؤقتًا أو على سفر.

وقد لا يؤدي الإنسان الزكاة لأنه فقير، وكذلك الحج لا يجب على من لم يملك الاستطاعة من مالٍ أو عافية، ولا تبقى من أركان الإسلام غير الصلاة فإنها لا تسقط أبدًا.

إن عظمة الصلاة توضحها كيفية تشريعها؛ لأن تشريعات أركان الإسلام كانت بالوحي، أما تشريع الصلاة فقد جاء وحده بالمباشرة ولم يقل الله لجبريل: «قل للنبي التكليف بالصلاة». بل استدعَى الله النبي ﷺ إليه وكلفه بالصلاة.

في هذه السورة - سورة المائدة - صنع الحق معنا مثلما صنع في سورة البقرة؛ فبعد أن تكلم في أشياء وقص علينا أمر النعمة، ها هو ذا يدخل بنا إلى رحاب

المنعم، إلا إنه سبحانه لم يدخلنا على المنعم إلا بتهيئة طهورية. طهارة أبعاض؛ كالوضوء بأن نغسل الوجه ونغسل اليدين إلى المرفقين ونمسح على الرأس ونغسل الرجلين إلى الكعبين.

وأحكم في أشياء وترك للاجتهاد مدخلاً في أشياء، أحكمها في ثلاثة؛ غسل الوجه، وغسل اليدين إلى المرفقين، وغسل الرجلين إلى الكعبين، لكنه حينما تكلم عن الرءوس لم يقل: «امسحوا رءوسكم» ولا : «امسحوا ربع رءوسكم»، ولا «امسحوا بعض رءوسكم» مما يدل على أن للمجتهد أن يفهم في «الباء» ما تتيحه اللغة من «الباء»، إذًا أعطانا الحق أشياء محكمة وأشياء للاجتهاد. وبعد طهارة الأبعاض يذكرنا بطهارة البدن من الجنابة.

ونلتفت إلى الكلام الذي تقدم حيث أورد الحق فيه ما أحل لنا من بهيمة الأنعام من طعام وشراب، ثم تكلم في النكاح حتى أنه وسع لنا دائرة الاستمتاع ودائرة الإنسال بأن أباح لنا أن نتزوج الكتابيات، وفي هذا توسيع لرقعة الزواج فلم يقصر الزواج على المسلمات.

ولما كان الطعام الذى أحله الله ينشأ عنه ما يخرج منا من بولٍ وغائطٍ، والنكاح الذى أحله الله يغير كيماوية الجسد، لذلك جعل الله الوضوء لشيءٍ، والجنابة لها شيء آخر.

فعن الطعام ينشأ الأخبثان، وعن الجماع أو خروج المني ينشأ الحدث الأكبر، فكان ولابُدَّ بعد أن يتكلم عن طهارة الأبعاض في الحدث الأصغر أن يتكلم عن التطهير الكلي في الحدث الأكبر، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾.

الله سبحانه وتعالى يريد لنا أن تستديم اتصالاتنا به ولم يشأ أن يجعل الوسيلة للصلاة بأمر الماء فقط، لأننا قد نفقد الماء وقد يوجد الماء ولا نقدر على استعماله، فلم يشأ الحق أن يقطع الصلة بأن يجعل الوسيلة الوحيدة للتطهر هي الماء، فأوجد وسيلة أخرى، فإن فقدت الماء أيها الإنسان فلا بُدَّ أن تدخل إلى لقاء الله بنية تطهير آخر وهو التيمم.

هذا أمرٌ لا يفقده من عاش على الأرض، إذًا فعندنا تطهُّر بالماء، وعندنا تطهُّر بالتراب.

لذلك يقول سبحانه: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [النساء: ٤٣].

فإن كان الإنسان مريضًا لا يقدر على استعمال الماء، أو كان على سفرٍ ولا يجد الماء، أو جاء أحدٌ من الغائط، أي من قضاء الحاجة في مكانٍ غويط، وهو الوطىء المنخفض من الأرض.

وكانت العرب قديمًا تفعل ذلك حتى لا يراهم أحدٌ ويكونوا في سترٍ، رجالاً أو نساءً، وحتى بعد ملامسة النساء، إن لم يجد الإنسان بعدها ماء فالتيمم هو البديل، وإياكم أن تقولوا إن الماء هو الوسيلة الوحيدة للتطهر، فقد جعل للماء أيضًا خليفة وهو التراب.

والتراب أوسع دائرة من الماء، فكأنه سبحانه وتعالى يريد أن يديم علينا نعمة اللقاء به، ولكي يديم علينا نعمة اللقاء به جعل للماء - الذي يكون محصورًا- خليفة وهو التراب، وهو غير محصور.

ولا نريد أن ندخل في متاهات الخلاف عن الطهارة من ملامسة النساء، بين اللمس والملامسة؛ فاللمس لا يقتضي المفاعلة، أما الملامسة فتقتضي المفاعلة. واقتضاء المفاعلة ينقل المسألة من مجرد اللمس إلى معنى آخر هو الجماع.

وفي حالة الجنابة وعدم وجود الماء فالتيمم هو البديل ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا ﴾، والصعيد هو ما صعد على وجه الأرض من جنس الأرض بحيث لا تدخله صناعة الإنسان كالتراب والحجر، لكن الطوب الأحمر- الأجر- الذي نصنعه نحن فليس من الصعيد الصالح للتيمم، لأن صنعة الإنسان قد دخلته.

والأركان المفروضة في طهارة الأبعاض أربعة؛ أما طهارة الجسم فهي طهارة واحدة تشمل كل الجسم، وفي حالة التيمم جعل الحق الطهارة استعدادًا للصلاة

عوضًا عن الوضوء بمسح الوجه واليدين.

وكذلك في الطهارة من الجنابة، ونلحظ أنه سبحانه جاء بالمسح في الوضوء على بعضٍ من الرأس كإيناس متقدم، وذلك حتى يكون لنا إلف بالمسح حينما نتيمم.

﴿ فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [المائدة: ٦].

وجعل الحق الطهارة بالماء أو التراب إزالة للحرج، فالإنسان الذي لن يجد ماء سيقع في الحرج بالتأكيد، لأنه يريد أن يصلي ولا يجد وسيلة للطهارة.

وإذا كان عنده القليل من الماء ليشرب فهل يتوضأ أو يستديم الحياة، ويُبقى على نفسه بشرب الماء؟ ولا يريد الله أن يُعنت خلقه، ولا أن يوقعهم في الحرج، بل خفف عليهم وجعل عنصر التراب يكفي كبديل للماء: ﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾.

وإياك أن تفهم أن الطهارة هي التنظيف، لأن معنى الطهارة لو اقتصر على التنظيف لكانت الطهارة بالماء فقط، فلماذا إذًا نمسح وجوهنا بالتراب؟!

إن هذا يوضح أن الطهارة غير النظافة، فلو قال قائلٌ: سأنظف نفسي بـ (الكولونيا)؟ نقول له: لا، ليس هذا هو المطلوب، والله لا يطلب نظافة بهذا المعنى، ولكن يطلب التطهير.

والتطهير يكون بشرط من تدخل عليه - وهو الله سبحانه- وقد وضع الحق لذلك أمرين: إما بالماء، وإما بالتيمم بالتراب، فالطهارة تجعل المرء صالحًا ليستقبل ربه على ضوء ما شرع به، والذي يضع الشرط لذلك هو الله، وليس أنت أيها العبد.

وسبحانه قد أوضح أن العبد يكون طاهرًا بالماء أو التراب، وبهذه الطهارة يكون صالحًا لاستقبال الله له، وأعاد الله الإنسان في قربه منه إلى أصل إيجاده، وهو الماء والتراب.

﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾.

والإنسان مغمور بنعم كثيرة. فهب أن إنسانًا غاب عنه أبوه لكن خير الأب يصله كل يوم من مال وطعام وشراب ووسائل ترفيه، وبذلك يأخذ الإنسان نعمة الغاية من وجود أب له. ومع ذلك يشتاق هذا الإنسان المستمتع بنعمة والده الغائب إلى أن يكون مع والده، هذا هو تمام النعمة بين الأب والابن وكلاهما مخلوق لله، فما بالنا بتمام النعمة من الخالق لعباده!.

إن العبد الصالح يتمنى أن يرى مَن أنعم عليه؛ لذلك وضع الحق شرط الطهارة للقائه. وعندما يحضر الإنسان لحضرة ربه بالصلاة ويكبر: «الله أكبر» فهو منذ تلك اللحظة يوجد في حضرة الله، وإذا كانت الفيوضات تتجلى على الإنسان من نعمة مخلوق مثله سواء أكان أخًا أم أبًا أم قريبًا وهي نعمة مادية يراها الإنسان سواء أكانت طعامًا أم شرابًا أم لباسًا. فما بالنا بفيوضات المنعم الخالق الذي أنعم على الإنسان، إنها فيوضات من غيب؛ فكرمه لك غيب كالاعتدال في المزاج والعافية ورضا النفس وسمو الفكر.

إذًا فقول الحق: ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: أنكم عشتم قبل ذلك مع نعمة المنعم، وسبحانه يدعوكم إلى لقاء المنعم، ذلك تمام النعمة. وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إننا نجد الابن ينظر إلى هدايا الأب الغائب ويقول: أنا لا أريد هذه الأشياء ولكني أريد أبي.

إن تمام النعمة - في المستوى البشري - أن يرى الإنسانُ المنعِمَ عليه وهو إنسان مثله، أما تمام النعمة على المخلوق فيستدعي أن يتطهر الإنسان بما حدده له الله وأن يصلي فيلقى الله.

﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

ساعة نسمع: أنا فعلت ذلك وذلك لعلك تشكر، فهذا يعني أنك إن فعلت ما آمرك به فستجد أمرًا عظيمًا. والأمر الطبيعي يقتضي أن تَشْكُر عليه كأن ما فعله الله للإنسان يوجب عند الإنسان نعمة أخرى لا يمكن أن يستقبلها إلا بالشكر، مثلما قال الله: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ

ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨].

إنّ السمع والأبصار والأفئدة هي منافذ الإدراك، ومادام الحق قد خلقنا ولا نعلم شيئًا، وجعل لنا أدوات الإدراك، وأوضح: أنا خلقت لك هذه الأدوات للإدراك لعلك تشكر، أي تلمح آثارها في نفسك مما يربي عندك ملكة الإدراك للمدركات.



الرِّيَاحُ لَوَاقِح

قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[الحجر: ٢٢].

والإرسال: هو الدَّفْع للشيء من حَيّز إلى حَيِّز آخر، وحين يقول سبحانه إنه أرسل الرياح؛ نجد أنها مُرْسلَة من كُلّ مكان إلى كُلّ مكان؛ فهي مُرسَلة من هنا إلى هناك، ومن هناك إلى هنا.

وهكذا يكون كل مكان هو موقع لإرسال الرياح، وكل مكان هو موقع لاستقبالها؛ ولذلك نجد الرياح وهي تسير في دَورة مستمرة؛ ولو سكنتْ لَمَا تحرَّك الهواء، ولأُصِيبت البشرية بالكثير من الأمراض؛ ذلك أن الرياح تُجدّد الهواء، وتُنظِّف الأمكنة من الرُّكود الذي يُمكِن أن تصيرَ إليه.

ونعلم أن القرآن حين يتكلم عن الرياح بصيغة الجمع فهو حديث عن الخير، والمثل هو قول الحق سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

أما إذا أُفرد وجاء بكلمة «ريح» فهي للعذاب، مثل قوله: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾ [الحاقة: ٦].

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢].

ولواقح: جمع لاقحة، وتُطلق في اللغة مرَّة على الناقة التي في بطنها جنين؛ ومرة تُطلق على اللاقح الذي يلقح الغير ليصير فيه جنين؛ لأن الحق سبحانه شاء أن يتكاثر كل ما في الكون؛ وجعل من كُلٍّ زوجين اثنين؛ إما يتكاثر أو تتولد منه الطاقة؛ كالسالب والموجب في الكهرباء.

وهو القائل سبحانه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ [يس: ٣٦].

ثم عَدَّد لنا فقال: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ [يس: ٣٦].

وهناك أشياء لا يُدركها الإنسان مثل شجرة الجُميَّز؛ التي لا يعلم الشخص الذي لم يدرس علم النبات كيف تتكاثر لتنبت وتُثمِر، ويعلم العالم أن هناك شجرةَ جُميز تلعب دور الأنثى، وشجرةً أخرى تلعب دور الذَّكَر.

وكذلك شجرة التوت؛ وهناك شجرة لا تُعرف فيه الأنثى من الذَّكر؛ لأنه مكمور توجد به الأُنثى والذَّكَر، وقد لا تعرف أنت ذلك؛ لأن الحق سبحانه جعل اللُّقاحَ خفيفةً للغاية؛ لتحملها الريحُ من مكان إلى مكان.

ونحن لم نَرَ كيف يتم لقاح شجرة الزيتون؛ أو شجرة المانجو، أو شجرة الجوافة، وذلك لنأخذ من ذلك عبرةً على دِقّة صَنْعته سبحانه.

والمثَل الذي أضربه دائمًا هو المياه التي تسقط على جبلٍ ما؛ وبعد أيام قليلة تجد الجبل وقد امتلأ بالحشائش الخضراء؛ ومعنى هذا أن الجبل كانت توجد به بذور تلك الحشائش التي انتظرت الماء لِتُنبت.

وتعرّف العلماء على أن الذكورة بعد أن تنضج في النبات فهي تنكشف وتنتظر الرياح والجو المناسب والبيئة المناسبة لتنقلها من مكان إلى مكان.

ولهذا نجد بعضًا من الجبال وهي خضراء بعد هبوب الرياح وسقوط المطر؛ ذلك أن حبوب اللقاح انتقلت بالرياح، وجاء المطر لتجد النباتات فرصةً للنمو.

وقد تجد جبلاً من الجبال نصفه أخضر ونصفه جَدْب؛ لأن الرياحَ نقلت للنصف الأخضر حبوبَ اللقاح، ولم تنقل الحبوب للنصف الثاني من الجبل؛ ولذلك نجد الحق سبحانه قد جعل للرياح دورةً تنتقل بها من مكان لمكان، وتدور فيها بكل الأماكن.

ويتابع الحق سبحانه في نفس الآية: ﴿فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

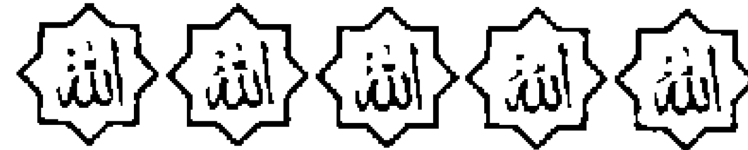
وقد تبيّن لنا أن المياه نفسها تنشأ من عملية تلقيح؛ وبه ذكورة وأنوثة.

وفي هذا المعنى يقول الحق سبحانه: ﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾.

أي: أنكم لن تخزنوا المياه لأنكم غير مأمونين عليه، وإذا كان الله قد هدانا إلى أن نخزنَ المياه، فذلك من عطاء الله؛ فلا يقولنّ أحد: لقد بنينا السدود؛ بل قُل: هدانا الله لِنبنيَها؛ بعد أن يسقطَ المطر؛ ذلك أن المطر لو لم يسقط لَمَا استطعنا تخزينَ المياه.

وعلى هذا يكون سبحانه هو الذي خزنَ المياه حين أنزله من السماء بعد أن هدانا لنبني السدود.

وأنت حين تريد كوبًا من الماء المُقطّر؛ تذهب إلى الصيدلي لِيُسخِّن الماء في جهاز مُعيّن؛ ويُحوّله إلى بخار، ثم يُكثّف هذا البخار ليصيرَ ماء مُقطّرًا، وكل ذلك يتمّ في الكون، وأنت لا تدري به.



الرَّضَاعَةُ .. تَغْذِيَةٌ ومَنَاعة

قال تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٣٣].

«انظر إلى عظمة الإسلام ها هو ذا الحق سبحانه يتكلم عن إرضاع الوالدات لأولادهن بعد عملية الطلاق، فالطلاق يورث الشقاق بين الرجل والمرأة، والحق سبحانه وتعالى ينظر للمسألة نظرة الرحيم العليم بعباده، فيريد أن يحمي الثمرة التي نتجت من الزواج قبل أن يحدث الشقاق بين الأبوين، فيبلغنا: لا تجعلوا شقاقكم وخلافكم وطلاقكم مصدر تعاسة للطفل البريء الرضيع.

وهذا كلام عن المطلقات اللاتي تركن بيوت أزواجهن، لأن الله يقول بعد ذلك: ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾..

وما دامت الآية تحدثت عن ﴿ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾..

فذلك يعني أن المرأة ووليدها بعيدة عن الرجل، لأنها لو كانت معه لكان رزق الوليد وكسوته أمرًا مفروغا منه. والحق سبحانه يفرض هنا حقا للرضيع، وأمه لم تكن تستحقه لولا الرضاع. وبعض الناس فهموا خطأ أن الرزق والكسوة للزوجات عموما ونقول لهم: لا. إن الرزق والكسوة هنا للمطلقات اللاتي يرضعن فقط.

ويريد الحق سبحانه أن يجعل هذا الحق أمرا مفروغا منه، فشرع حق الطفل في أن يتكفله والده بالرزق والكسوة حتى يكون الأمر معلوما لديه حال الطلاق.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾..

نلحظ فيه أنه لم يأت بصيغة الأمر فلم يقل: يا والدات أرضعن، لأن الأمر عرضة لأن يطاع وأن يعصى، لكن الله أظهر المسألة في أسلوب خبري على أنها أمر واقع طبيعي ولا يخالف.

ويقول الحق: ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾..

ولنتأمل عظمة الأداء القرآني في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ ﴾..

إنه لم يقل: «وعلى الوالد»، وجاء بـ ﴿ ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ ﴾ ليكلفه بالتبعات في الرزق والكسوة، لأن مسئولية الإنفاق على المولود هي مسئولية الوالد وليست مسئولية الأم، وهي قد حملت وولدت وأرضعت والولد يُنسب للأب في النهاية. يقول الشاعر:

فإنّما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللآباء أبناء

وما دام المولود منسوبًا للرجل الأب، فعلى الأب رزقه وكسوته هو وعليه أيضا رزق وكسوة أمه التي ترضعه بالمعروف المتعارف عليه بما لا يسبب إجحافًا وظلما للأب في كثرة الإنفاق، ويقول الحق: ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ..

هنا الحديث عن الأم والأب. فلا يصح أن ترهق المطلقة والد الرضيع بما هو فوق طاقته، وعليها أن تكتفي بالمعقول من النفقة.

و يتابع الحق: ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ ..

ولا زال الحق يُذكرُ الأب بأن المولود له هو، وعليه ألا يضر والدة الطفل بمنع الإنفاق على ابنه، وألا يتركها تتكفف الناس من أجل رزقه وكسوته، وفي الوقت نفسه يُذّكرُ الأم: لا تجعلي رضيعك مصدر إضرار لأبيه بكثرة الإلحاح في طلب الرزق والكسوة.

إنه ﷻ يضع لنا الإطار الدقيق الذي يكفل للطفل حقوقه، فهناك فرق بين

رضيع ينعم بدفء الحياة بين أبوين متعاشرين، ووجوده بين أبوين غير متعاشرين.

والحق سبحانه وتعالى يعطينا لفتة أخرى هي أن والد المولود قد يموت فإذا ما مات الوالد فمن الذي ينفق على الوليد الذي في رعاية أمه المطلقة؟ هنا يأتينا قول الحق بالجواب السريع: ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ ..

إن الحق يقرر مسئولية الإنفاق على من يرث والد الرضيع، صحيح أن الرضيع سيرث في والده، لكن رعاية الوليد اليتيم هي مسئولية من يرث الوصاية وتكون له الولاية على أموال الأب إذا مات. وهكذا يضمن الله ﷻ حق الرضيع عند المولود له وهو أبوه إذا كان حيا، وعند من يرث الأب إذا تُوفي.

وبذلك يكون الله ﷻ قد شَرَّع لصيانة أسلوب حياة الطفل في حال وجود أبويه، وشرع له في حال طلاق أبويه وأبوه حيٌّ، وشرع له في حال طلاق أبويه ووفاة أبيه.

و يتابع الحق: ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ انظر إلى الرحمة في الإسلام، فطلاق الرجل لزوجته لا يعني أن ما كان بينهما قد انتهى، ويضيع الأولاد ويشقون بسبب الطلاق، فقوله تعالى: ﴿ عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ ﴾.. دليل على أن هناك قضية مشتركة ما زالت بين الطرفين وهي ما يتصل برعاية الأولاد، وهذه القضية المشتركة لابد أن يُلاحظ فيها حق الأولاد في عاطفة الأمومة، وحقهم في عاطفة الأبوة، حتى ينشأ الولد وهو غير محروم من حنان الأم أو الأب، وإن اختلفا حتى الطلاق.

إن عليهما أن يلتقيا بالتشاور والتراضي في مسألة تربية الأولاد حتى يشعروا بحنان الأبوين، ويكبر الأولاد دون آلام نفسية، ويفهمون أن أمهم تقدر ظروفهم، وكذلك والدهم وبرغم وجود الشقاق والخلاف بينهما فقد اتفقا على مصلحة الأولاد بتراضٍ وتشاور.

إن ما يحدث في كثير من حالات الطلاق من تجاهل للأولاد بعد الطلاق هي

مسألة خطيرة، لأنها تترك رواسب وآثارا سلبية عميقة في نفوس الأولاد، ويترتب عليها شقاؤهم وربما تشريدهم في الحياة. وما ذنب أولاد كان الكبار هم السبب المباشر في مجيئهم للحياة؟ أليس من الأفضل أن يوفر الآباء لهم الظروف النفسية والحياتية التي تكفل لهم النشأة الكريمة؟ إن منهج الله أمامنا فلماذا لا نطبقه لنسعد به وتسعد به الأجيال القادمة؟

والحق سبحانه وتعالى قال في أول الآية: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾.. لكن ماذا يكون الحال إن نشأت ظروف تقلل من فترة الرضاعة عن العامين، أو نشأت ظروف خاصة جعلت فترة الرضاعة أطول من العامين؟ هنا يقول الحق: ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾..

إنه جَلّ وعَلاَ يبيِّن لنا أن الفصال أي الفطام يجب أن يكون عن تراض وتشاور بين الوالدين ولا جناح عليهما في ذلك. ويقول الحق: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾..

و ﴿ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ ﴾ أي أن تأتوا للطفل بمرضعة، فإن أردتم ذلك فلا لوم عليكم في ذلك.

إن المطلق حين يوكل إلى الأم أن ترضع وليدها فالطفل يأخذ من حنان الأم الموجود لديها بالفطرة، لكن هب أن الأم ليست لديها القدرة على الإرضاع أو أن ظروفها لا تسعفها على أن ترضعه لضعف في صحتها أو قوتها، عند ذلك فالوالد مُطالب أن يأتي لابنه بمرضعة، وهذه المرضعة التي ترضع الوليد تحتاج إلى أن يعطيها الأب ما يُسخِّيها ويجعلها تقبل على إرضاع الولد بأمانة، والإشراف عليه بصدق.

ويختم الحق هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾..

إن الحق يحذر أن يأخذ أحد أحكامه ويدعي بظاهر الأمر تطبيقها، لكنه غير

حريص على روح هذه الأحكام، مثال ذلك الأب الذي يريد أن يدلس على المجتمع، فعندما يرى الأب مرضعة ابنه أمام الناس فهو يدعي أنه ينفق عليها، ويعطيها أجرها كاملا، ويقابلها بالحفاوة والتكريم بينما الواقع يخالف ذلك.

إن الله يحذر من يفعل ذلك: أنت لا تعامل المجتمع وإنما تعامل الله ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾.



الحِكْمَـةُ من اعتزَالِ النِّساء في المَحِيض

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - : عالج الحقُّ - سبحانه - قضية التواصل مع المرأة أثناء فترة الحيض فيأتي التشريع ليقنن هذه المسألة لأن الإسلام جاء وفي الجو الاجتماعي تياران:

تيار يرى أن الحائض هي امرأة تعاني من قذارة، لذلك لا يمكن للزوج أن يأكل معها أو يسكن معها أو يعاشرها أو يعيش معها في بيت واحد وكذلك أبناؤه. وتيار آخر يرى المرأة في فترة الحيض امرأة عادية لا فرق بينها وبين كونها غير حائض أي تباشر حياتها الزوجية مع زوجها دون تحوط أو تحفظ. كان الحال - إذًا - متأرجحًا بين الإفراط والتفريط، فجاء الإسلام ليضع حدًّا لهذه المسألة فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢].

حين تقرأ ﴿ هُوَ أَذًى ﴾ فقد أخذت الحكم ممن يُؤمَن على الأحكام، ولا تناقش المسألة، ومهما قال الطب من تفسيرات وتعليلات وأسباب نقل له: لا، الذي خلق قال: ﴿ هُوَ أَذًى ﴾. و﴿ ٱلْمَحِيضِ ﴾ يطلق على الدم، ويراد به أيضًا: مكان الحيض، ويراد به أيضًا زمان الحيض.

وقول الحق سبحانه عن ﴿ ٱلْمَحِيضِ ﴾ إنه ﴿ أَذًى ﴾ يهيئ الذهن لأن يتلقى حكمًا في هذا الأذى، وبذلك يستعد الذهن للحظر الذي سيأتي به الحكم، وقد جاء الحكم بالحظر والمنع بعد أن سبقت حيثيته.

إن الحق سبحانه وتعالى وهو الخالق أراد أن تكون عملية الحيض في المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها وحياة الإنجاب، وأمر الرجال أن يعتزلوا النساء وهن حوائض؛ لأن المحيض أذى لهم، ولكن هل دم الحيض أذى للرجال أم للنساء؟

إنه أذى للرجال والنساء معًا، لأن الآية أطلقت الأذى، ولم تحدد من المقصود به.

والذي يدل على ذلك أن الحيض يعطي قذارة للرجل في مكان حساس هو موضع الإنزال عنده، فإذا وصلت إليه الميكروبات تصيبه بأمراض خطيرة.

والذي يحدث أن الحق قد خلق رحم المرأة وفي مبيضيها عدد محدد معروف له وحده سبحانه وتعالى من البويضات، وعندما يفرز أحد المبيضين البويضة فقد لا يتم تلقيح البويضة، فإن بطانة الرحم المكون من أنسجة دموية تقل فيها نسبة الهرمونات التي كانت تثبت بطانة الرحم، وعندما تقل نسبة الهرمونات يحدث الحيض.

والحيض هو دم يحتوي على أنسجة غير حية، وتصبح منطقة المهبل والرحم في حالة تهيج، لأن منطقة المهبل والرحم حساسة جدًا لنمو الميكروبات المسببة للالتهابات سواء للمرأة، أو للرجل إن جامع زوجته في زمن الحيض، والحيض يصيب المرأة بأذى في قوتها وجسدها؛ بدليل أن الله سبحانه رخص لها ألا تصوم وألا تصلي في هذه الحالة.

إذًا... فالمسألة منهكة ومتعبة لها، فلا يجوز أن يرهقها الرجل بأكثر مما هي عليه.

إذًا... فقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَذًى ﴾ تعميم بأن الأذى يصيب الرجل والمرأة وبعد ذلك يبين الحق سبحانه أن كلمة: ﴿ أَذًى ﴾ حيثية تتطلب حكمًا يَرِد، إما بالإباحة وإما بالحظر وما دام ﴿ هُوَ أَذًى ﴾ فلابد أن يكون حظرًا.

يقول الحق ﷻ: ﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ .

والذي يقول: إن المحيض هو مكان الحيض يبين قوله بأن المحرم هو المباشرة الجنسية، لكن ما فوق السرة وما فوق الملابس فهو مباح[1]، فقوله الحق ﴿ وَلَا

(١) عن عكرمة، عن بعض أزواج النبي ﷺ: «أن النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئًا، ألقى على فرجها ثوبًا» رواه أبو داود، وإسناده صحيح، وعن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**اصنعوا كُلّ شيء إلا النّكاح**» رواه مسلم.

﴿تَقْرَبُوهُنَّ﴾ أي: لا تأتوهن في المكان الذي يأتي منه الأذى وهو دم الحيض[1].

﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾.

و﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾: من الطهور مصدر طَهَر يطهر، وعندما نتأمل قوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ نجد أنه لم يقل: «فإذا طهرن»، فما الفرق بين «طهر» و«تطهر»؟

إنّ «يطهرن» معناها امتنع عنهن الحيض، و ﴿تَطَهَّرْنَ﴾ يعني اغتسلن من الحيض؛ ولذلك نشأ خلاف بين العلماء، هل بمجرد انتهاء مدة الحيض وانقطاع الدم يمكن أن يباشر الرجل زوجته، أم لابد من الانتظار حتى تتطهر المرأة بالاغتسال؟

وخروجًا من الخلاف نقول: إن قوله الحق: ﴿تَطَهَّرْنَ﴾ يعني اغتسلن فلا مباشرة قبل الاغتسال، ومن عجائب ألفاظ القرآن أن الكلمات تؤثر في استنباط الحكم، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ [الواقعة: ٧٧- ٧٩].

ما المقصود إذًا؟ هل المقصود أن القرآن لا يمسكه إلا الملائكة الذين طهرهم الله من الخبث، أو أن للبشر أيضًا حق الإمساك بالمصحف لأنهم يتطهرون؟

بعض العلماء قال: إن المسألة لابد أن ندخلها في عموم الطهارة، فيكون معنى ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي الذين طهرهم من شرع لهم التطهير؛ ولذلك فالمسلم حين يغتسل أو يتوضأ يكون قد حدث له أمران: التطهر والطهر.

فالتطهر بالفعل هو الوضوء أو الاغتسال، والطهر بتشريع الله، فكما أن الله

---

(١) قال صاحب «الإعجاز الطبي في القرآن»: «في الحيض يحتقن الجهاز التناسلي للأنثى، ويصبح أكثر عرضة للالتهابات، وفيه تصل المقاومة للعدوى إلى مراتبها الدنيا في المرأة، فتصبح أكثر عرضة للأمراض المختلفة. لذلك نرى في أكثر الأحايين ما يصيب الأنثى من أضرار بالغة من اللّقاء الجنسي أثناء فترة الحيض، وتظهر في صورة التهابات مهبليّة وَرَحِميّة، وقد تصل الالتهابات إلى قنوات فالوب، أو إلى المبيضين، كما قد تصل هذه الميكروبات إلى الذّكر فتحدث التهابات بمجرى البول، ومنه إلى المثانة فالحالبين فالكليتين... كما قيل: إن مرض الجذام ينجم وينتقل عن المباضعة في المحيض»ا.هـ.

طهر الملائكة أصلاً فقط طهرنا معشر الإنس تشريعًا، وبذلك نفهم الآية على إطلاقها ونرفع الخلاف.

وقول الحق في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي حتى يأذن الله لهن بالطهر، ثم يغتسلن استجابة لتشريع الله لهن بالتطهر.

﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني في الأماكن الحلال.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وأراد الحق تبارك وتعالى أن يدخل عليك أنسًا، فكما أنه طلب منك أن تتطهر ماديًا فهو سبحانه قبل أيضًا منك أن تتطهر معنويًا بالتوبة، لذلك جاء بالأمر حسيًا ومعنويًا، وبعد ذلك جاء الحق سبحانه وتعالى بحكم جديد، هذا الحكم ينهي إشكالاً أثاره اليهود.

وقد كان اليهود يثيرون أن الرجل إذا أتى امرأته من خلف ولو في قُبلها - بضم القاف - جاء الولد أحول. و «القُبل» هو مكان الإتيان، وليس معناه الإتيان في الدبر والعياذ بالله كما كان يفعل قوم لوط.



مُعْجِزَةُ النَّحْلِ وَعَسَلِه

قال الحقُّ – سبحانه – : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾[النحل: ٦٨، ٦٩].

قال الإمام الشعراوي – رحمه الله تعالى – : النَّحْلُ خَلْق من خَلْق الله[1]، وكل خَلْق لله أودع الله فيه وفي غرائزه ما يُقيم مصالحه، يشرح ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

أي: خلق هذه كذا، وهذه كذا حَسْب ما يتناسب مع طبيعته؛ ولذلك تجد ما دون الإنسان يسير على منهج لا يختلف .. فالإنسان مثلاً قد يأكل فوق طاقته، وقد يصل إلى حَدِّ التُّخْمة، ثم بعد ذلك يشتكي مرضًا ويطلب له الدواء.

أما الحيوان فإذا ما أكل وجبته، وأخذ ما يكفيه فلا يزيد عليه أبدًا، وإنْ أجبرته على الأكل، ذلك لأنه محكوم بالغريزة الميكانيكية، وليس له عقل يختار به.

يقول الحق سبحانه: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ الحق تبارك وتعالى قد يمتنّ على بعض عباده ويُعلّمهم لغة الطير والحيوان، فيستطيعون التفاهم معه ومخاطبته كما في قصة سليمان عليه السلام.. والله سبحانه الذي خلقها وأبدعها يُوحي إليها ما يشاء.. فما هو الوحي؟

الوحي: إعلام من مُعلِم أعلى لُمعلَم أدنى بطريق خفيّ لا نعلمه نحن، فلو أعلمه بطريق صريح فلا يكون وَحيًا.

فالوحي إذًا يقتضي: مُوحيًا وهو الأعلى، ومُوحًى إليه وهو الأدنى، ومُوحًى به وهو المعنى المرادِ من الوَحْي.

---

(١) قال الزجاج: وَسُمِّي نَحْلاً لأن الله عز وجل نَحَله العسل الذي يَخْرُج منه.

والحق - تبارك وتعالى - له طلاقة القدرة في أن يُوحي ما يشاء لما يشاء من خَلْقه.. وقد أوحى الحق سبحانه وتعالى إلى الجماد في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝﴾ [الزلزلة: ١ - ٥].

أعلمها بطريق خفيّ خاص بقدرة الخالق في مخلوقه[١].

وهنا أوحى سبحانه إلى النحل.

وأوحى الله إلى الملائكة: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وأوحى إلى الرسل: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [النساء: ١٦٣].

وأوحى إلى المقربين من عباده: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: ١١١].

وقد أوحى إليهم بخواطر نورانية تمرُّ بقلوبهم.

وأوحى سبحانه إلى أم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧].

هذا هو وَحي الله إلى ما يشاء من خَلْقه: إلى الملائكة، إلى الأرض، إلى الرسل، إلى عباده المقربين، إلى أم موسى، إلى النحل .. إلخ[٢].

وقد يكون الوحي من غيره سبحانه، ويُسمَّى وَحيًا أيضًا، كما في قوله تعالى:

---

(١) قال إبراهيم الحربي في قوله تعالى: ﴿يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها﴾: لله ﷻ في الموت قُدرة لم يُدْرَ ما هي، لم يأتها رسولٌ من عند الله ولكن الله تعالى عَرَّفها ذلك؛ أي ألهمها. «تفسير القرطبي» (١٠/ ١٢١).

(٢) قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في «تفسيره» (١٠/ ١٢١): لا خلاف بين المتأوّلين أن الوحي هنا - يعني في قوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ - بمعنى الإلهام. ا.هـ.

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقوله: ﴿ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وما معنى كلمة الوحي إذا أطلقت ؟

إذا أُطلِقَتْ كلمة «الوَحْي» مُطلقًا بدون تقييد انصرفتْ إلى الوحي من الله إلى الرسل؛ لذلك يقول علماء الفقه: الوحي هو إعلامُ الله نبيه بمنهجه، ويتركون الأنواع الأخرى، وَحي الغرائز، وحي التكوين، وحي الفطرة.. إلخ.

وقوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴾ [النحل: ٦٨]. كثير من الباحثين شغوفون بدراسة النحل ومراحل حياته منذ القِدَم، ومن هؤلاء باحث تتبّع المراحل التاريخية للنحل، فتوصل إلى أن النحل أول ما وُجِد عاش في الجبال، ثم اتخذ الشجر، وجعل فيها أعشاشه[1]، ثم اتخذ العرائش التي صنعها له البشر، وهي ما نعرفه الآن باسم الخلية الصناعية أو المنحل، ووجه العجب هنا أن هذا الباحث لا يعرف القرآن الكريم، ومع ذلك فقد تطابق ما ذهب إليه مع القرآن تمام التطابق.

وكذلك توصَّل إلى أقدم أنواع العسل ما وُجد في كهوف الجبال، وقد توصَّلوا إلى هذه الحقيقة عن طريق حَرْق العسل وتحويله إلى كربون، ثم عن طريق قياس إشعاع الكربون يتم التوصلّ إلى عمره.. وهكذا وجدوا أن عسل الكهوف أقدم أنواع العسل، ثم عسل الشجر، ثم عسل الخلايا والمناحل.

إذًا أوحى الله تعالى إلى النحل بطريق خفيّ لا نعلمه نحن، وعملية الوحي تختلف باختلاف الموحِي والموحَى إليه، ويمكن أن نُمثّل هذه العملية بالخادم الفَطِن الذي ينظر إليه سيده مُجرد نظرة فيفهم منها كل شيء: أهو يريد الشراب؟ أم يريد الطعام؟ أم يريد كذا؟.

---

(١) قال أبو بكر بن العربي - رحمه الله - : ومن عجيب ما خَلَق الله في النّحل أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مُسَدّسة، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة.ا.هـ.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل: ٦٩].

عِلّة كَوْن العسل فيه شفاء للناس أنْ يأكل النحل من كُلّ الثمرات: ذلك لأن تنوع الثمرات يجعل العسل غنيًّا بالعناصر النافعة، فإذا ما تناوله الإنسان ينصرف كل عنصر منه إلى شيء في الجسم، فيكون فيه الشفاء بإذن الله.

ولكن الآن ماذا حدث؟ نرى بعض الناس يقول: أكلتُ كثيرًا من العسل، ولم أشعر له بفائدة.. نقول: لأننا تدخّلنا في هذه العملية، وأفسدنا الطبيعة التي خلقها الله لنا.. فالأصل أن نتركَ النحل يأكل من كُلّ الثمرات.. ولكن الحاصل أننا نضع له السكر مثلاً بدلاً من الزّهر والنوار الطبيعي، ولذلك تغيّر طَعم العسل، ولم تَعُد له مَيْزته التي ذكرها القرآن الكريم.

لذلك؛ فالمتتبع لأسعار عسل النحل يجد تفاوتًا واضحًا في سعره بين نوع وآخر، ذلك حَسْب جودته ومدى مطابقته للطبيعة التي حكاها القرآن الكريم.

والحق سبحانه يقول: ﴿ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ ﴾.

أي: تنقّلي حُرّة بين الأزهار هنا وهناك؛ ولذلك لا نستطيع أن نبني للنحل بيوتًا يقيم فيها، لابُدّ له من التنقُّل من بستان لآخر، فإذا ما جَفَّتْ الزراعات يتغذّى النحل من عسله، ولكن الناس الآن يأخذون العسل كله لا يتركون له شيئًا، ويضعون مكانه السكر ليتغذّى منه طوال هذه الفترة.

وقوله تعالى: ﴿ ذُلُلًا ۚ ﴾ أي: مُذلَّلة مُمهّدة طيِّعة، فتخرج النحلة تسعى في هذه السبُّل، فلا يردها شيء، ولا يمنعها مانع، تطير هنا وهناك من زهرة لأخرى، وهل رأيت شجرة مثلاً رَدَّت نحلة؟! لا، قد ذَلَّلَ الله لها حياتها ويسَّرها.

﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا ﴾.

ذلك أن النحلة تمتصّ الرحيق من هنا ومن هنا، ثم تتم في بطنها عملية طَهْي ربانية تجعل من هذا الرحيق شَهدًا مُصفًّى؛ لأنه قد يظن أحدهم أنها تأخذ

الرحيق، ثم تتقيؤه كما هو.. فلم يَقُل القرآن: من أفواهها، بل قال: من بطونها.. هذا المعمل الإلهي الذي يعطينا عسلاً فيه شفاء للناس.

﴿ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾.

مادام النحل يأكل من كُلّ الثمرات، والثمرات لها عطاءاتٌ مختلفة باختلاف مادتها، واختلاف ألوانها، واختلاف طُعومها وروائحها.. إذًا لابُدَّ أن يكون شرابًا مختلفًا ألوانه.

﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾[1].

لذلك وجدنا كثيرًا من الأطباء - جزاهم الله خيرًا - يهتمون بعسل النحل، ويُجرون عليه كثيرًا من التجارب لمعرفة قيمته الطبية، لكن يعوق هذه الجهود أنهم لا يجدون العسل الطبيعي كما خلقه الله.

ومع ذلك ومع تدخّل الإنسان في غذاء النحل بقيت فيه فائدة، وبقيت فيه صفة الشفاء، وأهما امتصاص المائية من الجسم، وأيّ ميكروب تريد أن تقضي عليه قُمْ بامتصاص المائية منه يموت فورًا.

فإذا ما توفَّر لنا العسل الطبيعي الذي خلقه الله تجلَّتْ حكمة خالقه فيه بالشفاء، ولكن إذا تدخّل الإنسان في هذه العملية أفسدها.. فالكون كله الذي لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير سَيْرًا مستقيمًا لا يتخلّف، كالشمس والقمر والكواكب.. إلخ إلا الإنسان فهو المخلوق الوحيد الذي يخرج عن منهج الله.

فالشيء الذي لك دَخْلٌ فيه، إما أن تتدخّل فيه بمنهج خالقه أو تتركه؛ لأنك إذا تدخلتَ فيه بمنهج خالقه يعطيك السلامة والخير، وإن تدخلتَ فيه بمنهجك أنت أفسدتَه.

---

(١) قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في «تفسيره» (١٠/ ١٢٣): «قوله تعالى: ﴿فيه شفاء للناس﴾ الضمير للعسل؛ قاله الجمهور. أي في العسل شفاء للناس»ا.هـ.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [البقرة: ١١].

إنهم لا يعرفون.. لا يُفرِّقون بين الفساد والصلاح.

وفي القرآن أمثلة للناس الذين يُفسدون في الأرض ويحسَبون أنهم يُحسِنون صُنْعًا، يقول تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

فالذي اخترع السيارة وهذه الآلات التي تنفث سمومها وتُلوّث البيئة التي خلقها الله.. صحيح وفَّر لنا الوقت والمجهود في الحمل والتنقُّل، ولكن انظر إلى ما أصاب الناس من عَطَبٍ بسبب هذه الآلات.. انظر إلى عوادم السيارات وآثارها على صحة الإنسان.

كان يجب على مخترع هذه الآلات أن يوازنَ بين ما تؤديه من منفعة وما تُسبِّبه من ضرر، وأضف إلى الأضرار الصحية ما يحدث من تصادمات وحوادث مُروِّعة تزهق بسببها الأرواح.. وبالله هل رأيت أن تصادم جملان في يوم من الأيام.. فلابُدَّ إذًا أن نقيسَ المنافع والأضرار قبل أن نُقِدم على الشيء حتى لا نُفسد الطبيعة التي خلقها الله لنا.

وقوله تعالى: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾.

الناس: جَمعٌ مختلفُ الداءات باختلاف الأفراد وتعاطيهم لأسباب الداءات، فكيف يكون في هذا الشراب شفاءٌ لجميع الداءات على اختلاف أنواعها؟

نقول: لأن هذا الشراب الذي أعدَّه الله لنا بقدرته سبحانه جاء مختلفًا ألوانه.. من رحيق مُتعدِّد الأنواع والأشكال والطُّعوم والعناصر.. ليس مزيجًا واحدًا يشربه كل الناس، بل جاء مختلفًا متنوعًا باختلاف الناس، وتنوّع الداءات عندهم.. وكأن كل عنصر منه يُداوي داءً من هذه الدَّاءات.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . ا.هـ.

مزيد بيان:

روى البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن كان في شيءٍ من أدويتكم أو يكون في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم أو شَرْبة عَسَل أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي**».

وروى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كيّة بنار، وأنهى أُمّتي عن الْكَي**».

وروى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يعجبه الحلواء والعسل».

وروى ابن كثير عن عليّ بن أبي طالب ﷺ، أنه قال: «إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحيفة وليغسلها بماء السماء وليأخذ من امرأته درهمًا عن طيب نفس منها فليشتر به عسلاً فليشربه كذلك فإنه شفاء» أي من وجوه. قال الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وقال: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾، وقال: ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾، وقال في العسل: ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾.

قال الموفق البغدادي وغيره في فوائد عسل النحل ما ملخصه: «أنه يجلو الأوساخ التي في العروق والأمعاء، ويدفع الفضلات، ويغسل خمل المعدة ويسخنها تسخينًا معتدلاً، ويفتح أفواه العروق، ويشد المعدة والكبد والكلى والمثانة، وفيه تحليل للرطوبات أكلا وطلاء وتغذية، وفيه تنقية الكبد والصدر، وإدرار البول والطمس، ونفع للسعال الكائن من البلغم ونفع، وإذا أضيف إليه الخل نفع أصحاب الصفراء ثم هو غذاء من الأغذية، ودواء من الأدوية، وشراب من الأشربة.

ومن منافعه أنه إذا شرب حارًا بدهن الورد نفع من نهش الحيوان، وإذا شرب

وحده بماء نفع من عضة الكلب وإذا جعل فيه اللحم الطري حفظ طراوته ثلاثة أشهر، وإن اكتحل به جلا ظُلْمة الْبَصَر، وإن استن به صقل الأسنان وحفظ صحتها، وهو عجيب في حفظ جثث الموتى فلا يسرع إليها الْبِلَى»[(١)].

مِمّا تقدّم في الأحاديث النبوية الشريفة يتبيّن لنا مدى الإشادة بعسل النحل في العلاج، وحصر العلاج في ثلاث، العسل واحد منها، فكأنه يمثل في الصيدلية الإسلامية ثلثها.

وقد عنيت كتب الطب القديم منها والحديث بذكر فوائد عسل النحل العلاجية، وبحسبنا من كتب الطب القديم ما ذكره الموفق البغدادي من فوائد للعسل، تؤكد عناية الإسلام العلاج به في هذه العصور المتقدمة.

وأما كتب الطب الحديث، فتذكر من فوائد العسل الكثير.

جاء في كتاب «العلاج بعسل النحل» ما يفيد أن عسل النحل لفت أنظار الناس من قديم الزمان، وعرفوا قيمته الغذائية وأهميته كدواء.

من أجل هذا فقد تعودوا تناوله كغذاء، والاستشفاء به كدواء.

يقول مترجم الكتاب: «ولقد كان العسل طعامًا مفضلاً لدى كل الناس، وفي كل العصور، فالأهرامات والمسلات، وهي من بقايا قدماء المصريين، تحمل رموزًا هيروغليفية تصف استعمالات العسل كغذاء ودواء.

وفي الأساطير الهندية القديمة يأخذ النحل مكان الشرف، وقديمًا نسب الهنود إلى العسل كثيرًا من الرموز الشفائية والمقوية.

وكان الدواء الذي يسبّب السعادة للناس، ويحفظ الشباب، مصنوعًا من العسل».

وكان ابن سينا ينصح بالعسل لإطالة العمر، وحفظ القدرة على العمل في

---

(١) «فتح الباري» (١٢/ ٢٤٥).

سن متأخرة، وقد اعتاد أن يقول: إذا أردت أن تحتفظ بشبابك فاطعم العسل، وكان يعتقد أن الأشخاص الذين جاوزوا الخامسة والأربعين يجب أن يأكلوا العسل بانتظام، وخصوصًا مع الجوز المسحوق، لأنه غني بالزيت.

[١] علاج الجروح بالعسل:

عالج أحد كبار الجراحين بمستشفى «نورفولك» بإنجلترا، ويدعى ميخائيل بولمان، الجروح بعسل النحل، فنتج عن ذلك سرعة التئام هذه الجروح، وإزالة آثارها دون أن تترك تشوهات.

وذلك أن العسل قاتل للجراثيم، وماص للماء بصورة خاصة، ويظهر فعله هذا بعد تغطية الجرح به بوقت قصير، وذلك بسيلان اللنف الحار الحاصل وأن سرعة نظافة المناطق الملتهبة المتقيحة ملحوظة غالبًا.

كما أن زوال القشور يتم بصورة أسرع مما هو عليه في الأحوال العادية عند استعمال الأدوية الأخرى، حيث إن الضماد العادي الجاف يلتصق على صدور الجرح مما يؤدي إلى الألم الشديد، وكذلك يؤذي السطح الذي ترمم بعض الشيء عند كل غيار للضماد.

وكذلك استعمال الضمادات الرطبة بغير العسل يجعل الأنسجة مغمورة بالسوائل مما يؤخر الشفاء.

والضمادات والمراهم الزيتية على الرغم من خلوها من السيئات السابقة، فإنها تمنع من تصريف المفرزات الناتجة عن الجرح بشكل جيد، مما يؤدي إلى سيلانها إلى المناطق المجاورة من الجلد، وبالتالي التهاب هذه المناطق.

أما الصفات المميزة لاستعمال العسل في علاج الجروح، فإن الضماد يبقى نديًا، ولا يلتصق على سطح الجرح إلا بدرجة زهيدة، وإن امتصاص العسل للماء الذي يسيل من الجرح يجعل المرء يعتقد أن لقيمة العسل الغذائية دورًا موضوعيًا، مساعدًا على ترميم الأنسجة وشفائها.

فالعسل يحتوي على سكر العنب وسكر الفواكه بالإضافة أيضًا لكميات لا بأس بها من المعادن، بما فيها الحديد.

وكذلك الفيتامينات، وخاصة فيتامين «ب»، «ج»، وأن هذه المواد كلها ضرورية للأنسجة السريعة النمو، وأنها إن امتصت موضعيًا تستطيع ولو جزئيًا على الأقل أن تلعب دورًا في التشكل السريع للأنسجة الجديدة المتحجبة السليمة والتي نراها تظهر بالفعل.

وفوق ذلك فإن العسل غير سام وغير مضر، ولا يؤذي الأنسجة، لا موضعيًا ولا بصورة عامة.

ويقول الدكتور الحلوجي: إن وضع الضماد العسلي بعد العملية مباشرة يمنع التوسع أو يعيقه، وليس هناك أي مبررات لتأخير وضع العسل على الجرح بعد العملية مباشرة، بل على النقيض من ذلك فإن أي تأخير لوضع العسل مباشرة بعد العملية إنما هو خطوة للوراء بالنسبة لسرعة الشفاء.

يقول: وعند معالجتي لسطح جرح واسع وجدت الأفضل استعمال عسل سائل أو متميع، والعسل قليل السيولة فيمكن تدفئته ببطء للحصول على الميوعة المطلوبة، ومن الممكن صب العسل على الجرح أو غمس الضماد بالعسل ثم تطبيقه على الجرح حتى تتم تغطية كل سطح الجرح.

هذا ويجب أن يكون العسل نقيًا خاليًا من الشوائب، فقد لاحظت بعد استعمالي للعسل في حالة من الحالات أنه توافق ببعض اللسع أو الحرق ودوام الألم لمدة ساعة، ولم أستطع تعليل هذه الألم، فتوقفت عن استعمال العسل لمدة خمسة عشر يومًا وعدت بعدها لاستعمال العسل ولم يكن الألم موجودًا، وبعد البحث تبين لي أن العسل المستعمل لم يكن من النوع الجيد، فعزوت ذلك الألم لمادة غريبة في العسل.

وقد طبق العسل بعد عملية استئصال ثدي بسبب تسرطنه وتشكل جرح

عميق ومتقرح وتحسن الجرح كان أسرع بكثير بعد تطبيق العسل مما كان عليه قبل تطبيقه.

وأخيرًا فإنه يبدو لي أن من المعقول جدًّا أن أعتبر هذه المادة البسيطة أنجح علاج لكثير من الجروح الملتهبة وحسناتها أنها غير سامة ومعقمة بذاتها وقاتلة للجراثيم ومغذية ورخيصة الثمن وسهلة المنال وسهلة التطبيق، وفوق كل ذلك فإنها دواء فعال. ا.هـ[1].

[٢] علاج العيون بعسل النحل وحميته:

معالجة أمراض العيون بعسل النحل تعود إلى زمن الفراعنة حيث وجدت وثائق تثبت استعمال العسل في معالجة حروق العين، ووجد في بعض المخطوطات الروسية القديمة مقالة تثبت نجاح معالجة أمراض العيون الالتهابية بعسل النحل، ففي عام ١٨٤٦ كتب الأستاذ «هوسر»: أن العسل علاج طيب للالتهابات وخصوصًا التهابات العيون وشرح ذلك بالمثال التالي:

تعثر رجل عمره ٣٣ سنة وهو يحمل وعائين مليئين بالماء الساخن فاحترق بدرجة سيئة أدت إلى أن الجلد على الجانب الأيمن من وجهه تقشر وتورمت أجفان العين اليمنى واستحالت الملتحمة حمراء مؤلمة جدًّا وعلى الجانب الأيمن من العنق وظهرت البثور في عدة أماكن وفي كل مكان آخر تقشر الجلد وكان الكف الأيمن محمرًا جدًّا بكامله، وظهرت البثور في أماكن مختلفة منه، وكان الذراع كذلك محمرًا.

وكان المريض يشعر بآلام فظيعة في الوجه والعين، وكان يشكو من الصداع والطنين في أذنيه، وكان ضعيفًا ونبضه مرتفعًا (٩٥)، وكانت الحروق تغطى بالعسل مرتين في اليوم، وبدأت القشور تبدو عليها، ثم خف الورم من أجفان العين، واستعاد المريض القدرة على فتح وإغلاق عينيه، وأمكن ملاحظة كرة

---

(١) «العلاج بعسل النحل» للدكتور/ محمد الحلوجي (١٠- ١٥).

العين وقد احمرت الملتحمة في ركن منها واستمر العلاج بالعسل، وفي اليوم السادس شفيت كرة العين تمامًا وسقطت القشور والطبقة الحمراء الرفيعة من الجفون، وهبط الورم من الأجفان.

وفي عام ١٨٩٨ ظهر في مجلة «النحال الروسي» مقالاً بإمضاء الدكتور «جيكس» يقول: إن العسل دواء ممتاز لالتهاب العيون.

واليوم لم يفقد العسل أهميته في كثير من الحالات، وبناء على أوامر الطبيب يمكن استعماله بنجاح لعلاج أمراض العيون.

وقد استطاعت الأستاذة «بلت يوفا» من العيادة الخاصة بالمعهد الطبي الثاني بموسكو أن تحصل على نتائج طيبة في علاج التهاب القرنية بالعسل.

ونشرت مؤخرًا مقالة للدكتور «ميخائيليون» عن فعالية العسل باستعماله على شكل مراهم لمعالجة التهاب جفاف الأجفان، والتهاب الملتحمة وقروح الطبقة القرنية.

كما طبق العسل بمفرده لعلاج التهابات القرنية، وفي حروق القرنية، وكانت النتائج طيبة.

هذا وقد استخدم سم النحل في علاج أمراض العيون، وهو علاج شعبي قديم.

والمشاهدات التي أوردتها الدكتورة «شيرشينكايا» تؤكد نجاح المعالجة بلدغ النحل الحي في الحالات المتقدمة.

ولقد أجريت التجارب على تأثير سم النحل في عدد من أمراض العيون، بذلت فيها جهود كبيرة لإيجاد طريقة مبسطة لاستعمال سم النحل بدلاً من اللدغ المباشر، بسبب الصعوبات الفنية التي تعترضها، والأعراض القاسية التي يحتمل ظهورها عند المريض في حالة استخدام النحل الحي.

وقد توصلت النتائج إلى حقن سم النحل تحت الجلد، أو إدخاله تحت الجسم

بواسطة التشريد الكهربائي، أو أن يطبق على الجلد على شكل مراهم.

وأتى كل هذا بنتائج ممتازة[1].

[٣] العسل كمطهر للأمعاء:

ذكرنا فيما سبق حديث رسول الله ﷺ الذي وصف فيه العسل لعلاج الرجل الذي استطلق بطنه.

ويؤكد العلم الحديث ذلك، فيقرر أن عسل النحل من الملينات القوية المفعول، ومن أهم المطهرات للأمعاء والمعدة، وذلك لاحتوائه على الحديد والمنجنيز اللذين يساعدان على الهضم والتمثيل. كما أنه علاج ناجح للإمساك، لاحتوائه على طاقة حرارية عالية، كما أنه ينشط الكبد، وكل هذا يساعد الجسم على التخلص من النفايات الضارة[2].

ويقول الأستاذ محمد عبد الحميد البوشي: الناظر في هذا الحديث يرى فيه أنه:

١- يثبت بجلاء قوة مفعول عمل عسل النحل كعلاج.

٢- أن الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية خاصة بحسب قوة المرض وضعفه، فاعتبار قوةِ المرض والمريض، وتقارير الأدوية وكيفياتها من أكبر قواعد الطب.

٣- أن الدواء لا يحدث أثره المطلوب إلا بعد أن يتكرر[3].

وفي ذلك يقول ابن القيم: في تكرار سقيه العسل معنى طبي بديع، هو أن

---

(١) «العلاج بعسل النحل» (١٣٧، ١٣٨، ٢٣٨)، و«مجلة العلم» (ص ٢٦)، العدد الخامس والعشرون، مارس سنة ١٩٧٨م.

(٢) «العلاج بعسل النحل» (١٢٥، ١٢٦).

(٣) «الإسلام والطب» (٩١).

الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية حسب حال المريض والمرض.

ذلك أن الدواء إن قصر عن حال المرض لم يزله بالكلية، وإن جاوزه أوهن القوى فأحدث ضررًا آخر.

فلما أمره الرسول ﷺ أن يسقيه العسل فسقاه مقدارًا لا يفي بمقاومة الداء، فلما تكرر الشرب برئ بإذن الله.

وفي قوله ﷺ: «**صدق الله وكذب بطن أخيك**» إشارة إلى تحقيق نفع هذا الدواء، وأن بقاء الداء ليس لقصور هذا الدواء في نفسه، ولكن لقلة الدواء بالنسبة للمرض، وكثرة المادة الفاسدة في بطن المريض[1].

هذا ولقد انتقد بعض الأطباء رسول الله ﷺ في وصفه العسل للذي عنده إسهال، والعسل مسهل، وقالوا: كيف يعطي لمن يشكو الإسهال؟

ويرد عليهم الدكتور سالم محمد في مجلة «الدكتور» تحت عنوان: «صحتك من أدب القرآن» بقوله: الرد على ذلك بسيط، وهو أن الطب الحديث يعطي في النزلات المعوية والقولونية والديسنتاريا وبعض حالات الإسهال مسهلات ملحية، لتساعد على طرد العفونة وتنظيف الأمعاء[2].

هذا والعسل أسهل الأغذية هضمًا وتمثيلاً بالجسم، حيث إن السكريات الأخرى تتحول أولاً في المعدة إلى سكر الفواكه، ثم تذهب إلى الكبد، أما العسل فإنه يذهب إلى الكبد مباشرة.

وصدق الله العظيم: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٧٤).

(٢) «مجلة الدكتور» (ص٨٠)، العدد السابع والعشرون، سنة ١٩٤٩م، وانظر: «عناية الإسلام بالصّحة البدنية» للسيدة كاملة الأنوار محمد صابر حجاب (٢٠٣ - ٢٠٦) باختصار.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «إن كان في شيءٍ من أدويتكم أو يكون في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم أو شَرْبة عَسَل أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي».



اللَّبَنُ .. من دلائل القُدْرة

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النحل: ٦٦].

المقصود بالأنعام: الإبل والبقر والغنم والماعز، وقد ذُكِرت في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤]. وهذه هي الأنعام.

وقوله سبحانه: ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ العِبرة: الشيء الذي تعتبرون به، وتستنتجون منه ما يدلكم على قدرة الصانع الحكيم سبحانه وتعالى، وتأخذون من هذه الأشياء دليلاً على صِدق منهجه سبحانه فتصدقونه.

ومن معاني العبرة: العبور والانتقال من شيء لآخر.. أي: أن تأخذ من شيء عبرة تفيد في شيء آخر، ومنها العَبْرة «الدمعة»، وهي: شيء دفين نبهتَ عنه وأظهرتَهُ.

والمراد بالعبرة في خلق الأنعام: ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾.

مادة: سقى جاءت في القرآن مرة «سقى». ومرة «أسقى»، وبعضهم قال: إن معناهما واحد، ولكن التحقيق أن لكل منهما معنًى، وإن اتفقا في المعنى العام.

«سقى»: كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: ٢١].

أي: أعطاهم ما يشربونه.. ومضارعه يَسقي. ومنها قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ [القصص: ٢٤].

أما أسقى: كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ

أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢].

فمعناه أنه سبحانه أنزل الماء من السماء لا يشربه الناس في حال نزوله، ولكن ليكون في الأرض لمن أراد أن يشربَ.. فالحق تبارك وتعالى لم يفتح أفواه الناس أثناء نزول المطر ليشربوا منه.. لا، بل هو مخزون في الأرض لمن أراده. والمضارع من أسقى: يُسقى.

إذًا هناك فَرق بين الكلمتين، وإن اتفقتا في المعنى العام.. وفرق بين أن تُعطي ما يُستفَادُ منه في ساعته، مثل قوله: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾.

وبين أن تعطي ما يمكن الاستفادة منه فيما بعد كما في قوله: ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ ﴾.

لذلك يقولون: إن الذي يصنع الخير قد يصنعه عاجلاً، فيعطي المحتاج مثلاً رغيفًا يأكله، وقد يصنعه مُؤجّلاً فيعطيه ما يساعده على الكسب الدائم ليأكل هو متى يشاء من كسبه.

وقوله: ﴿ مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ ﴾ أي: مما في بطون الأنعام، فقد ذكر الضمير في ﴿ بُطُونِهِۦ ﴾ باعتبار إرادة الجنس.

وقد أراد الحق سبحانه أن يخرج هذا اللبن.

﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾.

والفَرث في كرش الحيوان من فضلات طعامه.

فالعبرة هنا أن الله تعالى أعطانا من بين الفَرث، وهو رَوَثُ الأنعام وبقايا الطعام في كرشها، وهذا له رائحة كريهة، وشكل قذر مُنفّر، ومن بين دم، والدم له لونه الأحمر، وهو أيضًا غير مُستساغ؛ ومنهما يُخرِج لنا الخالق سبحانه لبنًا خالصًا من الشوائب نقيًا سليمًا من لون الدم ورائحة الفَرث.

ومَن يقدر على ذلك إلا الخالق سبحانه؟

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله واصفًا هذا اللبن: ﴿ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾.

أي: يسيغه شاربه ويستلذّ به، ولا يُغَصُّ به شاربه، بل هو مُستساغ سَهل الانزلاق أثناء الشُّرب؛ لأن من الطعام أو الشراب ما يحلو لك ويسُوغ وتهنأ به، ولكنه قد لا يكون مريئًا.

ولذلك، فالحق سبحانه يقول: ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء: ٤].

﴿ هَنِيٓـًٔا ﴾ أي: تستلذّون به، ومريئًا: أي نافعًا للجسم، يمري عليك، لأنك قد تجد لذة في شيء أثناء أكله أو شربه، ثم يسبِّب لك متاعب فيما بَعد، فهو هَنِيءٌ ولكنه غير مَرِيء.

فاللبن من نِعَم الله الدالة على قدرته سبحانه، وفي إخراجه بين فَرْث ودم عبرة وعِظَة، وكأن الحق سبحانه يعطينا هذه العبرة لينقلنا من المعنى الحسيِّ الذي نشاهده إلى المعنى القيميّ في المنهج، فالذي صنع لنا هذه العبرة لإصلاح قالبنا قادرٌ على أن يصنعَ لنا من المنهج ما يُصلح قلوبنا.



السُفَهاءُ .. وتَحويلُ القِبْلَة

ممّا يدل على أن القرآن نزل من عند الله تعالى، قولُ الحق - سبحانه - : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية: «هذه الآية نزلت لتصفي مسألة توجه محمد ﷺ والمؤمنين إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس.. وهذا أول نسخ في القرآن الكريم.. يريد الله سبحانه وتعالى أن يعطيه العناية اللائقة.. لأنه سيكون مثار تشكيك وجدل عنيف من كل من يعادي الإسلام.. فكفار قريش سيأخذون منه ذريعة للتشكيك وكذلك المنافقون واليهود.

الله تبارك وتعالى يريد أن يحدد المسألة قبل أن تتم هذه التشكيكات.. فيقول جل جلاله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ﴾.

حرف السين هنا يؤكد أنهم لم يقولوا بعد.. ولذلك قال سبحانه: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ فقبل أن يتم تحويل القبلة قال الحق تعالى أن هذه العملية ستحدث هزة عنيفة يستغلها المشككون.

ورغم أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ .. أي أنهم لم يقولوها إلا بعد أن نزلت هذه الآية.. مما يدل على أنهم سفهاء حقًا.. لأن الله جل جلاله أخبر رسوله ﷺ في قرآن يتلى ويصلَّى به ولا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة.. قال: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

فلو أنهم امتنعوا عن القول ولم يعلقوا على تحويل القبلة لكان ذلك تشكيكًا في القرآن الكريم.. لأنهم في هذه الحالة كانوا يستطيعون أن يقولوا إن قرآنًا أنزله الله على رسوله ﷺ لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة. قال: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ

﴿ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ .. ولم يقل أحد شيئًا.

ولكن لأنهم سفهاء فعلاً.. والسفه جهل وحمق وطيش قالوها.. فكانوا وهم الكافرون بالقرآن الذين يريدون هدم هذا الدين من المثبتين للإيمان الذين تشهد أعمالهم بصدق القرآن.

لأن الله سبحانه قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ وهم قالوا فعلاً..

ولقد قال كفار مكة عن الكعبة إنها بيتنا وبيت آبائنا وليست بيت الله.. فصرف الله رسوله في أول الإسلام ووجهه إلى بيت المقدس.. وعندئذ قال اليهود يسفه ديننا ويتبع قبلتنا.. والله سبحانه وتعالى أراد أن يحتوي الإسلام كل دين قبله فتكون القداسة للكل.. ولذلك أسرى برسوله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس.. حتى يدخل بيت المقدس في مقدسات الإسلام لأنه أصبح محتوى في الإسلام.

ولم يشأ الله أن يجعل القبلة إلى الكعبة أول الأمر لأنهم كانوا يقدسونها على أنها بيت العرب وكانوا يضعون فيها أصنامهم.. ووضع الأصنام في الكعبة شهادة بأن لها قداسة في ذاتها.. فالقداسة لم تأت بأصنامهم بل هم أرادوا أن يحموا هذه الأصنام فوضعوها في الكعبة.. لماذا لم يضعوها في مكان آخر؟ لأن الكعبة مقدسة بدون أصنام.

والله سبحانه وتعالى حين قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ .. «وَلاه» يعني: حرفه ورده.. والقبلة التي كانوا عليها هي: بيت المقدس.

وهنا يأتي الحق برد جامع هو أن أوامر الله الإيمانية لا ترتبط بالعلة.. إنما علة التنفيذ فيما يأمرنا الله سبحانه به جل جلاله أن الله هو الآمر.. ولو أن الحق تبارك وتعالى بيّن لنا السبب أو العلة في تغيير القبلة لما كان الأمر امتحانًا للإيمان في

القلوب.. لأن الإيمان والعبادة هي طاعة معبود فيما يأمر وما ينهَى..

يقول الله لك: عظّم هذا الحجر وهو الحجر الأسود الموجود في الكعبة وتعظمه بالاستلام والتقبيل.

ويقول لك: هذا الحجر الذي يرمز إلى إبليس فترجمه بالحصى ولا يقول الله سبحانه لماذا؟ لأنه لو قال لماذا ضاع الإيمان هنا وأصبح الأمر مسألة إقناع واقتناع.

فأنا حين أقول لك لا تأكل هذا لأنه مر وكل هذا لأنه حلو يكون السبب واضحًا.. ولكن الله تبارك وتعالى يقول لك: كل هذا ولا تأكل هذا.. فإن أكلت مما حرمه الله تكون آثمًا.. وإن امتنعت تكون طائعًا وتثاب.

إذًا العلة الإيمانية هي أن الأمر صادر من الله سبحانه. ولو أنك امتنعت عن شرب الخمر لأنها ضارة بالصحة أو تفسد الكبد فلا ثواب لك، ولو امتنعت عن أكل لحم الخنزير لأن فيه كمية كبيرة من الكولسترول وله مضار كثيرة فلا ثواب لك.. ولكنك لو امتنعت عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير لأن الله حرمهما.. فهذه هي العبادة وهذا هو الثواب.

الله سبحانه وتعالى أراد أن يرد على هؤلاء السفهاء فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي أنك إذا اتجهت إلى بيت المقدس أو اتجهت إلى الكعبة أو اتجهت إلى أي مكان في هذا الكون فالله موجود فيه.. فبيت المقدس ليس له خصوصية بذاته، والكعبة ليس لها خصوصية بذاتها.. ولكن أمر الله تبارك وتعالى هو الذي يعطيهما هذه الخصوصية.. فإذا اتجهنا إلى بيت المقدس فنحن نتجه إليه طاعة لأمر الله.

فإذا قال الله سبحانه اتجهوا إلى الكعبة اتجهنا إليها طاعة لأمر الله.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الصراط هو الطريق المستقيم لا التواء فيه بحيث يكون أقرب المسافات إلى الهدف.. والله سبحانه وجهنا لبيت المقدس فهو صراط مستقيم نتبعه.. وجهنا إلى الكعبة فهو صراط مستقيم نتبعه.. فالأمر لله.



مِنْ دلائِل القُدْرة

قال الإمام الشعرواي - رحمه الله تعالى - : وهناك فرق بين عطاء الأسباب وبين عطاء المُسبّب. فلو ظل عطاء الأسباب هو المُتحكّم في نواميس الكون، لكان معنى هذا أن الحق سبحانه قد زاول سلطانه في مُلْكه مرة واحدة، وكأنه خلق الأسباب والنواميس وتركها تتحكم ونقول: لا. فبطلاقة القدرة خلقت الأسباب، وهي تأتي لتثبيت ذاتية القدرة وقيّوميّتها، فيقول الحق حينما يشاء: توقفي يا أسباب.

إذًا فهناك أسباب وهناك مُسبّب. والأمر العجيب لا تعطيه الأسباب. وحين لا يعطى السبب يتعجب الإنسان، ولذلك يَرُدّ الأمر إلى الأصل الذي لا يتعجب منه. وها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما جاءه الضيوف وقدم لهم الطعام ورأى أيديهم لا تصل إليه نكرهَم ونفر منهم ولم يأنس إليهم وأوجس منهم خِيفة.

ويقول الحق عن هذا الموقف: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٨، ٢٩].

وقال الحق أيضًا في هذا الموقف: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾[هود: ٧١].

وهنا قالت امرأة سيدنا إبراهيم: ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].

أي أن الأسباب لا تعطى، ورُدّت إلى المُسبّب ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٧٣]؟ كان لك أن تتعجبي من الأسباب لأنها تعطلت، أما حين تصل الأسباب إلى الله، فلا عجب.

وقال سيدنا زكريا عليه السلام مثل قولها، فحين رأى السيدة مريم وهو الذي

كَفلها، وكان يجيء لها بمطلوبات مقومات حياتها، وفُوجئ بأن عندها رزقًا من طعامٍ وفاكهة. فسألها: ﴿ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ﴾ [آل عمران: ٣٧].

كيف يقول لها ذلك؟ لابد أنه رأى شيئًا عندها لم يأتِ هُو به، وهنا ردَّت عجبه لتنبهه بالحقيقة الخالدة: ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ويشاء الحق أن تقولها سيدتنا مريم وهي صغيرة السن، وكأنها تقول ذلك كتمهيد؛ لأنها - كما قلنا سابقا - ستتعرض لمسألة لا يمكن أن يحلها إلا المُسبِّب، فسوف تلدِ بدون رُجولة، وهي مسألة عجيبة، لذلك كان لابد أن تفهم هي وأن تنطق: ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

وكأن الحق ينبئها ضمنًا بأن عليها أن تتذكّر أنها هي التي قالت هذه الكلمة؛ لأن المستقبل سوف يأتي لك بأحداث تحتاج إلى تذكُر هذا القول. وهي التي تُذكِرّ سيدنا زكريا عليه السلام بهذه الحقيقة. ولنر دِقّة إشارة القرآن إلى الموقع الذي ذكرت له مريم فيه تلك الحقيقة: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾[آل عمران: ٣٨].

كأن ساعة سمع هذه المسألة قرّر أن يدعو الله بأمنيته في المحراب نفسه. وهل كان سيدنا زكريا لا يعرف تلك الحقيقة؟ كان يعرفها، ولكن هناك فرق بين حكم يكون في حاشية الشعور، وبين حكم يكون في بؤرة الشعور.

وقول مريم لزكريا: ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ جعل القضية تنتقل من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور.

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾ لماذا لم يدعُ ربَّه من البداية؟ كان سيدنا زكريا سائرًا مع الأسباب ورتابة الأسباب قد تذهل وتَشغل عن المُسبِّب، وعندما سمع من مريم: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أراد أن يدخل من هذا الباب، فدعا ربه؛ وبشّره الحق بأنه سيأتي له بذرّية، وتعجّب زكريا مرّة أخرى من هذا الأمر شارحًا حالته: ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾[آل عمران: ٤٠].

ومادمت يا زكريا قد دعوت الله أن يهبك الذُرّية وقفزت قضية رزق الله لمن

يشاء من حاشية شعورك إلى بؤرة شعورك. فقد جاء أمر الله: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾ [مريم: ٩].

إذًا فلا بحث في الأسباب والمسببات. فهي إرادة الله. ويوضح الحق حيثّيات: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ويأتيك بالولد؛ فيقول سبحانه: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٩].

وكل هذه مقدمات من مريم ومن سيدنا زكريا الكفيل لها؛ ذلك أن سيدنا زكريا سوف يكون عنصرًا شاهدًا عندما يأتيها الولد من غير أب وتلد، وهو كفيل لها، وهو الذي سيتعرض لهذا الأمر.

ولماذا كل هذا التمهيد؟ لأن خرق الأسباب وخرق النواميس وخرق السُنن إنما حدث في أمور أخرى غير العِرْض، لكن عند مريم سيكون ذلك في العِرض وهو أقدس شيء بالنسبة للمرأة، لذلك لابد من كل هذه التمهيدات. إذن، هو أمر عجيب لكنه ليس بعجيب على الله.



وَيَعْلَمُ ما في الأَرْحام

قال الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله - : يقول الحق سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾.

ويأتي العلم الحديث بالبحث والتحليل، ويقول بعض السطحيين: لا، إن العلم يعرف ما في الرّحم من ذكر أو أنثى.

ونقول: نحن لا نناقش ذلك؛ لأنها حقيقة كونية وهي لا تتصادم مع الفهم الصحيح للحقيقة القرآنية؛ لكننا نسأل: متى يعرف العلماء ذلك؟

هم لا يعرفون هذا الأمر إلا بعد مُضي مُدة زمنية، ولكن الحق يعلمه قبل مرور أية مدة زمنية.

ثم مَن قال: إن الحق يقصد بـ ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ ذكرًا أو أنثى فحسب؟! وهل لمدلولها وجه واحد؟

لا، بل له وجوه متعددة فلن يعرف أحد أن ما في الرحم سيكون من بعد إنسانًا طويلاً أو قصيرًا؛ ذكيًا أو غبيًّا؛ شقيًّا أو سعيدًا؛ طويل العمر أو قصير العمر؛ حليمًا أو غضوبًا. فلما نحصر ﴿مَا﴾ في مسألة الذكر والأنثى فقط؟!

إنه هو سبحانه يعلم المستقبل أزلاً قبل أن يعلم أي عالم وقبل أن يحصل العالم على أية عينة. ثم هل تذهب كل حامل إلى الطبيب ليفحص معمليًا ما الذي تحمله في بطنها؟ طبعًا لا، ونحن لا نعلم ماذا في بطنها ولكن الخالق الأعظم يعلم. ثم هل تذهب كل النساء الحوامل في العالم لطبيب واحد؟ بالطبع لا، ولكن الخالق

الأعظم يعلم ما في كل الأرحام.

إذًا فالحقيقة القرآنية لم تصطدم بأية حقيقة كونية، لكن الصدام يحدث عندما نفهم فهما خطأ أن الحقيقة القرآنية في قوله الحق: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ﴾ مقصود به العلم بالذكر والأنثى فقط[1].

ومثال آخر، يقول الحق: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾ [الحجر: ١٩].

ويُخطئ البعض الفهم عن الله فيظن أن المقصود بذلك أن الأرض بساط أمام الإنسان، وقد ثبت للبشر حقيقة كونية هي أن الأرض كروية بالأدلة خلال رحلة «ماجلان» ثم بالقواعد الخاصة بوضع الأعمدة؛ وظهور أعالي الأشياء قبل أسافلها وغير ذلك، ثم صارت في عصرنا مُشاهدة من الأقمار الصناعية.

إذًا هذه الحقيقة الكونية لا كلام فيها، وكان الخطأ هو فهم مدلول الحقيقة القرآنية والفهم الصواب في مدلول الحقيقة القرآنية الخاصة بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾ ؛ إننا كلما وقفنا في مكان نجد أرضا، أي أن الأرض لا نهاية لها وليس لها حافة.

إذًا فسبحانه قد مد الأرض أمام الإنسان بحيث إذا سار الإنسان في أي اتجاه؛ يجد أرضًا. ولا يتأتى ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية. لهذا كان الخطأ في فهم مدلول الحقيقة القرآنية؛ لأن التضارب إنما ينشأ من فهم أنها حقيقة كونية وهي ليست كذلك، أو من فهم أنها حقيقة قرآنية على نحو خاطئ، إنهما لا تتعارضان، فالقائل هو الخالق عينه. ولهذا عرفنا متأخرًا أن الجو من الأرض وأن الغلاف الجوي يدور مع الأرض، وكنا نقول: سرنا على الأرض، لكنه سبحانه قال وهو العليم: ﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١١].

---

(١) عن ابن عمر، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾**» رواه أحمد والبخاري.

وهو سبحانه علم أزلاً أن الجو جزء من الأرض. فمهما سار الإنسان على اليابسة ففوقه الغلاف الجوي. إذًا فالإنسان إنما يمشي في الأرض وليس على الأرض. أما إن سار الإنسان فوق الغلاف الجوي فهو يسير فوق الأرض.



الحِكْمَةُ من تَحريم بَعْضِ المطعومات

يبيّن الحقُّ - سبحانه - بالقرآن ما يحرِّمه من المطعومات، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣].

قال الإمام الشعراوي -رحمه الله تعالى- في خواطره حول هذه الآية: الآية تبدأ بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ ونلحظ أن البداية فعل مبني للمجهول، على الرغم من أن الفاعل في التحريم واضح وهو الله، ولم يقتحم سبحانه على أحد، فالإنسان نفسه اشترك في العقد الإيماني مع ربَّه فألزمه - سبحانه - والعبد من جانبه التزم؛ لذلك يقول الحق: ﴿حُرِّمَتْ﴾ حرمها سبحانه كإله وشاركه في ذلك العبد الذي آمن بالله إلهًا.

والميتة: هي التي ذهبت منها الحياة أو خرجت منها الروح بدون نقض للبنية، أي ماتت حتف أنفها، فذهاب الحياة له طريقان: طريق هو الموت أي بدون نقض بنية، وطريق بنقض البنية؛ فعندما يخنق الإنسان كائنًا آخر يمنع عنه النفس وفي هذا إزهاق للروح بنقض شيء من البنية؛ لأن التنفس أمر ضروري، وقد يزهق الإنسان روحًا آخر يضربه بالرصاص؛ لأن الروح لا تحل إلا في جسد له مواصفات خاصة.

لكن هناك جوارح يمكن أن تبقى الروح في الجسم دونها، والمثال على ذلك اليد إن قطعت، أما إن توقف قلب الإنسان فقد يشقون صدره ويدلكون هذا القلب فينبض مرة أخرى بشرط أن يكون المخ مازال حيًا، وأقصى مدة لحياة المخ

دون هواء سبع دقائق في حالات نادرة. فما أن يصاب المخ بالعطب حتى يحدث الموت. ولذلك عرف الأطباء الموت الإكلينيكي بأنه توقف المخ.. إذًا فهناك موت، وهناك قتل، وفي كليهما ذهاب للروح.

وفي الموت تذهب الروح أولاً، وفي القتل تذهب الروح بسبب نقض البنية، والميتة هي التي ذهبت منها الحياة بدون نقض البنية، ومن رحمة الله أن حرم الميتة؛ لأنها ماتت بسبب لا نراه في عضو من أعضائها، حتى لا نأكلها بدائها.

وكذلك حرم الدم، وهو السائل الذي يجري في الأوردة والشرايين ويعطي الجسم الدفء والحرارة وينقل الغذاء، وللدم مجالان في الجريان؛ فهو يحمل الفضلات من الكلى والرئة، وهناك دم نقي يحمل الغذاء، والأوعية الدموية بها لونان من الدم: دم فاسد ودم صالح، وعندما نأخذ هذا الدم قد يكون فيه النوع الصالح ويكون فيه أيضًا النوع الذي لم تخرج منه الشوائب التي في الكلى والرئة، ولذلك يسمونه الدم المسفوح، أي الجاري؛ وكانوا يأخذونه قديمًا ويملأون به أمعاء الذبائح ويقومون بشيه ويأكلونه.

وهناك دم غير فاسد، مثال ذلك الكبد، فهو قطعة متوحدة، وكذلك الطحال، والنبي ﷺ قال: «**أُحلت لكم ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالسمك والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال**»[1].

إذًا فالكبد والطحال مستثنيان من الدم، لكن إذا جئنا للدم المسفوح فهو حرام، والحكمة في تحليل السمك والجراد هي عدم وجود نفس سائلة بهما، فليس في لحمهما دم سائل، وعندما نقطع سمكة كبيرة لا ينزل منها دم، بل يوجد فقط عند الأغشية التي في الرأس ولا يوجد في شعيراته، وعندما يموت السمك ويؤكل فلا خطر منه، وكذلك الجراد.

ويأتي بعد ذلك في سلسلة المحرمات ﴿ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ ولا يقولن مؤمن: لماذا حرم الله لحم الخنزير؟ لقد ذهب العلم إلى كل مبحث ليعرف لماذا حرم الله الميتة

(١) **إسناده صحيح**: رواه أحمد وابن ماجه والدارقطني.

وكذلك الدم حتى عرف العلماء أن الله لا يريد أن ينقل داء من حيوان ميت إلى الإنسان، وكذلك حرم الله الدم لأن به فضلات سامة «كالبولينا» وغيرها.

ولكل تحريم حكمة قد تكون ظاهرة، وقد تكون خافية، فالقرآن قد نزل على رسول أمي في أمة أمية لا تعرف المسائل العلمية الشديدة التعقيد، وطبق المؤمنون الأوائل تعاليم القرآن لأن الله الذي آمنا به إلهًا حكيمًا هو قائلها، وهو يريد صيانة صنعته؛ وكل صانع من البشر يضع قواعد صيانة ما صنع. ولم نجد صانع أثاث - مثلاً - يحطم دولاب ملابس، بل نجده باذلا الجهد ليجمل الصنعة، ومادام الله هو الذي خلقنا وآمنا به إلهًا؛ فلابد لنا أن ننفذ ما يأمرنا به، وأن نتجنب ما نهانا عنه، ولا يمنع ذلك أن نتلمس أسباب العلم، رغبة في ازدياد أسباب الإيمان بالله ومن أجل أن نرد على أي فضولي مجادل، على الرغم من أنه ليس من حق أحد أن يجادل في دين الله؛ لأن الذي يرغب في الجدال فليجادل في القمة أولاً؛ وهي وجود الله، وفي البلاغ عن الله بواسطة الرسول؛ فإن اقتنع، فعليه أن يطبق ما قاله الله.

فالدين لا يمكن أن نبحثه من أذنابه، ولكن يبحث الدين من قمته. ونحن ننفذ أوامر الله، ولذلك نجد أول حكم يأتي لم يقل الحق فيه: «يا أيها الناس كتب عليكم كذا..» ، ولكن سبحانه يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي يا من آمنت بي خذ الحكم مني.

وأكرر المثل الذي ضربته سابقًا: أثمن ما عند الإنسان صحته، فإذا تعرضت صحته للاختلال فهو يدرس الأسباب؛ إن كان يرهقه الطعام يختار طبيبًا على درجة علم عالية في الجهاز الهضمي، ويكتب الطبيب الدواء، ولا يقول المريض للطبيب: أنا لن أتناول هذا الدواء إلا إذا قلت لي لماذا وماذا سيفعل هذا الدواء.

إذًا فالعقل مهمته أن ينتهي إلى الطبيب الذي اقتنع به، وما كتبه الطبيب من تعاليم فعليك تنفيذها، وكذلك الإيمان بالله، فمادام الإنسان قد آمن بالله إلهًا فعليه أن ينفذ الأوامر في حركة الحياة بـ «افعل ولا تفعل» والمريض لا يناقش طبيبًا،

فكيف يناقش أي إنسان ربه: «لِمَ كتبت عليّ هذا؟».

والطبيب من البشر قد يخطئ، وقد يتسبب في موت مريض، وعندما نشك في قدرة طبيب ما نستدعي عددًا من الأطباء لاستشارة كبيرة. وننفذ أوامر الأطباء، ولا يجرؤ أحد أن يناقش الله سبحانه وتعالى بل نقول: كل أوامرك مطاعة.

إننا ننفذ أوامر الأطباء فكيف لا ننفذ أوامر الله؟ إن الإنسان يضع ثقته في البشر الخطائين، ولا يمكن - إذًا - أن تعلو على الثقة في رب السماء؛ لذلك فالعاقلون هم الذين أخذوا أوامر الله وطبقوها دون مناقشة؛ لأن العقل كالمطية يوصل الإنسان إلى عتبة السلطان، ولكن لا يدخل معك عليه، وحين تسمع من الله فأنت تنفذ ما أمر به.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ وقد أثبتت التحليلات أن بلحم الخنزير دودة شريطية[1] ودودة حلزونية وعددًا آخر من الديدان التي لا يقهرها علاج.

والمحرمات من بعد ذلك، ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ أي رفع الصوت به لغير الله كقولهم: «باسم اللات والعزى» عند ذبحه، ولا يقال عند ذبحه: «الله أكبر بسم الله»؛ لأن الإنسان منتفع في الكون الذي يعيش فيه بالأجناس التي طرأ عليها، لقد وجد الإنسان هذه الأجناس في انتظاره لتخدمه لأنه خليفة الله في الأرض، والحيوان له روح ولكنه يقل عن الإنسان بالتفكير، والنبات تحت الحيوان، والجماد أقل من النبات. وساعة يأخذ الإنسان خدمة هذه المسخرات، فعليه أن يذكر الخالق المنعم، وعندما يذبح الإنسان حيوانًا، فهو يذبحه بإذن

---

(١) يتراوح طول الدودة الشريطية من ستة إلى ثمانية أمتار، بها قرابة (٨٠٠) ثمانمائة أسلة أو قطعة، وهذه الدودة لها رأس به أربع ممصّات، وصفّان من الأشواك الكلابية يبلغ عددها من ٢٢: ٣٢ شوكة، وتقبع اليرقة في عضلات الخنزير، وتنتقل للإنسان خلال الغذاء به، وحين يبلغ الإنسان البيضة تتحرّر اليرقة في الأمعاء والتي تذيب صدفية البويضة العصارة المعدية ثم يختزن مخاطية الأمعاء وتسري في الدم، وقد تصل إلى المخ وتتحوصل هناك، ومن ثم تصيب الشخص بتشنج عصبي ونوبات صرع.

الأكبر من الإنسان والحيوان والكون كله، يذبح باسم الخالق.

إن هناك من ينظر إلى اللحم قائلاً: أنا لا آكل لحم الحيوانات لأني لا أحب الذبح للحيوان شفقة ورحمة، لكن آكل النبات. ونقول: لو أدركت ما في النبات من حياة أكنت تمتنع عن أكله؟! لقد ثبت في عصرنا أن للنبات حياة، بل وللجماد حياة أيضًا؛ لأنك عندما تفتت حصوة من الصوان أو أي نوع من الأحجار، فأنت تعاند بدقات المطرقة ما في تلك الحصوة من تعانق الجزيئات المتماسكة، وقد تفعل ذلك وأنت لا تدري أن فيها حياة.

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والصالحون من عباد الله يعرفون ذلك ويديرون أعمالهم وتعاملهم مع ما سواهم من المخلوقات جميعًا - حيوان أو جماد - على أنها مسبّحة لذلك لا يمتهنون الأشياء ولا يحتقرونها مهما دقت وحقرت وإنما يتلطفون معها حتى لو ذبحوا حيوانًا فإنهم يرحمون ذلك الحيوان فلا يشحذون ولا يسنون السكين أمامه ولا يذبحون حيوانًا أمام حيوان آخر فضلاً على أنهم يطعمون ويسقون ما يريدون ذبحه لأنهم يعلمون أنه مسبح ولكنهم فعلوا فيه ما فعلوا لأن الله أباح لهم ذلك ليستديموا حياتهم بأكله فهم أهل تكليف من الله أما ما عداهم فهم أهل تسخير.

﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ تشرح لنا أن الحق هو الذي حلل لنا أن نأكل من الذي له حس وحركة، فالحيوان الذي يتطامن للإنسان فيذبحه، ولابد للإنسان أن يعرف الشكر لواهب النعمة، فـ«بسم الله الله أكبر» تؤكد أنك لم تذبحه إلا باسم من أحله لك.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يس: ٧١، ٧٢].

إذًا فالأكل من ضمن التذليل، وعندما تذبح الحيوان لابد أن تذكر من ذلل لك ذلك، ويحرم الحق أكل المنخنقة، أي: الحيوان الذي مات خنقًا؛ لأن قوام

الحياة ثلاثة: طعام، وشراب، وهواء، وهذا من حكمة الخالق الذي خلق الصنعة ورتب الأمر حسب الأهم والمهم، فالإنسان قد يصبر على الجوع إلى ثلاثين يومًا؛ لأن ربنا سبحانه وتعالى قدر لك - أيها الإنسان - ظروف الأغيار، فجعل في جسمك مخزونًا لزمن قد تجوع فيه، وجعل للإنسان شهوة إلى الطعام، وغالبًا لا يأكل الإنسان ليسد الرمق فقط، ولكن بشهوة في الأكل.

إن ربنا يوضح لنا: أنا أحترم شهوتك للطعام، ولتأخذ حركتُك الضروري لها من الطاقة، والزائد سيُخزن في الجسم كدهون ولحم، فإن جاء يوم لا تجد فيه طعامًا أخذت من الدهون المخزونة طاقة لك. وهذه من دقة الصنعة، وإن قارنتها بسيارة صنعها الإنسان إذا ما فرغ منها الوقود فإنها تقف ولا تسير، أما صنعة الخالق فهي لا تقف إن توقف الطعام بل تستمر إلى ثلاثين يومًا، وربما حن على الإنسان قلب إنسان آخر فأحضر له الطعام، وربما احتال الإنسان ليخرج من مأزق عدم وجود الطعام.

إن المرأة العربية وصفت الشدة والعوز فقالت: «سنة أذابت الشحم، وسنة أذهبت اللحم، وسنة محت العظم» أي أن الأمر درجات، فالإنسان يتغذى من دهنه ثم من لحمه ثم من عظامه، ويصبر الإنسان على الماء مدة تتراوح ما بين ثلاثة وعشرة أيام حسب كمية المياه المخزونة في الجسم. أما الهواء فلا يصبر عنه الإنسان إلا بمقدار الشهيق والزفير، فإن حُبس الهواء عن الإنسان مات. فالنَفَس هو أهم ضرورة للحياة، ولذلك نجد من حكمة الحق سبحانه أنه لم يملّك الهواء لأحد؛ لأن أحدًا لو امتلك الهواء بالنسبة لإنسان آخر فقد يمنع عنه الهواء لحظة غضب فتنتهي منه الحياة.

واللغة العربية فيها من السعة ومن دقة الأداء ما يدل على أن هناك أسرارًا للمعاني، تلتقي عند شيء ما، فمثلاً إذا قلت: نَفْس، أو نفيس، أو نَفَس، نجد أنها ثلاث كلمات مكونة من مادة واحدة هي (النون والفاء والسين)، النفْس هي: اتصال الروح بالمادة فتنشأ الحياة بها، ويُلْهِم ربنا النفس فجورها وتقواها، والنَّفَس: وهو الريح تدخل وتخرج من فم وأنف الحي ذي الرئة حال التنفس ولا

تدوم الحياة إلا به، ومادم أساس الحياة هو النفَس فيجب ألا تكون حياتك إلا من أجل نفيس، ويجب أن تحترم خلق الله لك وألا يكون سعيك في الدنيا إلا من أجل نفيس، ولا نفيس إلا الإيمان.

وفي اللغة العربية أمثلة كثيرة لما يسمى بالجناس، فنحن نسمي الأكل في الميعاد «وجبة» ونسمي المسئولية «واجبًا» ونسمي دقة القلب «الوجيب» ولذلك عندما أراد الشعراء أن يتفننوا جاء واحد منهم بلفظين متماثلين ولكل منهما معنى مختلف فقال:

رحلت عن الديار لكم أسير وقلبي في محبتكم أسير

فأسير في الشطر الأول بمعنى أمشي، وأسير في الشطر الثاني من البيت بمعنى مأسور ومقيد.

فالمنخنقة إذًا هي التي منع عنها النفس، ومادام مَنْع النفس أوصلها إلى الخنق فهي إلى الموت، فلماذا جاء ذكرها مرة أخرى بعد الميتة ؟ لقد جاء ذكر «الْمُنخَنِقَةُ» لأن الإنسان قد يلحقها بالذبح، فإن سال منها دم وطرفت فيها عين أو تحرك الذيل فهي حلال. أما إن لم يلحقها الإنسان وذبحها ولم يسل منها دم فهي حرام.

ويحرم الحق «المَوْقُوذَةُ» : وهي البهيمة التي يتم ضربها بأي شيء إلى أن تصل للموت، فهي قد ماتت، بنقض بنية وكذلك «الْمُتَرَدِّيَةُ» التي وقعت من ارتفاع حتى ماتت، وكذلك «النَّطِيحَةُ»: أي التي نطحها حيوان آخر إلى أن ماتت.

﴿ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ وهو ما يبقى من أكل السبع من لحم ما افترسه من حيوان مأكول، ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ ، والذكاة هي الذبح الذي يسيل منه الدم وتأتي بعده حركة من المذبوح. والمقصود بقوله: ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة، فإن أدركها الإنسان وذبحها وسال منها دم وصدرت منها حركة فهي حلال.

هذا هو رأي علي بن أبي طالب ﷺ وهو مفتي الإيمان. وابن عباس - رضي الله عنهما - وهو حَبرُ الأمة قال: - أيضًا - في قوله الحق: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ هو

استثناء لغير الميتة والدم ولحم الخنزير ومقصود به المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة. وهذا يوضح لنا أن هناك حيوانات شرسة قد لا يقوى الإنسان عليها، وأحيانًا قد يقدر الإنسان عليها فيقوم بتكتيفها بالحبال، وأحيانًا يضربها بآلة لتختل وتضعف قليلاً ويتملكها الجزار ليذبحها.

ونلاحظ أن الحق لم يحدد الحيز من الجسم الذي أصيبت فيه الموقوذة سواء أكان البطن أم الرأس أم الظهر، فالحيوان المضروب رميًا بالحجارة قد تأتي الأحجار في الرأس أو البطن أو الظهر، فمن الجائز أن يضرب الإنسان الحيوان الشرس ليستطيع أن يذبحه.

والحجة عندنا في التحليل أو التحريم هي: أيسيل منها الدم ساعة الذبح أم لا؟ وهل يصدر عن جسمها حركة ولو طرفة عين؟

فإن توافر ذلك في الذبيحة فهي حلال، وهكذا نعرف أن قوله الحق: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

هو استثناء لغير الثلاثة الأول وهي: الميتة والدم ولحم الخنزير ومعها ما أهل لغير الله به لأنه محرم بطبيعة الإيمان العقدي.

﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾.

ويحرم الحق ما أكله السبع إلا إذا كان الحيوان الذي أكله السبع لم يمت واستطاع واحد أن يذبحه الذبح الشرعي. وسبحانه يحرم ما لم يذبح بالأسلوب الشرعي، فلا يحل ذَبْح بعظم أو بِسِن والذي ذبح على النصب، أي المذبوح على الأحجار المنصوبة كالأصنام فهو حرام، والكلام هنا عقدي، والتحريم هنا بعارض عقدي.

و﴿ٱلنُّصُبِ﴾ من الألفاظ التي وردت مفردًا ووردت جمعًا. فـ «نصُب» هي جمع، مثلما نجمع كلمة «حمار» ونقول: «حُمُر» وفي هذه الحالة يكون مفردها «نِصاب» ومرة تكون «نصب» مفردًا، مثل «طُنُب» وهو الحبل وجمعها: «أطناب» أي حبال، وفي هذه الحالة يكون جمع «نُصُب» هو «أَنْصَاب».

والنُّصُب: هي حجارة كانت منصوبة حول الكعبة يذبح عليها المشركون الذبائح تقربًا للآلهة. والتحريم هنا بسبب عقدي مثل تحريم ما أُهل لغير الله به، فما أُهل لغير الله فيه شرك بالله فافتقد ذكر الله الذي ذلل للإنسان هذا الحيوان القريب من الإنسان في الحس والحركة وغير ذلك. وكذلك أيضًا ما ذبح على النصب محرم؛ لأن النصب غير واهب ولا معط، والواجب أن نتقرب إلى الواجد الواهب.

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ واستقسم أي طلب القسمة، وكانت القسمة في بعض الأحيان عملية محرجة فيريدون إلصاقها بغيرهم، وهنا يقال: «إن الأزلام هي التي أمرتني» والأزلام هي قداح من الخشب مكتوب على بعضها: «أمرني ربي». ومكتوب على البعض الآخر: «نهاني ربي» وبعض من هذه القداح غفل بغير كتابة. وكان المشرك إذا أراد السفر فهو يذهب إلى سادن الكعبة أو الكاهن، ويخرج السادن أو الكاهن الأزلام من الكيس، ويحرك القداح ويختار المشرك قِدْحًا، فإن قرأ عليه «أمرني ربي» يسافر إلى المهمة التي يريدها، وإن لم يقرأ عليه ووجده غفلاً فهو يعيد الكَرَّةَ؛ فإن وجد «نهاني ربي» لا يسافر.

ونسأل: من هو الرب الذي أمر؟ هل هو الرب الأعلى، أو الرب الذي كانوا يعبدونه؟ وأي إله كانوا يقصدون؟ إن كان المقصود به الإله الأعلى، فمن أدراهم أن الله أمر بهذا السفر أو نهى عن ذلك السفر؟ إن ذلك كذب على الله، وإن كان الذي أمر هو الرب الذي يعبدونه، فهذا أمر باطل من أساسه، إذًا فـ«استقسم» أي أنّه طلب حظه وقسمته بواسطة القداح، وكان الاستقسام يتم في مسائل الزواج أو عدم الزواج، والكلام هنا في هذه الآية عن الأكل؛ فالسياق عن تحليل ألوان الطعام فلماذا هذا الاستقسام؟

من هذا نعرف أنهم كانوا في الجاهلية يخضعون للون من الاستقسام بالأزلام، كانت عندهم عشرة قداح وكان مكتوبًا عليها أسماء، فواحد على سبيل المثال مكتوب عليه «الفذ» وعليه علامة واحدة، أي أن الذي يسحب هذا القدح يأخذ نصيبًا واحدًا؛ أما المكتوب عليه «التوأم» فيأخذ نصيبين، والمكتوب عليه «الرقيب» يأخذ

ثلاثة أنصباء، والمكتوب عليه «الحِلس» يأخذ أربعة أنصباء، والمكتوب عليه «النافر» يأخذ خمسة أنصباء؛ والمكتوب عليه «المُسْبل» يأخذ ستة أنصبة، والمكتوب عليه «المُعلّى» يأخذ سبعة أنصبة، والباقي ثلاثة أنواع مكتوب على كل واحد منها إما «المنيح» وإمّا «السفيح» وإمّا «الوغد».

وعندما يقومون بذبح الجمل كانوا يقسمونه إلى ثمانية وعشرين نصيبًا بعدد الأنصبة التي ينالها الأشخاص السبعة الأوائل، أما من خرج لهم «المنيح» أو «السفيح» أو «الوغد» فلا نصيب لهم ويدفعون ثمن الذبيحة.

إذًا فقوله الحق: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ أي أن مسألة طلب القسمة بواسطة الأزلام هو أسلوب مجحف وحرام، وهو لون من الميسر، والاستقسام بالأزلام خلاف القرعة، فالقرعة تكون بين اثنين متساويين ولا يريد أحدهما أن يظلم الآخر، فيخرجا الهوى من الاختيار.

مثال ذلك: اثنان من البشر يملكان بيتًا، وتحرى كل منهما العدل في القسمة ويلجأن إلى القرعة بأن يكتب كل منهما اسمه في ورقة ثم يضعا الورقتين في إناء ضيق ويحضر طفل صغير لا يعرف المسألة ويغمض عينيه ويشد ورقة من الاثنتين، فيأخذ كل واحد النصيب الذي حددته القرعة.

ومثال آخر: الرجل المتزوج بأكثر من واحدة، عليه أن يقرع بين النساء إن أراد صحبة إحداهن في سفر، والقرعة هنا حتى لا تغضب واحدة من الزوجات، وحتى لا يكون الهوى هو الحكم، وبذلك يخرج من دائرة لوم مَن لا تخرج قرعتها.

ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، فعندما أراد ﷺ ألا يكسر خاطر أي واحد من الأنصار عندما هاجر إلى المدينة، وتطلع كل واحد من الأنصار إلى أن ينزل رسول الله في بيته، وحاول كل واحد أن يمسك بزمام الناقة وأن يجعلها تقف أمام بيته، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**خَلّوا سَبِيلها فإنّها مأمُورة**»(١).

---

(١) أورده ابن كثير في «البداية» وابن سعد في «الطبقات».

فعندما تميل الناقة وتقف عند أي بيت لن يقول أحد: إن النبي آثر فلانًا على فلان. جعلها الرسول في يد من لا يقدر أحد على أن يخالفه عليه، وكذلك فالاستخارة غير الاستقسام. إذًا فالاستقسام بالأزلام هو المحرم شرعًا؛ لأنها عملية غير مناسبة وهي ظالمة، ووردت في هذا السياق ألوان الطعام.

ويقول سبحانه عن كل تلك الألوان من المحرمات؛ إنَّ ارتكابها فسق: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ .

والفسق هو الخروج عن الطاعة. والمعاني - كما علمنا من قبل - مأخوذة من المحسّات؛ لأن إلف الإنسان في أول إدراكاته بالمحسات، فهو يرى ويسمع ويشم، وبعد ذلك تأتي الأمور العقلية.

وأصل الفسق هو خروج الرطبة عن قشرتها؛ فالبلحة عندما ترطب تنكمش الثمرة داخل القشرة وتخرج منها عندئذ يقال: «فسقت الرطبة» أي خرجت من قشرتها، وكذلك من يخرج عن منهج الله يسمونه فاسقًا؛ تمامًا مثل الرطبة، وفي هذا رمزية تدل على أن شرع الله سياج يحيط بالإنسان؛ فالذي يخرج عن منهج الله يكون فاسقًا. وإياك أيها المسلم أن تخرج عن شرع الله؛ لأن الرطبة عندما تخرج عن القشرة فالذباب يحوم حولها ويصيبها التراب وتعافها النفس، فكَان دين الله كإطار يحمي الإنسان بالإيمان»ا.هـ.

توضيح وبيان:

الدم:

يحتوي على مواد مُهيّجة للحساسية في الجسم ويرفع ضغط الدم، كما قد يحتوي على الدودة الكبدية التي تنتقل للإنسان، وقد تتلف كبده تمامًا(١).

ويقول الدكتور محمد وصفي(٢): «إنه من المقرر طبيًّا أن الدم أصلح الأوساط لنموّ شتى الجراثيم، وأنسب مكان لتكاثرها، إذ يعتبر أطيب غذاء لهذه الكائنات،

(١) «الإعجاز الطبي في القرآن» للدكتور/ سيد الجميلي (٧٠).
(٢) «القرآن والطب» (١٩٤ - ١٩٦).

وذلك لأن الدم بمجرّد نزوله من الحيوان، سواء كان ذلك بالذبح أو الفصد، فإنه ينعزل عن الأوعية الدموية التي تحفظه أثناء الحياة، وتفقد كرات الدم البيضاء وظيفتها وهي الدفاع ضد الميكروبات، ويصبح الدم بعد ذلك عرضة للجراثيم المنتشرة في اليد، والسلاح المستعمل في الذبح، وفي الآنية التي يستقبل فيها، بل توجد الجراثيم في الأرض والهواء الذي يتعرّض له الدم، وضرر هذه الجراثيم ليس قاصرًا على العدوى فحسب، بل إن ما تفرزه من سموم يُعدّ من أشد الأخطار على جسم الإنسان»ا.هـ.

أما لحم الخنزير:

فالخنزير يحتوي على كميات كبيرة من حامض البوليك، ولا يفرز منه إلا القليل بنسبة لا تعدو ٣ ٪، بينما يفرز الإنسان من حامض البوليك هذا النحو ٩٠ ٪ منه، نظرًا لاحتواء لحم الخنزير على هذه النسبة المرتفعة من حامض البوليك نتيجة كثرة موارده، وقلّة روافده، ولذلك نرى آكليه يشكون من آلام روماتيزمية والتهابات المفاصل المختلفة، كما أن أليافه الغليظة تسبب عُسْرًا في الهضم في عديد من الحالات وارتباكًا في الأمعاء[1].

ويقول صاحب «محاسن التأويل»: «ومن أهم أسباب تحريم أكل لحم الخنزير ما يحمله لحمه لآكليه من الأخلاق الذميمة»ا.هـ[2].

قلت: ومنها: «الدِّياثة»، لأن الخنزير لا يغار على أُنثاه.

والخنزير من الحيوانات التي تأكل القمامة والقاذورات، فهو يجمع معنى القبح والقذارة والنجاسة، ويعرف بطباع بعيدة عن الحياء في تزاوجه بالإضافة إلى تعرّضه للإصابة بعدد كبير من الطفيليات التي تصيب الإنسان كذلك من الفيروسات، مثل مرض الكلب، والحمّى الصفراء وغيرها.

---

(١) «الإعجاز الطبي» (٧٠، ٧١).

(٢) «محاسن التأويل» (٣/ ٣٨٢).

وهو من العوامل الناقلة لبعض الطفيليات، كما أنه يصاب بأنواع عديدة من الديدان المفلطحة والأسطوانية وشوكية الرأس(١).

وأمّا الميتة:

فيقول الأستاذ البوشي: «إن الميتة حيوان لا يموت إلا لسبب، مثل المرض أو الشيخوخة، وقد قرر الأطباءُ أن الوفاة إن كانت بسبب المرض فَمِمّا لا شك فيه أن لحم الميتة غير صالح للأكل نتيجة التسمّم من مواد غير طبيعية وضارة للإنسان حتى بعد أن يعقم من الجراثيم بطريق النار، فالجسم الميت في هذه الحالة يشبه الغذاء المتخمّر الذي مهما طهر من الجراثيم بالحرارة لا يزال مُضرًّا بالأجسام وربّما أدى الأكل منه إلى الوفاة.

وإن كانت الوفاة بسبب الشيخوخة فمعناها انحلال بعض الأنسجة الذي لا يتأتّى إلا لضعف طبيعي فيها أو لمرض تدريجي يؤدِّي إلى ضعف وانحلال كل الأنسجة، وإحداث تغيّرات في لحم الحيوان تقلّل من قيمته الغذائية، كما تقلّل من قابليته للهضم»ا.هـ(٢).



(١) «عناية الإسلام بالصحة البدنية» للسيدة كاملة الأنوار محمد صابر حجاب (٩٥).
(٢) «الإسلام والطب» للأستاذ محمد عبد الحميد البوشي (١٠٧).

الإعجازُ البَلاغي لِلقُرآن الكريم

قال الحقُّ - سبحانه - : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٣٧].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله - : حيث تستمع للقرآن وما فيه من سر الأعداد والإخبار بالمغيبات التي لا تخضع لمنطق الزمان، ولا لمنطق المكان، فالفطرة السليمة توقن أن هذا القرآن لا يمكن أن يُفتَرى، بل لابد أن قائله ومُنزله عليم خبير؛ لأن القرآن جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتب السابقة.

أي أن ما به دائمًا هو أمام الناس، أو مواجه لهم، وهو كتاب مصدِّق للكتب السابقة من قبل تحريفها كالتوراة والإنجيل والزبور، وهي الكتب التي سبقت القرآن نزولاً، لا واقعًا، فجاء القرآن مصدِّقًا لها.

أي هي تصدقه، وهو يصدقها من قبل تحريفها، وهي الكتب التي بشَّرت بمحمد ﷺ رسولاً، مثلما جاء في القرآن عن تصديق عيسى عليه السلام بمجيء محمد ﷺ ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصّف: ٦].

فلما جاء محمد ﷺ ونزل عليه القرآن صدَّق الإنجيل في قوله.

هذا، وما جاء في القرآن من عقائد أصيلة هي عقائد جاءت بها كل الكتب السماوية، فالحق سبحانه يقول: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء: ١٦٣].

ويقول الحق سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [الشورى: ١٣].

إذًا فهناك أصول جاءت بها كل الكتب السماوية، وهناك كذلك أخبار أخبرت

عن حدوثها الكتب السماوية، وأبلغنا رسول الله ﷺ بالقرآن وفيه تلك الأخبار، فمن أين جاء محمد ﷺ بتلك العقائد الصحيحة، وتلك الأخبار الموجودة في الكتب السابقة، وهو ﷺ لم يكن من أهل الكتاب، ولا عَلِمَ منهم شيئًا[1]؟

إذًا فعندما يقول محمد ﷺ ما جاء ذكره في الكتب السابقة على القرآن، فهذه الكتب مصدقة لما جاء به محمد ﷺ؛ لأن هذه الأخبار قد وقعت، وهذا تأكيد لصدقه؛ لأنه بشهادة أهل زمانه لم يجلس إلى معلِّم، ولم يقرأ كتابًا، وتاريخه وسيرته معروفة؛ لأنه من أنفسكم، ولم يُعلمَ عنه أنه قد زاول كلامًا بليغًا، أو خطب في قوم قبل الرسالة، أو قال شعرًا.

وبعد ذلك فوجئ هو - كما فوجئتم أنتم - بمجيء هذا البيان الرائع، فمن أين جاء به؟

أنتم تقولون إنه هو الذي جاء به، لكنه ﷺ ينسب الرفعة لصاحبها، ويعلن أنه ﷺ مُبلِّغ فقط، فيقول ما أمره الله به أن يقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

ويحضُّ القرآن الكريم النبي ﷺ أن يسألهم: هل لاحظوا على كلماته - من قبلُ - البلاغةَ والفصاحةَ أو الشعر؟!

ولننظر في «ماكُنَّات»[2] القرآن الكريم، وهي الآيات التي يقول فيها الحق سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ مثل قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

---

(١) وفي هذا يقول الحق سبحانه: ﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون﴾ [العنكبوت: ٤٨].

(٢) «ماكُنَّات» القرآن: هي الآيات التي وردت فيها لفظة: ﴿ما كنت﴾، وهذا في إحدى عشرة آية هي: آل عمران: ٤٤، هود: ٤٩، يوسف: ١٠٣، القصص: ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٨٦، العنكبوت: ٤٨، الشورى: ٥٢.

وهذا أمر ثابت في الأخبار.

وقول الحق سبحانه: ﴿كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝﴾ [القصص: ٤٤].

والوحي إلى موسى عليه السلام والمكان الذي نزل فيه ذلك الوحي أمر ثابت في الأخبار.

وقول الحق سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝﴾ [القصص: ٤٥].

وكثير من هذه الآيات تجعل محمدًا ﷺ وكأنه يسأل المعاصرين له: كيف أخبرت بوقائع وأخبار لم أكن موجودًا في زمانها أو مكانها؟

لابد - إذًا - أن الله الحق - سبحانه - هو الذي أخبرني بها وافق ما عندكم من أخبار.

وبعد ذلك جاء القرآن مصدقًا لما بين يديه: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

أي أنه الكتاب الذي يضم صدق كل حدث قادم، لأن القرآن خرق حُجُبَ وحُجُزَ الماضي والمستقبل.

ونحن نعلم أن الأشياء الغيبية تحدث بسببين؛ الأول: أن يتكلم عن شيء سبق الزمان الذي نزل فيه، فهو يتكلم في الماضي الذي لم يكن رسول الله ﷺ من أهل الاطلاع والتعلم ليعرفه ويعلمه.

وكذلك خرق القرآن الكريم حجب الحاضر الذي عاصر نزوله، هذا الحاضر الذي قد يكون محجوبًا بالمكان.

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - فقد يحدث حادث في الإسكندرية في نفس الوقت الذي تكون أنت فيه موجودًا بالقاهرة، وأنت لا تعلم هذا الحدث؛

لأنه محجوب عنك ببعد المكان، وحاجز المكان يتمثل - غالبًا - في الأمور الحاضرة، أما أمور المستقبل فهي محجوبة عنا بالزمان والمكان معًا.

وحين يخبرنا القرآن الكريم بحدث ماضٍ لم يشهده رسول الله ﷺ، ولم يتعلمه، ولم يقرأ عنه؛ إذًا فالقرآن إنما يخرق أمامنا حجاب الزمن الماضي، وإذا أخبر القرآن بحدث حاضر في غير مكان نزوله على سيدنا رسول الله ﷺ، فهذا خرق لحجاب المكان مثل قول الحق سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

وحين سمع المنافقون والكفار هذا القول الكريم، لم ينكروا أنهم قالوا في أنفسهم ما جاء به القرآن، وهكذا خرق القرآن حاجز المكان في أنفسهم هم.

إذًا فأخبار الغيب في القرآن إما خَرقٌ لزمان ماضٍ أو خرق لزمان الحال، وإما خرق لزمان ومكان الاستقبال.

ونحن نعلم أن القرآن كان ينزل والمسلمون ضعاف، لا يستطيعون حماية أنفسهم، ولا أحد يجير على أحد، ويتجه النبي ﷺ إلى الطائف ليعرض الإسلام على أهلها، لعلَّه يلتمس لهم مجيرًا من أهل الطائف؛ ولكنه ﷺ لا يجد إلا الإيذاء والإعراض، ويوصي بعضًا من صحابته أن يهاجروا إلى الحبشة.

وفي ظل كل هذه الأزمات، ينزل قول القرآن: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

حتى إن عمر بن الخطاب ﷺ يتساءل: أيُّ جمع هذا الذي يهزم، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا؟ ثم تأتي غزوة بدر ويشهد عمر هزيمة وفرار مقاتلي قريش؛ فيرى رأي العين صدق ما جاء به الوحي من قبل[1].

(١) عن عكرمة قال: لما نزلت: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ [illegible] عمر: أيّ جمع يُهزم؟! أي: أيّ جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ فعرفت تأويلها يومئذ. ذكره =

وهكذا تأكد الجميع أن القرآن الكريم غير مُفترىً، فكيف يُتَّهم رسول الله ﷺ أنه افتراه؟ وإذا كان هذا القرآن مفترىً، فلماذا لا تفترون مثله؟ وفيكم الشعراء والبلغاء والخطباء؟! ولم يقل محمد ﷺ أنه بليغ أو خطيب أو شاعر، ولم يطلب القرآن الكريم منهم أن يأتوا بواحد مثل محمد ﷺ، لا صلة له بالبلاغة أو الفصاحة، بل يطلب منهم أن يأتوا بالفصحاء كلهم، ويدعوهم أن يقولوا مثل آية واحدة من القرآن.

وإن قالوا: إن ما جاء به هو السحر، وإن محمدًا ساحر قد سحر العبيد والضعاف، وأدخلهم في الإسلام، فلماذا لم يسحركم محمد؟!

إن بقاءكم من غير سحر يدل على أن إطلاقكم كلمة السحر على ما جاء به دعوى كاذبة.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

فالقرآن قد جاء فيه تفصيل كل الأحكام الصالحة إلى قيام الساعة، أما الكتب السابقة على القرآن فكانت تضم الأحكام المناسبة لزمانها، ولأمكنة نزولها.

وهو كتاب: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لاشك فيه، يكشف الكفار، ويفضح ارتيابهم وكذبهم، فَهُم قد اعترفوا بعظمة القرآن وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

إذًا فهم قد عرفوا أن القرآن لا عيب فيه، و لا ريب فيه، حتى من الكافرين به.

ويأتي الرد على قولهم بالافتراء، في قول الحق سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

وقد سبق هذا المجيء بالتحدي أسبابُ عجزهم عن النجاح في التحدي؛ لأن

= ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٦٦) وعزّاه لابن أبي حاتم.

الآية السابقة تقرر أن الكتب السماوية السابقة تُصَدِّق نزول القرآن الكريم، وبينها وبين القرآن تصديق متبادل.

فهم مهزومون فيه قبل أن ينزل.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾.

وقد جاء التحدي مرة بالكتاب في قول الحق سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولم يستطيعوا، فنزلت درجة التحدي؛ وطالبهم أن يأتوا: ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣].

فلم يستطيعوا الإتيان بعشر سور، فطالبهم أن يأتوا بسورة تقترب - ولو من بعيد - من أسلوب القرآن، فلم يستطيعوا ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣].

فكيف - إذًا - من بعد كل ذلك يدَّعون أن محمدًا ﷺ قد افترى القرآن، وهو ﷺ لم تكن له صلة بالأساليب البلاغية أو الفصاحة؟!

لقد دعاكم أن تأتوا بكل الفصحاء والبلغاء ليفتروا، ولو سورة من مثله، ووضع شرطًا فقال: ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾.

لأن الله سبحانه وتعالى هو القادر الوحيد على أن يُنزل قرآنًا، لذلك دعاهم رسول الله ﷺ أن يدعوا الشركاء؛ وذلك حتى لا يقول الكفار وبعضهم من أهل اللّجاجة(١): سندعو الله؛ ولذلك يأتي القرآن بالاستثناء: ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وهم بطبيعة الحال غير صادقين في هذا التحدي.

والله - سبحانه وتعالى - حين يرسل رسولاً إلى قوم؛ ليعلِّمهم منهجه في

---

(١) **اللجاجة**: التمادي في الجدال والمراء.

حركة الحياة، إنما يريد سبحانه أن تؤدي حركة الحياة إلى الغاية المطلوبة من الإنسان الخليفة في الأرض؛ ولذلك يأتي الرسول من جنس المرسل إليهم؛ ليكون أسوة لهم؛ لأن الرسول إن جاء مَلَكًا لما صحَّت الأسوة، بل لابد أن يكون بشرًا.

والحق سبحانه لا يرسل أي رسول إلا ومعه بينة ودليل صدق على أنه رسول يبلِّغ عن الله تعالى.

والبينة لابد أن تكون من جنس نبوغ القوم، فلا يأتي لهم بمعجزة في شيء لم يعرفوه ولم يألفوه؛ حتى لا يقولوا: لو تعلمنا هذا لجئنا بمثل ما جاء.

وقد جاء القرآن ليثبت عجزهم عما نبغوا فيه من صناعة الكلام؛ شعرًا ونثرًا وخطابة.

وكان القرآن هو معجزة رسول الله ﷺ في قوم فصحاء يعقدون للشعر أسواقًا، ويعلِّقون الفائز من هذا الشعر على جدران الكعبة شهرة له وشهادة به.

إذًا فهم أصحاب دراية بصناعة الكلام، وجاءت المعجزة مع الرسول ﷺ من جنس ما نبغوا فيه؛ لتتحداهم.. والتحدي يستعدي استجماع قوة الخصم، ليرد على هذا المتحدي، فإذا عجز مع التحدي يصير العجز ملزمًا.

وقد تحدى الحق سبحانه العرب جميعًا بالقرآن كله: ﴿ لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، فتدرَّج القرآن معهم في التحدي فطلب منهم ما هو أقل من ذلك، وهو أن يأتوا بعشر سور مثله في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [هود: ١٣].

ثم تحداهم بالإتيان بمثل سورة من القرآن.

وعند التأمل نجد أن الأسلوب الذي جاء بطلب سورة كان على لونين: فمرة

يقول: ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾.

ومرة يقول: ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

وكل من اللونين بليغ في موضعه فـ ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ تبين أن المثلية هنا محققة، أي: مثل ما جاء من سور القرآن.

وقوله: ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي: سورة من مثل محمد ﷺ في أنه لم يجلس إلى معلِّم، ولم يقرأ، ولا عُرِف عنه أنه تكلم بالبلاغة في أي فترة من مراحل حياته قبل الرسالة.

وقال الحق سبحانه: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦].

إذًا ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي مثل محمد ﷺ الذي لم يتعلم وكان أُمِّيًّا، ولكن لماذا يأتي هذا اللَّوْن من التحدِّي؟

لأنهم قالوا عن القرآن: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

بل واتهموه في قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بمكة، فيلفتهم القرآن إلى أن الرجل - الذي قالوا إنه معلم للرسول ﷺ - كان أعجميًا غير عربي، يقول الحق سبحانه: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

ويزيد الحق سبحانه أن يصنفهم، فيقول بعد ذلك: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس: ٣٩].

وهذا الصنف من الناس الذين ﴿كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ وهم من أخذتهم المفاجأة حين حُدِّثوا بشيء لا يعرفونه، والناس أعداء ما جهلوا؛ فكذبوا

ما جاء به رسول الله ﷺ من القرآن قبل أن يتبينوا جمال الأداء فيه، ونسق القيم العالية، وإذا ما سنحت لهم فرصة يتبينون فيها جمال الأداء، ودقة الإعجاز فهم يتجهون إلى الإيمان.



لِبَاسُ الْجُوعِ

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - : «ولقد وضَعَ رَبُّنا أقواتَنا مخزونة في الأرض، ونحن لا نعمل بالقدر الكافي على استنباط الخير منها. وسبحانه يوضح لنا: أن الإنسان إن لم يستفد بالنواميس التي خلقها الله له، ولم ينفذ التكاليف أمرًا ونهيًا فلسوف يتعب الإنسان نفسه؛ فتكون معيشته ضنكًا. فسبحانه يقول: ﴿ **وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ** ﴾ [النحل: ١١٢].

هذه القرية كانت تتمتع بالأمن والاطمئنان لكنها كفرت بأنعم الله، والكفر في المعنى العام هو: ألا تشكر النعمة لله، وعندما نمعن النظر بدقة لنرى قانون ربط السبب بالمسببات، وربط السنن الكونية بالكون والمكون والمكون له نجد أشياء عجيبة، فهذه القرية كانت آمنة مطمئنة والرزق يأتيها رغدًا من كل مكان، إذًا فالقرية هي مكان السكن، وليس مكان السكن فقط هو الذي فيه الرزق بل يأتيها رزقها رغدًا من كل قرية، فكأن كل مكين في بقعة؛ له بقع خالية في مكين آخر تخدمه. وتلك القرية كفرت بأنعم الله.

والكفر في معناه الواضح هو الستر، والقرية التي كفرت بأنعم الله هي التي سترت نعمة الله، فنعمة الله موجودة ولكن البشر الذين في تلك القرية هم الذين ستروا هذه النعمة بالكسل وعدم الاستنباط للنعمة وترك استخراجها من الأرض.

أو أن سكان هذه القرية استخرجوا نعمة الله واستنبطوها وستروها عن الخلق، وفساد الكون إنما يأتي من هذين الأمرين:

أي أن هناك أممًا مختلفة، كسل سكانها عن توجيه طاقاتهم لاستنباط النعم من الأرض، أو أن هناك أممًا أخرى تملك الثراء والخير وترميه في البحر حتى لا

يذهب إلى الأمم المختلفة، والخراب الذي نلمسه في علاقات العالم ببعضه يقول لنا: إن العالم هو القرية التي ضرب الله بها المثل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

ولنر دقة الأداء القرآني، في قوله: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾، ونعلم أن الذي يُذاق هو الطعم، والطعم يكون باللسان وحده، وأما اللباس فيعم كل الجسم، والحق هنا يعطي الإذاقة ولا يكون الذائق هو الفم فقط بل كل الجسم، فالفم إنما يتناول لصالح بقية الجسم، وعندما لا تصل مادة الحياة إلى بقية الجسم فكل الجسم يذوق الجوع أيضًا.

والكون المخلوق لله مصنوع على نظام دقيق من أجل أن تسير السنن الكونية في مجالاتها التي حددها الله، وعندما تنتظم هذه السنن في حركاتها فهي تعطي النتائج للإنسان ولو بعد حين، حتى إن بعض المفسرين والمتكلمين بعمق يقولون: إن الأمراض الوراثية التي تنتقل من أجيال سابقة إلى أجيال لاحقة كان السبب فيها تقصير آباء واجتراءهم على أشياء مخالفة لمنهج السماء، فإذا شرع الله سنة كونية للفرد ثم خالفها تصيبه نتيجتها السيئة من بعد ذلك، وكذلك الأمة والجماعة.

لكن المسائل التي يقف فيها العقل فقط هي المصائب التي تصيب الناس بغير عملهم. وكان على الفلسفة أن تبحث هذا المجال، أما الدين فهو يقول لنا أسباب تلك المسائل؛ فالشيء الذي له مقدمات من أسباب تكاسل الإنسان عنها، ثم أصابته كارثة فهذا من فعل الإنسان في نفسه، أما الأشياء التي تأتي قدرية فهذا أمر مختلف.

فإذا كان ديننا قد وضع للإنسان أسبابًا كونية وحكمة الإنسان الإيمانية قالت له: افعل ذلك حتى يحدث كذا، ولا تفعل ذلك حتى لا يحدث كذا، فعلى الإنسان أن يعرف أن الله لم يعطه كل ما يستطيع به استيعاب كل حكمة المكوِّن في الكون، ليلفت سبحانه الإنسان دائمًا على أن طلاقة القدرة مازالت موجودة، فيحدث

شيء من الأشياء يتساءل فيه الإنسان: ما سبب ذلك؟ ولماذا؟ ومثال ذلك الزلزال أو البركان أو السيل الجارف والريح العاصف، كل هذه الأحداث لا دخل للإنسان فيها، وهي أحداث تقول للإنسان: لو أن المسائل في الكون فيها رتابة أسباب لما ارتبطنا بقوة غيبية خفية نضرع إليها دائمًا لنَسلَم.

وجاءت بعض مدارس الفلسفة في ألمانيا - مثلاً - وقالت: إن وجود الشر في الكون دليل على أنه لا يوجد إله، فلو كان هناك إله حكيم لما أفلتت منه هذه المسائل، ولما خرج واحد بعين واحدة ولا خرج أعرج ولا مشوه، وقالت مدرسة أخرى في العصر نفسه: لا، إن رتابة النظام في الكون دليل على أنه لا يوجد إله، فلو كان هناك إله لخرق القانون والناموس ولأخرج بعض الأحداث عن هذا الناموس.

وهكذا نرى أنهم يريدون الكفر من أجل الكفر بدليل أن مدرسة أخذت النظام في الكون كدليل للكفر، ومدرسة أخرى أخذت الشواذ في الكون كدليل على الكفر، وكُلّ من أقطاب المدرستين إنما يبحث عن سبب للكفر.

ونقول لهم: كلاكما غبي؛ الذي يريد منكم النظام سببًا لوجود إله حكيم، والذي يريد الشذوذ سببًا لوجود إله قادر، هذان الأمران موجودان في الكون، وكلاهما دليل على وجود الإله الحكيم القادر لو كنتم منصفين.

انظر إلى النظام في الكون الأعلى؛ فلو فسدت فيه مسألة صغيرة لانهدم الكون كله، انظروا إلى الشمس والمطر والكواكب والنجوم، إنها خاضعة لنظام محكم، فيا من تريد النظام دليلاً على حكمة مكون، فالنظام موجود، ويا من تريد الشذوذ دليلاً على أن هناك إلهًا يسيطر على ميكانيكية الكون فهذه أمور موجودة، والشذوذ إنما يتأتى من الأفراد، فإن شذ فرد فلن يفسد القضية العامة، فالذي يولد بعين واحدة مبصرة سنجد مئات الملايين امتلكوا البصر كاملاً.

لكن عندما يأتي الشذوذ في نظام الكون وحركة الأفلاك فالذي يحدث هو دمار للعالم.

فمن أراد أن يرى النظام السائد يدل على الحكمة نقول له: انظر إلى الفلك الأعلى، ومن يريد الشذوذ دليلاً على أن هناك قوة تتحكم في ميكانيكية العالم نقول له: هذا موجود، ولكن الشذوذ موجود في الأفراد، فإن شذ فرد فلا يعطب بقية الأفراد.

ونعرف - أيضًا - أن رتابة النعمة قد تلهي الإنسان عن المنعم، فالإنسان منا يظل لمدة طويلة وأسنانه سليمة فلا يتذكر مسألة أسنانه، لكن إن آلمه ضرس واحد فهو يتذكر أن له ضرسًا، وكذلك إن آلمته إحدى عينيه، أو إذا آلمته كُليَته فهو يجري إلى الطبيب، وهذه أمور لافتة حتى تُخرج الإنسان من رتابة النعمة عليه ليتذكر المنعم بالنعمة. وعندما نرى إنسانًا أكرمه الله بفقدان البصر، فالواحد منا يقول: «الحمد لله» ويمسك الإنسان منا عينيه مخافة أن تذهبا، وكذلك عندما نرى أبرص أو أعرج، وهذه هي وسائل إيضاح في الكون حتى لا تغفل الناس عن المنعم بالنعمة.

فإذا ما نظرنا إلى الأشياء التي تصيب الإنسان فردًا، أو تصيب الأمة كمجموع فنحن نجدها بما قدمت يدها؛ لأنها صنعت شيئًا يخالف التوجيه، فإن كان هناك شيء خارج عن قدرة الإنسان فنحن نقول: هذه هي حكمة المكوِّن حتى يلفتنا إلى أنه المنعم، ولهذا نرى الشواذ في الخلقة قلة لا كثرة، ويعوض الله من أصيب بشذوذ في شيء بدوام مَلَكَةٍ في شيء آخر. ولذلك يقول الشاعر:

عميت جنينًا والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم موئلا

وغاب ضياء العين للعقل رافدًا لعلم إذا ما ضيع الناس حصلا

وضربت المثل مرة ببتهوفن الموسيقار العالمي الذي أطرب العالم بسيمفونياته.. إنّه كان أصم.

ولذلك نحن نسمع في لغة العامة: كل ذي عاهة جبار، فإذا كان الله قد جعله وسيلة إيضاح ليلفت الناس إلى نعم الله سبحانه عليها فهو يعوضه بموهبة أخرى ويلتفت إليها الناس فيها إلى صاحب العاهة فيرون فضل الله عليه أيضًا، إذًا

فالمصائب التي تحدث وليس للإنسان دخل فيها هي الملحظ الذي يجب أن نبحثه، وهذه هي مكونات الحكمة كي يلتفت الإنسان دائمًا إلى أن الكون غير متروك بلا قيادة.

إن الله خلق الكون وخلق القانون والنواميس ليدلنا على أنه موجود، ولا تزال يده في الكون، فإذا حدثت حادثة فلابد أن نلتمس لها حكمة، والحكمة خرق وخروج عن النواميس يلفت إلى أن فوق ميكانيكية العالم وقوانينها قوة أخرى تقول لها: «تعطلي».

ولذلك فمعجزات بعض الرسل من هذا اللون، فطبيعة النار أنها تحرق، ولكنها لم تحرق سيدنا إبراهيم عليه السلام، أكان مراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجِّي إبراهيم من النار؟ لو كان مراده هو نجاة إبراهيم من النار فحسب لما مَكَّن خصومه من أن يمسكوه، وبعد أن أمسك خصوم سيدنا إبراهيم به، وأشعلوا النار وأججوها كان باستطاعة الحق سبحانه أن يأتي بغمامة لا قدرة لخصوم إبراهيم عليها وتمطر مطرًا يطفئ النار، لا. فقد أراد الله النار نارًا متأججة وأن يقدر خصوم إبراهيم عليه ويمسكوا به ولا تنطفئ النار، وأن يلقوه في النار، وبعد ذلك يوضح الحق أنا أزاول سلطاني في الناموس؛ لأني خالق الناموس وأعطله متى شئت: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ ﴾.

أما لو حدثت المسألة الأولى وانطفأت النار، لقالوا: آه لو لم تنطفئ النار، وآه لو لم ينزل الماء على النار.

إن الحق أراد أن يدحض كل دعاوى الخصم، فعندما تحدث أحداث لا دخل للإنسان فيها نقول: دعها لحكمة الخالق لأنه يريد أن يلفت الخلق إلى أنه صاحب اليد العليا في الكون، فميكانيكية الكون تحير العقول؛ لأنها مضبوطة بدقة، ولكنها لم تفلت من يد ربنا، ولذلك نرى في بعض الأحيان رياحًا عنيفة تثير الغبار فلا يرى الإنسان شيئًا على الإطلاق، ومعنى ذلك أن الذرات تراكمت وتراكبت حتى صارت جدارًا، ويحدث ذلك مهما حاولت الأجهزة العلمية التحكم في ذلك أو منعه.

ومن العجيب أن الحق يترك لنا لذعة تقول: لقد كرمتك بالعقل ولكني لم أدع لك كل الفهم، فقد يوجد صاحب غريزة لا عقل له ويكون أقدر على فهم الأشياء منك أيها الإنسان.

وعندما يحدث زلزال في منطقة ما، فأول ما يخرج من المكان هي الحمير، وهذا لفت للإنسان حتى لا يقع فريسة للغرور: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝﴾ [العلق: ٦، ٧].

فإذا ما رأيتَ حَدَثًا في الكون ولا دخل للإنسان فيه ولا للأمم دخل فيه؛ فلتعلم أن لله فيه حكمة حتى يلفتنا إلى المكون الأعلى؛ وحتى لا يظن أحد أن لميكانيكية الكون رتابة، إنما هي نظام يجريه الله على وفق قدرته وإرادته وحكمته.

ولذلك يقولون: إن العقل الإلكتروني لا يخطئ، وهم لا يعرفون أن من الخيبة ألا يخطئ، لأنه كما تملؤه وتمده بالمعلومات سيخرج لك هذه المعلومات، ليس له خيار في شيء، أما العقل البشري فهو قادر على الاستنباط والاستكشاف وعدم ذكر بعض المعلومات التي قد تضر، هذه هي العظمة.

ويقول بعضهم - كمثال آخر - إن الورد الصناعي لا يذبل، نقول: إن عيبه أنه لا يذبل لأن الذبول حيوية، وعدم الذبول دليل على أنه لا حياة فيه، وأنّه جمود فقط.

وساعة يجري الحق سبحانه وتعالى شيئًا في كونه ولا دخل لأحد فيه فهو يريد أن يلفت الكون إلى بقاء القيومية العليا والقدرة الإلهية في الكون؛ حتى لا تغتر بميكانيكية الكون، ولذلك يعرض القرآن بصيصًا من هذه الأشياء؛ إذا أخذتها بحكم العقل فهو لا يقبلها، لكن حين يفسرها من أجراها نجدها في منتهى العقل.

مثال ذلك: سيدنا موسى عندما ذهب إلى العبد الصالح، ما الذي حدث؟

قال العبد الصالح: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝﴾ [الكهف: ٦٧].

ويلتمس العبد الصالح لموسى العذر فيقول له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ

تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الكهف: ٦٨].

فيقول سيدنا موسى وهو من أولي العزم من الرسل: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الكهف: ٦٩].

فيخرق العبد الصالح السفينة، وخرق السفينة في السطحية الفهمية شرّ، وعلى الرغم من أن سيدنا موسى وعد العبد الصالح بعدم عصيان الأمر وأن يكون صابرًا، على الرغم من ذلك لم يطق حادثة خرق السفينة، فقال للعبد الصالح: ﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾ [الكهف: ٧١].

لقد شك سيدنا موسى في ظاهر الأمر، ولكن عندما يدرك الحكمة يجدها عين الخير، فلو لم يخرق العبد الصالح السفينة لأخذها الملك الظالم الذي يأخذ كل سفينة صالحة وسليمة غصبًا: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ [الكهف: ٧٩].

فلو لم يخرقها العبد الصالح لما استرد أصحاب السفينة سفينتهم، وبالخرق للسفينة ستظل لأصحابها، لن بها عطبًا يستطيعون إصلاحه بعد ذلك؛ إذًا كل شيء يجري على غير ما تشتهيه سطحية الفهم البشري فلنعلم أنها مادامت ليست من أحد، وهي من المكون الأعلى فوراءها حكمة.

وهل يوجد أكثر بشاعة من القتل؟ لقد قتل العبد الصالح غلامًا، ما الحكمة في ذلك؟ إن الواحد منا يولد له ابن فيكون قرة عين وسندًا، وقد يكون هذا الابن سببًا في فساد دين أبيه ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يطغى.

ويقول قائل: وما ذنب الولد؟

نقول: أنت لا تفهم الأمور، لقد ذهب إلى الحق بدون تجربة في أن يطيع أو يعصي الله، ذهب إلى رحمة الله مباشرة، وهذا أفضل له، وكان في ذلك القتل للولد رحمة لوالديه؛ فالشيء إن حدث للنفس إن كان من مخالفة الإنسان للناموس فيكون الإنسان هو الذي فعل الضر بنفسه.. وكذلك الأمة حين تخالف ناموسًا

شرعيًا أو كونيًا، لكن لو كانت الأمور فوق طاقة البشر فلابد أن لله فيها حكمة، وقصة العبد الصالح وموسى مليئة بالحكم، فقد ذهب الاثنان إلى قرية واستطعما أهلها أي طلبا من أهلها طعامًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: ٧٧].

ولم يطلب أي منهما نقودًا، وذلك حتى لا تثار الظنون السيئة، ولكن طلبا الطعام ليأكلاه، وهو أول الحاجات الضرورية للإنسان.

فقالوا لهما: لا لن نعطيكما لأن أهل تلك القرية كانوا لئامًا، ولذلك اتجه العبد الصالح إلى جدار يريد أن ينقض فأقامه، فقال سيدنا موسى للعبد الصالح: لماذا لم تأخذ منهم أجرًا؟

وأخيرًا يوضح العبد الصالح لسيدنا موسى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٨٢].

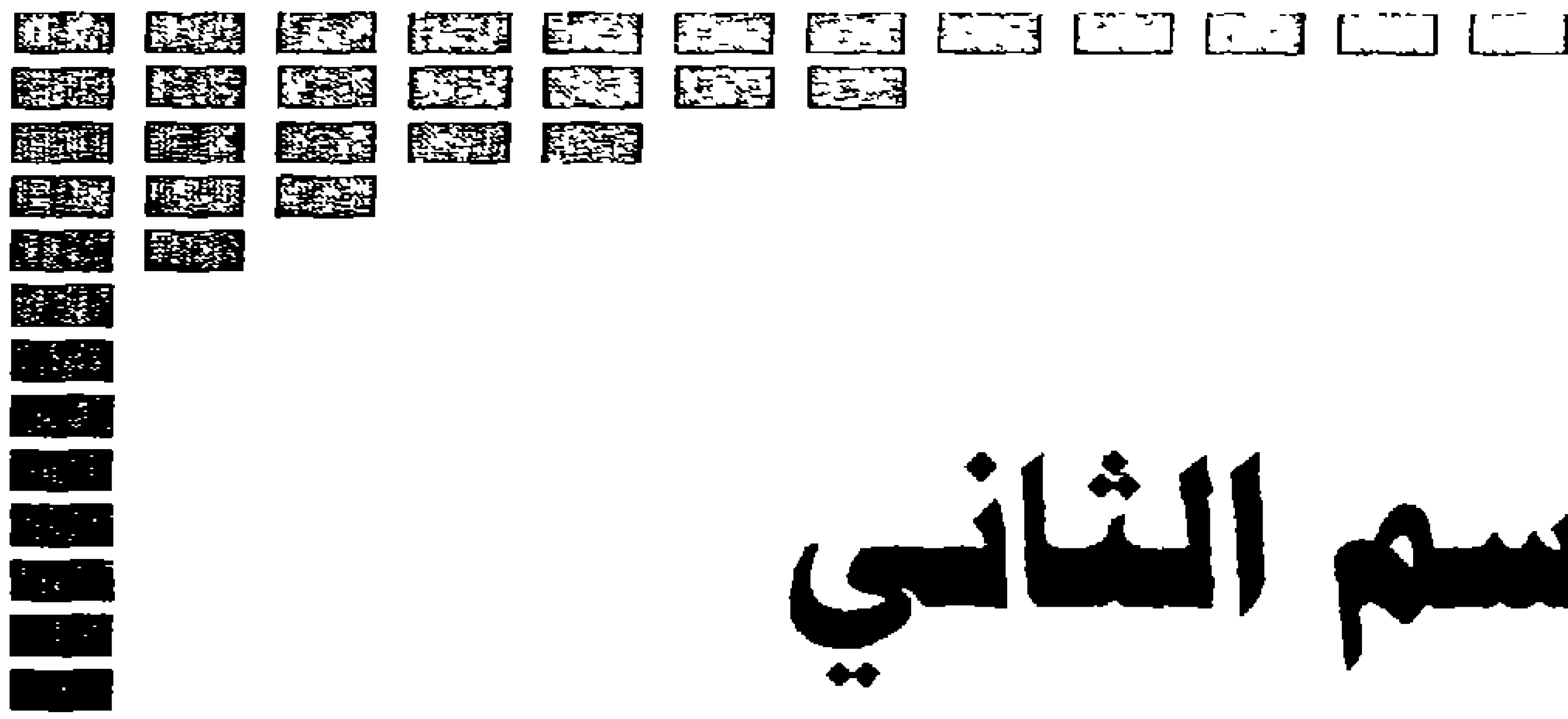
فأهل القرية اللئام الذين طُلِبَ منهم الطعام لم يكونوا قادرين على تحمل أمانة حفظ الكنز للغلامين. فأمر الله العبد الصالح بحجب الكنز عن أهل تلك القرية، إذًا فالمسائل إن جرت على الإنسان بسبب منه فهو الذي فعل الضر بنفسه، أما إذا كان الأمر لا دخل للإنسان فيه فعليه أن يثق بحكمة من يجريه وبذلك يستقبل الإنسان كل شيء يصيبه بالراحة.

إن صاحب الإيمان يلقى الأحداث بقلب قوي، فإن كانت من نفسه فهو يعدل سلوكه، وإن كانت من ربه فهو يثق بحكمة ربه: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ وهذا إيضاح لك حتى تفهم أن أي فعل هو من عند الله، فليس للإنسان في الطاقة أي فاعلية ولكن للإنسان توجيه المخلوق من طاقات وجوارح إلى الطاعة أو إلى المعصية.

ومادام كل من عند الله فهو سبحانه يريد لنا أن نتلو العجب من هؤلاء ونقرأه

فيقول سبحانه: ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ كأن منطق العقل والفكر يقودان إلى ضرورة الفهم، وعندما لا يفهمون ذلك فنحن نستعجب من عدم فهمهم، ولا نستعجب من عدم فهمهم إلا إذا كان الأمر المطروح أمامهم أمرًا يستوعبه العقل، والحق يقول: ﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ وساعة تقول فلان لا يفقه، فهذا معناه أن عقله ممنوع من الفهم، أما عندما نقول: لا يكاد يفقه، فهو يعني: لا يقرب حتى من الفهم. والقول الثاني هو الأكثر بلاغة.





القسم الثاني

مُعجِزات الأنبياءِ والمُرسَلين



الطُّوفَان

لمّا أرسل الله تعالى نوحًا الطَّيْلاً إلى قومه - وكانوا يعبدون الأصنام - دار بينه وبينهم هذا الحوار: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [هود: ٢٥- ٣٥].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - عقب هذه الآية: جاء هذا القول في صُلْب قصة نوح الطَّيْلاً وقد يكون مما أوحى به الله سبحانه لنوح الطَّيْلاً، أو يكون المراد به أنهم قالوا لرسول الله ﷺ مثل هذا الكلام.

والافتراء - كما نعلم - هو الكذب المتعمَّد الذي يناقض واقعًا.

وانظروا إلى كل ما جاء بالمنهج ليلتزم به الفرد، ستجدون أنه مُلزِمٌ للجميع، وستكون الفائدة التي تعود عليك بالتزام الجميع - بما فيهم أنت - فائدة كبيرة،

فإن قال لك المنهج: لا تسرق؛ لهذا أمانٌ لك من أن يسرقك الناس.

ولذلك فساعة تسمع للمنهج، لا تنظر إلى المأخوذ منك، بل التفت إلى المأخوذ لك.

وعلى ذلك لا يمكن أن يكون المنهج افتراء.

ونحن نعلم أن المنهج يؤسِّس في المجتمعات مقاييس عادلة للاستقامة، وحين يُشَرِّع الحق سبحانه تشريعًا، قد يبدو لك أنه يُحِدُّ من حريتك، ولكنه في الواقع يُحقِّق لك منافع متعددة، ويحميكَ من أن يعتدي الآخرون عليك.

وكان الردُّ على الاتهام بالافتراء يتمثَّل في أمرين: إما أن يفتروا مثله، أو أن يتحمَّل هو وِزْرُ إجرام الافتراء.

وإن لم يكن قد افتراه، فعليهم يقع وِزْرُ إجرامهم، باتِّهامه أنه قد افترى.

وأسلوب الآية الكريمة يحذف عنهم البراءة في الشطر الأول منها، ولو جاء بالقول دون احتباك، لقال سبحانه: قل إن افتريته فعليَّ إجرامي وأنتم برآء منه، وإن لم أفترِ فعليكم إجرامكم وأنا بريء.

وجاء الحذف من شِقِّ المقابل من شِقٍّ آخر، وهذا ما يسمَّى في اللغة «الاحتباك»(١) .ا.هـ.

---

(١) الاحتباك: من أساليب البلاغة العربية، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني أن يحذف نظيره في الأول كقوله تعالى: ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء﴾ [النمل: ١٢].

والتقدير: تدخل غير بيضاء، وأخرجها تخرج بيضاء، فحذف من الأول «غير بيضاء» ومن الثاني «وأخرجها».

وقال الزركشي: هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه، كقوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريءٌ مِمَّا تُجرِمُون﴾ [هود: ٣٥]. والتقدير: «إن افتريته فعلي إجرامي وأنتم برآء منه، وعليكم إجرامكم وأنا بريء مما تجرمون» [الإتقان في علوم القرآن: ٣/ ١٨٢، ١٨٣].

الطوفان:

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - : وبعد ألف عام إلا خمسين من جدال نوح عليه السلام لقومه، قال له الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود: ٣٦].

ومجيء ﴿إِلَّا﴾ هنا ليس للاستثناء، ولكنها اسم بمعنى: غير أي: لن يؤمن من قومك غير الذي آمن.

والآية التي نتناولها بخواطرنا تؤكد أنه لا يوجد غير من آمن بنوح عليه السلام من قومه، سوف يؤمن؛ فقد ختم الله المسألة.

وهذا يعطينا تبريرًا لاجتراء نوح عليه السلام على الدعاء على الذين لم يؤمنوا من قومه بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

وكان تبرير ذلك أنه عليه السلام قد دعاهم إلى الإيمان زمانًا طويلاً فلم يستجيبوا، وأوحى له الله تعالى أنهم لن يؤمنوا، وقال له سبحانه: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

والابتئاس هو: الحزن المحبط، وهم قد كفروا وليس بعد الكفر ذنب.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: ٣٧].

وهكذا علم نوح بمسألة الإغراق من خلال الوحي له بصنع السفينة.

ومعنى «اصنع» أي: اعمل الصنعة.

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا لنوح عليه السلام: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾أي: أوجد شيئًا من عدم، إلا أن هذا الشيء سيصنع من شيء آخر موجود، لأن نوحًا عليه السلام قد زرع من قبل شجرة وعاشت معه كل هذه المدة الطويلة، وتضخَّمت في الجذع والفروع.

وبدأ نوح عليه السلام في عملية شقِّ الشجرة ليصنع منها السفينة التي بلغ طولها - كما قيل - ثلاثمائة ذراع وبلغ عرضها خمسين ذراعًا، وبلغ ارتفاعها ثلاثين ذراعًا ومكوَّنة من ثلاثة أدوار لتسع المؤمنين، وزوجين من كل نوع من حيوانات الأرض ودوابِّها وهوامها وسباعها ووحوشها(١).

ونحن قد علمنا أن الشجرة التي زرعها نوح عليه السلام قد تضخَّمت جدًّا لطول المدَّة التي قضاها نوح في دعوته لقومه؛ ونعلم أيضًا أن جذع الشجرة ينمو دائريًا بمقدار دائرة كل عام. وحين نقطع جذع الشجرة نجد أن قطر الجذع مكوَّن من دوائر، وكل دائرة تمثِّل عامًا من عمرها.

وهكذا بلغ حجم الشجرة ما يساعد نوحًا عليه السلام على أن يصنع السفينة.

وقد علَّمه سبحانه بالوحي كيف يصنع السفينة.

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾.

أي: إنك إن توقَّفتَ لأية عقبة، فسوف نُلهمك بما تُواجه به تلك العقبة.

وحين صنع نوح عليه السلام الفُلك احتاج لألواح خشبية، ولابد أن تتماسك تلك الألواح، ولم تكن المسامير قد اختُرعت بَعدُ، فأوحى له الله تعالى أن يربط الألواح بالحبال المجدولة، وقد فعل هذا أحد مكتشفي أمريكا في العصر الحديث، حين صنع سفينة من نبات البَرْدِي وربطها بالحبال المجدولة القوية.

وقال الحق سبحانه في طريقة صنع سفينة نوح عليه السلام: ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ ﴾ [القمر: ١٣].

أي: أن نوحًا عليه السلام قد أحضر ألواحًا من الخشب وربطها بحبال مجدولة، وأحكَم الرَّبط بقدر مقتدر بما لا يسمح بتسرب الماء إلى داخل السفينة.

---

(١) قال الإمام الفخر - رحمه الله تعالى - : «والذي نعلمه أنه - أي الفلك - كان في السّعة بحيث يتسع للمؤمنين من قومه، ولما يحتاجون إليه، ولحصول زوجين من كل حيوان، لأن هذا القدر مذكور في القرآن، فأمّا غير ذلك القدر فغير مذكور»ا.هـ.

مثلما تصنع البراميل الخشبية في عصرنا، حيث يصنعها الصانع من قطع خشبية مستطيلة، ويرتّبها ثم يُحكِم رَبطَها بإطارٍ قويٍّ، وحين يوضع فيها أيُّ سائل، فالخشب يتشرَّب من هذا السائل ويتمدَّد ليسدَّ المَسام، فلا ينضح السائل من البرميل؛ لأن الخشب هو المادة الوحيدة التي تتمدّد بالبرودة على العكس من كل المواد التي تتمدّد بالحرارة.

ولذلك نجد النَّجَّار الحاذق في صنعته هو من يصنع الأثاث أو الأبواب أو الشبابيك في الفصول الرتيبة؛ لأنه إن صنعها في الصيف، سنجد الخشب وهو منكمش، فإذا ما جاء الشتاء تمدَّد ذلك الخشب وسبَّب عدم إحكام إغلاق الأبواب والنوافذ، وكذلك إن صنعها في الشتاء والخشب متمدِّد سيأتي الصيف وتنكمش الأبواب، وتكون لها متاعبها، فلا يسهل ضبط إغلاق الأبواب أو ضبط أي صندوق أو شبَّاك بإحكام.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

أي: لا تحدِّثني في أمر المغفرة لمن ظلموا أنفسهم بالكفر، وهم مَن ارتكبوا الظلم العظيم، وهو الكفر في القمة العقدية، وهي الإيمان بالله تعالى واحدًا أحدًا لا شريك له؛ لذلك استحقوا العقاب، وهو الإغراق.

وهكذا عَلمَ نوح عليه السلام أنَّ صُنْع السفينة مرتبط بلون العقاب الذي سيقع على مَن كفروا برسالته، فهو ومَن آمنوا معه سوف ينجون، أما مَن كفر فلسوف يغرق.

ويبيِّن الحق سبحانه وتعالى ذلك حين يقول: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨﴾ [هود: ٣٨].

وكان السادة والكبراء من ملأ نوح يمرون عليه وهو يصنع السفينة يسخرون منه؛ بما يعني: ها هو بعد أن ادَّعى النبوة يتحوَّل إلى نجَّار، ثم يتساءلون: كيف تصل هذه السفينة من «الموصل» إلى البحر؟!

ولم يكونوا قد علموا ما علمه نوح عليه السلام من أن الماء هو الذي سوف يأتي ليحمل السفينة.

ونحن نلحظ في قول الحق سبحانه: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ تنفيذ الأمر الذي صدر من الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام حين قال سبحانه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: ٣٩].

ونلحظ في قول الحق سبحانه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أن الفعل الذي يعلمه نوح عليه السلام وهو أمر الإغراق سيحدث مستقبلاً.

وما الذي سوف يعلمونه؟ إنه العذاب، أيأتي لنوح ومن معه أم يأتي للذين كفروا من ملأ نوح؟

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾

وفي هذا القول ما يؤكِّد أن نوحًا عليه السلام يعلم أن العذاب سوف يأتيهم؛ لأنهم كفروا وسخروا وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

وقول الحق سبحانه: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ نجد فيه كلمة ﴿وَيَحِلُّ﴾ وهي ضدُّ الرحيل، وتفيد النزول من أعلى إلى مكان الإقامة، فَحَلَّ بالمكان، أي: نزلَ ليقيم به، والضِّدُّ هو الرحيل أو الترحال.

وقول الحق سبحانه: ﴿مُّقِيمٌ﴾ يعني أن العذاب الذي سيحلُّ بهم عذاب دائم.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠].

وكلمة ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ تدل على الغاية وكلمة ﴿ أَمْرُنَا ﴾ تدل على الطوفان، ثم الأمر من الحق سبحانه بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، ومَن آمن معه وكانوا قِلَّة قليلة.

﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾.

ومعنى كلمة﴿ وَفَارَ ﴾ أي: أن الماء قد وصل إلى درجة الغليان.

فالماء يحتوي على هواء بدليل أن السمك يتنفس من الماء، وحين نغلي الماء نرى فقاقيع الهواء وهي تخرج من الماء، ثم يثقل الماء إلى أن تشتد سخونة الغليان، فيفور الماء منثورًا خارج إناء الغليان.

و ﴿ ٱلتَّنُّورُ ﴾ هو المكان الذي تتم فيه عملية الخبز، وخروج الماء من التنور هو علامة مميزة يعلمها نوح عليه السلام ليحمل من يريد نجاتهم، من المؤمنين، ومن متاع الدنيا كله.

وكانت العلامة هي خروج الماء من غير مَظَانِّه وهو التنور.

وقول الحق سبحانه: ﴿ ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾.

تعني أن يحمل من كل الكائنات، وتدل على ذلك كلمة ﴿ كُلٍّ ﴾ المنوَّنة - وتفيد التعميم - أي: احمل في السفينة من كل شيء، تطلبه حياة النَّاجين من جميع أصناف النباتات والحيوانات، حتى الخنزير كان ضمن ما حمله نوح عليه السلام.

والذين يقولون إن تحريم الخنزير جاء؛ لأن نوحًا عليه السلام لم يحمله معه، لم يفطنوا إلى أهمية الخنزير كحيوان يأكل القاذورات وينظف الأرض منها؛ لأن كل كائن له مهمة، وليست مهمة الكائنات فقط أن يأكلها الإنسان.

وكلمة ﴿ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾.

تدل على أن كلمة «زَوج» هي مفرد؛ بدليل قول الحق سبحانه: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١].

إذًا كلمة «زَوجٍ» تعني مفرد معه مثله، كزوج من الأحذية مثلاً.

أقول ذلك حتى لا نأخذ كلمة «الزوج» على أنها اثنان.

وواصل نوح عليه السلام تنفيذ أمر الحق سبحانه: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يستبقى الحياة بنجاة كل ما تحتاجه الحياة بالسفينة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١﴾ [هود: ٤١].

هذه هي المرحلة الأخيرة في قصة السفينة، ظل نوح عليه السلام يصنع الفلك حتى جاءت إشارة البدء بعلامة: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾.

وحَمَل نوح عليه السلام في الفُلك - بأمر من الله تعالى - من كل شيء زوجين اثنين، وأهله ومَن آمن معه.

وقال نوح عليه السلام لمن آمن: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾.

وهذا القول منسوب لنوح عليه السلام؛ لأنه أضاف: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولكن الله تعالى يقول هنا: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ ولم يقل: «اركبوا عليها».

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك؛ ليعطينا لقطة عن طريقة صنع السفينة، فقد صنعها نوح عليه السلام بوحي من الله تعالى على أفضل نظام في البواخر، ولم يصنعها بطريقة بدائية، فهم - إذًا - لم يركبوها على سطحها، بل تم بناؤها بما يتيح لهم السكن فيها، خصوصًا وأن تلك السفينة تحمل وحوشًا وهوامًا وحيوانات بجانب البشر، لذلك كان لابد من بنائها على هيئة طبقات وأدوار.

وقول نوح عليه السلام: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾.

يعلِّمنا أن جريانها إنما يتمُّ بمشيئة الله تعالى وأنهم يركبون فيها، لا لمكانتهم الشخصية، ولكن لإيمانهم بالله تعالى.

وقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إنما يقصد أن هؤلاء المؤمنين برسالة نوح كانوا من البشر، ولم يطبّقوا - كغالبية البشر - كل التكاليف؛ لأنهم ليسوا ملائكة.

لذلك قَدَّر الحق سبحانه وتعالى إيمانهم وعفا عن بعض الذنوب التي ارتكبوها ولم يؤاخذهم بها.

هذه هي الميزة في قول: «بسم الله الرحمن الرحيم».

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك يَصفُ السفينة ورُكَّابها: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: ٤٢].

وجرت بهم السفينة، لا بين موج هائج فحسب، ولكن كان الموج كالجبال، وهذا يدل على أنها مُسيّرة بقوة عالية لا تؤثر فيها الأمواج، ثم يجيء الحديث عن عاطفة الأبوة حين ينادي نوح ابنه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾.

ورفض الابن مطلب أبيه معتمدًا على أن الجبل يحميه.

وفي هذا يقول الحق سبحانه مبينًا مُراد الابن في مُخالفة مراد أبيه: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٣].

هكذا ظن ابن نوح أنه سينجو إن آوى إلى جبل، لعل ارتفاع الجبل يعصمه من الغرق، لكن نوحًا عليه السلام يعلم أن لا نجاة لكافر، بل النجاة فقط هي لمن رحمه الله بالإيمان.

وهكذا فرَّق الموج بين نوح وابنه، وغرق الابن.

وأراد الحق سبحانه أن يُنهي الكلام عن نوح عليه السلام، فجاء بلقطة استواء السفينة على الجودي.

ويقال: إن جبل «الجودي» يوجد في «الموصل» ويقال: إنه ناحية الكوفة، وإن كان هذا القول مجرد علم لا ينفع، والجهل به لا يضر.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود: ٤٤].

والبلع هو مرور الشيء من الحلْق ليسقط في الجوف، وساعة أن يأتي في القرآن أمر من الله تعالى مثل: ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾.

فافهم أن القائل هو من تَنصَاع له الأرض.

ولم يَقُل الله سبحانه: «قال الله يا أرض ابلعي ماءك»؛ لأن هناك أصلاً متعيّنًا وإن لم يقُله، والحق سبحانه يريد أن ينمّي فينا غريزة وفطنة الإيمان، لأن أحدًا غير الله تعالى ليس بقادر على أن يأمر الأرض بأن تبلع الماء.

ويكون أمره سبحانه للسماء: ﴿ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ أي: أن تُوقِف المطر.

وهكذا يُنهي الحق سبحانه الطوفان الذي أغرق الدنيا بأن أوقف المصبَّ، وأعطى الأمر للمصرف أن يسحب الماء.

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ أي: اتركي المطر.. ومن ذلك أخذنا كلمة «قِلْع» الذي يوضع فوق السفن الشراعية الصغيرة، وهو الشِّراع.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ .

وبناها الحق سبحانه هنا للمجهول؛ لنعلم أن الله تعالى هو الذي أمر الماء بأن يغيض.

ومادة «غاض» تستعمل لازمةً، وتُستعمل متعديةً.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ﴾.

أي: استقرت السفينة على جبل الجودي.

ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

وهو بعدٌ نهائيٌّ إلى يوم القيامة.

وتتحرك عاطفة الأبوة في نوح عليه السلام، ويظهرها قول الحق سبحانه: ﴿ وَنَادَىٰ

نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٥].

وعاطفة الأبوة عاطفة محمودة، والحق سبحانه يشحن بها قلب الأب على قَدْر حاجة البنوة، ولو لم تكن تلك العاطفة موجودة، لما تحمَّل أيُّ أبٍ أو أيُّ أمٍّ متاعب تربية الأبناء.

وسنلحظ أن قلب الأب والأم يكون مع الفقير، لا مع الغَنيِّ، فعاطفة الأبوة والأمومة تكون مع الضعيف والمريض والغائب، وكلما كان الابن في حاجة؛ كانت العاطفة معه.

وفي نداء نوح عليه السلام لربه سبحانه نلحظ أن نوحًا كان يملك المبرِّر طلبًا لنجاة الابن، لأن الحق سبحانه أمره بأن يحمل في السفينة من كلٍّ زوجين اثنين وكذلك أهله، فأراد نوح عليه السلام أن يطلب النجاة لابنه لأنه من أهله، فقال: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

إذًا فنوح عليه السلام يملك حق الدعاء؛ لأنه يطلب تحقق وعد الله تعالى بأن يحمل أهله معه للنجاة.

وحين يقول نوح: ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ هو إقرار بأن الله سبحانه لا يخطئ؛ لأن الابن قد غرق، بل لابد أن ذلك الغرق كان لحكمة.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦].

ويريد الحق سبحانه هنا أن يُلفتَ نبيَّه نوحًا إلى أن أهليَّة الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم، ولكنها أهلية المنهج والاتِّباع، وإذا قاس نوح عليه السلام ابنه على هذا القانون، فلن يجده ابنًا له.

ألم يقل نبينا ﷺ عن سلمان الفارسي: «**سَلْمَانُ مِنَّا آل البيت**»(١).

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٩٨) من حديث عمرو بن عوف المزني.

=

إذًا فالبنوة بالنسبة للأنبياء هي بنوة اتِّباع، لا بنوة نَسَب.

وانظر إلى دقة الأداء في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ ﴾.

ثم يأتي سبحانه بالعلة والحيثية لذلك بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ ﴾

فكأن البنوة هنا عمل، وليست ذاتًا، فالذات منكورة هنا، والمذكور هو العمل، فعمل ابن نوح جعله غير صالح أن يكون ابنًا لنوح.

وهكذا نجد أن المحكوم عليه في البنوة للأنبياء ليس الدم، وليس الشحم، وليس اللحم، إنما هو الاتِّباع بدليل أن الحق سبحانه وصف ابن نوح بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ ﴾ ولو كان عملاً صالحًا لكان ابنه.

﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾.

والحق سبحانه يطلب من نوح أن يفكِّر جيِّدًا قبل أن يسأل، فلا غبار على الأنبياء حين يربِّيهم ربُّهم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧ ﴾ [هود: ٤٧].

وهنا يدعو نوح عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن يغفر له ما قاله، وهو هنا يقرُّ بأنه لما أحبَّ أن يسأل نجاة ابنه لم يستطع أن يكتم سؤاله، ولكن الحق سبحانه وتعالى وحده هو القادر على أن يمنع من قلبه مثل هذا السؤال، وهذه قمة التسليم لله تعالى.

وقول نوح عليه السلام: ﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ ﴾.

يوضِّح لنا أن الإنسان لا يعوذ من شيء بشيء إلا إن كانت قوته لا تقدر على أن تمتنع عنه.

ولذلك يستعيذ نوح عليه السلام من أن يسأل ما ليس له به علم، ويرجو مغفرة الله سبحانه وتعالى ورحمته حتى لا يكون من الخاسرين.

= قال الذهبي والعجلوني: سنده ضعيف.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٤٨].

وقول الحق سبحانه: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾.

يدل على أن نوحًا الطَّيْلا قد تلقَّى الأمر بالنزول من السفينة ليباشر مهمته الإيمانية في أرض فيها مقومات الحياة، مما حمل في تلك السفينة من كلٍّ زوجين اثنين، ومن معه من المؤمنين الذين أنجاهم الله تعالى، وأغرق مَن قالوا عليهم إنهم أراذل.

وقول الحق سبحانه: ﴿أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ﴾.

تضمَّن أهل نوح الطَّيْلا ومَن آمن به، وكذلك أمم الوحوش والطيور والحيوانات والدواب.

أي أنها إشارة إلى الأمة الأساسية، وهي أمة الإنسان وإلى الأمم الخادمة للإنسان، وهكذا توفرت مقومات الحياة للمؤمنين، ويتفرَّغ نوح وقومه إلى المهمة الإيمانية في الأرض.

وقول الحق سبحانه: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾.

والمقصود بالسلام هو الأمن والاطمئنان، فلم يَعُدْ هناك من الكافرين ما ينغِّص على نوح الطَّيْلا أمره، ولن يجد من يكدِّر عليه بالقول: ﴿جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢].

ولن يجد مَن يتهمه بالافتراء.

ومَن بقى مع نوح هم كلهم من المؤمنين، وهم قد شهدوا أن نجاتهم من الغرق قد تمت بفضل المنهج الذي بلَّغهم به نوح عن الله تعالى.

وقول الحق سبحانه: ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾.

يعني أن الحق سبحانه يبارك في القليل ليجعله كثيرًا.

وكان يجب أن تأتي هنا كلمة ﴿وَبَرَكَـٰتٍ﴾ لأن ما يحمله نوح الطَّيْلاً من كلِّ زوجين اثنين إنما يحتاج إلى بركات الحق سبحانه وتعالى ليتكاثر ويكفي.

وقول الحق سبحانه: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هذا القول يناسب الطبيعة الإنسانية، فقد كان المؤمنون مع نوح الطَّيْلاً هم الصفوة، وبمضيِّ الزمن طرأت الغفلة على بعضٍ منهم، ويأتي جيل من بعدهم فلا يجد الأسوة أو القدوة، ثم تحيط بالأجيال التالية مؤثرات تفصلهم تمامًا عن المنهج.

والحق سبحانه يتحدث في هذه الآية عن الذين بقوا مع نوح الطَّيْلاً وهم صفوة من المؤمنين، لكن منهم من ستطرأ عليه الغفلة، وسيمتِّعهم الله سبحانه وتعالى أيضًا بمتاع الدنيا، ولن يضنَّ عليهم، ولكن سَيَلحقُهم العذاب.

فإذا ما جاء جيل على الغافلين فهو يخضع لمؤثِّرين اثنين:

المؤثر الأول: غفلته هو.

المؤثر الثاني: أسوة الغافلين من السابقين عليه.

ونحن نعلم أن من ذرية نوح الطَّيْلاً «قوم عاد» الذين أرسل الحق سبحانه إليهم هودًا الطَّيْلاً، وكذلك «قوم ثمود» الذين أرسل إليهم أخاهم صالحًا الطَّيْلاً، وقوم لوطٍ، وهؤلاء جميعًا رَانَتِ الغفلة على قلوبهم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾ [هود: ٤٩].

وكلمة ﴿تِلْكَ﴾ إشارة وخطاب، والمخاطب هو رسول الله ﷺ، و«التاء» إشارة إلى السفينة وما تبعها من أنباء الغيب، ولم يكن رسول الله ﷺ معاصرًا لها ولا يعلمها هو، ولا يعلمها أحد من قومه.

وأنت يا رسول الله لم يُعلَم عنك أنك جلستَ إلى معلِّم، ولم يذكر عنك أنك قرأت في كتاب.

إذًا فمادمتَ يا محمد لم تقرأ ولم تتعلَّم عن معلِّم فمَن علَّمك؟

إنما عَلَّمك الله سبحانه.

وكأن الله سبحانه وتعالى علَّم رسول الله ﷺ قصة نوح عليه السلام وأراد بها إلقاء الأسوة وإلقاء العبرة لرسول الله ﷺ حتى يثق بأن كل رسول إنما يصنع حركته الإيمانية المنهجية بعين من الله، وأنه سبحانه لن يسلِّمه إلى خصومه ولا أعدائه.

ولذلك يأتي القول الكريم: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ ؛ لأنك قد عرفت الآن نتيجة صبر نوح عليه السلام الذي استمر ألف سنة إلا خمسين، ويأتي بعدها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.



ناقةُ صالح عليه السلام

سكنت قبيلةُ «ثمود» في مكان يُسمّى «الحِجْر»[(١)]، وكانوا يعبدون الأصنام من دون الله تعالى، فأرسل الله إليهم نَبيَّه صالح عليه السلام.

وعن قصّته مع قومه، يقول الحق - سبحانه - في سورة «هود»: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١]

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه يبيِّن لنا هنا أنه أرسل إلى ثمود واحدًا منهم وهو صالح عليه السلام.

وجاء الحق سبحانه بلفظ ﴿أَخَاهُمْ﴾ ليبين العلاقة التي بين صالح عليه السلام وقومه، فهو قد نشأ بينهم، وعرفوه وخبروه، فإذا ما جاءهم بدعوة - وقد لمسوا صدقه - فلابد أن يؤمنوا بما جاء به من منهج.

وناداهم صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾، وهي من القيام، يعني: يا من تقومون للأمور، والذي يقوم على الأمر عادة هم الرجال؛ لأن أمر النساء مستور - دائمًا - في طي الرجال، فليس كل حكم من أحكام الدين يأتي فيه ذكر المرأة، بل نجد كثيرًا من الأحكام تنزل للرجال، والنساء مطويات على الستر في ظل الرجال، والرجل يشقى ويكدح، والمرأة تدير حياة السُّكْنى وتربية الأولاد.

ونعود إلى الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

---

(١) قال تعالى: ﴿ولقد كذب أصحاب الحِجر المرسلين﴾ [الحجر: ٨٠].

والعبادة تقتضي تلقي أوامر الإله المعبود بـ«افعل» و «لا تفعل» في كل حركة من حركات الحياة.

فكان أول شيء طلبه صالح من قومه ثمود ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ وأمر عبادة الله وحده مطلوب من كل أحد، ولا يسع أحدًا مخالفته.

﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾.

تقرير واقع لا تستطيعون تغييره، فليس لكم إله آخر غير الله، مهما حاولتم ادعاء آلهة أخرى.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾.

والإنشاء هو الإيجاد ابتداء من غير واسطة شيء، ويقال: أنشأ، أي: أوجد وجودًا ابتداءً من غير الاستعانة بشيء آخر.

و ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي: طلب منكم عمارتها، وهذا يتطلب أمرين اثنين: أن يُبقى الناس الأمر الصالح على صلاحه، أو يزيدوه صلاحًا.

﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾.

فإن استغفر الإنسان، فالحق سبحانه قريب من كل عبد يستغفر عن ذنوب لا تمثل حقوقًا للناس، والله سبحانه وتعالى يجيب لطالب المغفرة.

فماذا كان الرّدُّ من قوم ثمود؟

يقول الحق عز وجل ما جاء على ألسنتهم: ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [هود: ٦٢].

كانوا ينظرون إلى صالح عليه السلام بتقدير ورجاء قبل أن يدعوهم لعبادة الله تعالى وحده، ولا إله غيره.

والمرجوُّ هو الإنسان المؤمَّل فيه الخير، ذكاءً، وطموحًا، وأمانة، وأية خصلة

من الخصال التي تبشر بأن له مستقبلاً حسنًا.

ولكن ما إن دعاهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله سبحانه وتعالى أعلنوا أنه - بتلك الدعوة - إنما يفسد رجاءهم فيه وما كانوا يأملونه فيه.

وأضاف قوم ثمود: ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾.

والشك هو استواء الطرفين: النفي والإثبات.

إذًا فهم ليسوا على يقين أن عبادتهم لما عبد آباؤهم هي عبادة صادقة، ودعوة صالح عليه السلام لهم جعلتهم يترددون في أمر تلك العبادة؛ وهذا يُظهر أن خصال الخير في صالح عليه السلام جعلتهم يترددون في أمر عبادتهم.

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لثمود: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَـٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾ [هود ٦٣].

وكأن صالحًا قد ارتضاهم حكمًا فقال: أخبروني إذا كنت أنا على بينة من ربي ويقين بأنه أرسلني وأيّدني، وأنا إن خدعت الناس جميعًا فلن أخدع نفسي، فهل أترك ما أكرمني به ربي وأنزل إليَّ منهجًا أدعوكم إليه؟ هل أترك ذلك وأستمع لكلامكم؟ هل أترك يقيني بأنه أرسلني بهذه الرسالة ﴿ وَءَاتَـٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ وهي النبوة؟

﴿ فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ﴾.

وساعة يستفهم إنسان عن شيء في مثل هذا الموقف فهو لا يستفهم إلا عن شيء يثق أن الإجابة ستكون بما يرضيه.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان صالح عليه السلام: ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾.

ونحن نعلم أن الخسارة ضد المكسب، ومعنى الخسارة أن يقل رأس المال، فهل التخسير واقع منه عليهم أم واقع منهم عليه؟!

إن ثراء الأسلوب القرآني هنا يوضح لنا هذه المعاني كلها، فإن أطاعهم صالح عليه السلام وعصى ربه، فهو قد أزاد في خسارته، أو أنه ينسبهم إلى الخسران أكثر، لأنهم غير مهديين، ويريدون له أن يضل ويتبع ما يعبدون من دون الله تعالى.

إذًا فالتخسير إمّا أن يكون واقعًا عليهم من صالح عليه السلام وإمّا أن يكون واقعًا منهم على صالح.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان صالح عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾﴾ [هود: ٦٤].

وكان قوم صالح قد طلبوا آية، فقالوا له: إن كنت نبيًّا فأخرج لنا ناقة من تلك الصخرة[1]، وأشاروا إلى صخرة[2] ما، وهم قوم كانوا نابغين في نحت بيوتهم في الجبال، ومن يَزُرْ المنطقة الواقعة بين الشام والمدينة، يمكنه أن يشاهد مدائن صالح، وهي منحوتة في الجبال.

وقد قال فيهم الحق سبحانه: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء: ١٤٩].

هم - إذًا - قد حددوا الآية، وهي خروج ناقة من صخرة أشاروا إليها، فخرجت الناقة وهي حامل.

وبعد أن وُجدت الناقة على وفق ما طلبوها لم يطيقوا أن يعلنوا التصديق، وقد قال لهم صالح عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾.

وساعة تسمع شيئًا مضافًا إلى الله تعالى، فاعلم أن له عظمة بعظمة المضاف إليه.

---

(١) واشترطوا أن تكون عشراء!!

(٢) قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في «تفسيره» (٤/ ٣٣٧٨): «قيل: أخرجها من صخرة صمّاء منفردة في ناحية الحِجْر يقال لها: الكاثبة» ا.هـ.

وقد قال لهم صالح : ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾ وهي ليست ناقة زيد أو ناقة عمرو.

ولم يلتفت قوم صالح إلى ما قاله صالح عليه السلام، ولم يلحظوا أن الشيء المنسوب لله تعالى له عظمة من المضاف إليه.

وكان من الممكن أن يأتي لهم صالح عليه السلام بشجرة من الصخر، وهذا أمر فيه إعجاز أيضًا، ولكن الحق سبحانه أرسل الآية كما طلبوها، ناقة من جنس الحيوان، وحامل في الوقت نفسه.

وطالبهم صالح عليه السلام أن يحافظوا عليها؛ لأنها معجزة، عليهم ألا يتعرضوا لها، وقال لهم: ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾.

وهكذا وعظهم، وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله، وإن مسّوها بسوء ولم يأخذهم عذاب، فمن آمن به لابد أن يكفر.

إذًا فلابد أن يأتي العذاب القريب إن هم مسّوها.

وهم قد مسّوها بالفعل(١)، وهو ما تبينه الآية الكريمة التالية: ﴿ فَعَقَرُوهَا

---

(١) في موطن آخر: قال صالح ﷺ لقومه: ﴿**هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم. ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم**﴾ [الشعراء: ١٥٥، ١٥٦]. فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم، ترعى حيث شاءت من أرضهم، وَتَرِدُ الماء يومًا بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم، ويقال: إنهم كانوا يشربون لبنها كفايتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿**لها شرب ولكم شرب يوم معلوم**﴾، وقال تعالى: ﴿**ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر**﴾ [القمر: ٢٨] أي: أن الناقة كانت تشرب ماء البئر في يوم وتتركه لهم في يوم، وتحيل الماء الذي شربته إلى لبن يكفي جميع قوم صالح!!. فلمّا طال عليهم هذا الحال اجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا الناقة ليستريحوا منها ويتوفّر عليهم ماؤهم، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم، واستحبّوا العمى على الهدى، واستعجلوا العذاب.
ذكر ابن جرير وغيره: أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما: صدوق، وكانت ذات حسب ومال، وكانت تحت رجل ففارقته، فدعت ابن عمّ لها يقال له: «مصرع بن مهرج» =

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝﴾ [هود: ٦٥].

وجلسوا في منازلهم ثلاثة أيام[1] ثم جاءهم العذاب.

ولقائل أن يقول: ولمَ الإمهال بثلاثة أيام؟

ونقول: إن العذاب إذا جاء فالألم الحسِّي ينقطع من المعذَّب، ويشاء الله تعالى أن يعيشوا في ذلك الألم طوال تلك المُدَّة حتى يتألموا حسِّيًا، وكل يوم يمرُّ عليهم تزداد آلامهم من قرب الوعيد الذي قال فيه الله تعالى: ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

الحق سبحانه هو الذي يَعِدُ، وهو القادر على إنفاذ الوعد، ولا تقوم قوة أمامه؛ لذلك فهو وعد صادق غير مكذوب.

على عكس الإنسان منا حين يَعِدُ بشيء، فمن الممكن أن يأتي وقت تنفيذ الوعد ولا يستطيع.

ويعطي الحق سبحانه في كل لقطة إيمانية من اللقطات، قدرته على خلقه فهو

= وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، واسم الأخرى: «عنيزة» وكانت عجوزًا كافرة، لها بنات من زوجها «ذؤاب بن عمرو» أحد الرؤساء، فعرضت بناتها الأربع على «قِدارُ بن سالف» - وكان يقال: إنه ولد زانية - إن هو عقر الناقة فله أيّ بناتها شاء، فانتدب هذان الشّابان لعقرها وسعوا في قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿**وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون**﴾ [النمل: ٤٨].

فانطلقوا يرصدون الناقة، فلمّا صَدَرت، كَمِنَ لها «مصرع» فرماها بسهم فانتظم عَظْم ساقها، فأسرع «قدارُ بن سالف» فشدّ عليها بالسّيف فكشف عن عرقوبها فخرّت ساقطة على الأرض، قال رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب: «**ألا أحدِّثك بأشقى الناس؟**» قال: بلى. قال: «**رَجُلان: أحدهما أحيْمَر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضرِبُك يا عَليّ على هذا - يعني: قَرْنه - حتى تبتل هذه - يعني لحيته**» صحيح: رواه الحاكم.

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٩٧) أن عقرها كان يوم الأربعاء، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت، وأتاهم العذاب يوم الأحد، وإنما قاموا ثلاثة أيام، لأن الفصيل رغا ثلاثًا، فاصفرت ألوانهم في اليوم الأول، ثم احمّرت في الثاني، ثم اسودّت في الثالث، وهلكوا في الرابع، وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٩).

سبحانه القائل: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾.

وقوله: ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ لأن من هؤلاء الذين كفروا قومًا في مكان يختلف عن مكان آخر يوجد به أيضًا قوم كافرون، ومنهم المسافر، ومنهم العائد من سفر، فتتبعهم العذاب حيث كانوا، فلم ينزل على مكان واحد، إنما نزل على المكين منهم في أي مكان.

ولم يَنْجُ من هذه المسألة إلا واحد اسمه «أبو رغال»[1]، وكان يحج إلى بيت الله، فلم يتبعه عذابه في بيت الله؛ لأن الله سبحانه طلب منا نحن عباده أن نؤمِّن من دخل بيته، فهو سبحانه وتعالى أولى بأن يؤمِّن من دخل البيت الحرام[2]، وظل الحجر الذي سيُضرب به، أو الصيحة التي كان عليها أن تأخذه، ظلت إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه.. وعَمَّ العذابُ الكافرين من قوم صالح، وتتبع من في الديار إلا هذا الرجل، وما إن خرج من البيت الحرام حتى وقع عليه العذاب[3].

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحِجر قال: «**لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يومًا ويشربون لبنها يومًا فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله بها مَن تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحدًا كان في حرم الله**» فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «**أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه**» أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٢٩٦)، والحاكم في «مستدركه» (٢/ ٣٢٠، ٥٦٧)، وصحح إسناده. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٠): رجال أحمد رجال الصحيح، قلت: هم أيضًا رجال الإسناد الأول.

(٢) يقول رب العزة سبحانه: ﴿**إن أول بيت وُضع للناس للذي بِبكة مباركًا وهدى للعالمين. فيه آيات بيناتٌ مَقامُ إبراهيم ومن دَخَلهُ كان آمنًا ..**﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧] أي: يكون آمنًا مطمئنًا لا يخاف على نفسه أو ماله، ولذلك قال تعالى: ﴿**أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم**﴾ [العنكبوت: ٦٧].

(٣) ذكر ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٢٩): «أن جارية كانت مقعدة واسمها كلبة ابنة السلق =

ولذلك كان قاتل الأب أو الإنسان الذي عليه دم نتيجة أنه ارتكب جريمة قتل، إذا ما دخل البيت الحرام فهو يُؤمَّن إلى أن يخرج، وكانوا يُضيِّقون عليه، فلا يطعمه أحد، ولا يسقيه أحد ليضطر إلى الخروج، فيتم القصاص منه بعد خروجه من البيت الحرام، ولتظل حرمة البيت الحرام مُصَانة.

ونحن نعلم أن الحق سبحانه أراد من تحريم القتال في البيت الحرام، صيانة وتكريمًا للكرامة الإنسانية.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦﴾ [هود: ٦٦].

فحين شاء الحق أن يُنزل العذاب بثمود، بعد مُضيِّ المدة التي أنذروا بنزول العذاب بعدها، نجَّى الحق صالحًا عليه السلام والذي آمنوا برسالته من الهلاك، فحفظتهم رحمة الله؛ لأنهم آمنوا بما نزل على صالح من منهج، ولم يُعَانِ المؤمنون برسالة صالح ما عانى منه قوم ثمود من الذل والفضيحة.

هذا الذل وتلك الفضيحة التي حاقت بثمود.

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

هذا خطاب لمحمد ﷺ تسلية وتسرية عنه وتقوية لعزمه، فالحق سبحانه مقتدر يأخذ كل كافر، ولا يغلبه أحد ولا يعجزه شيء، وفي هذا إنذار لمن كفروا برسالة رسول الله ﷺ.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧﴾ [هود: ٦٧].

= ويقال لها: الذريعة، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب أطلعت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع من شيء، فأتت حيًّا من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استسقتهم من الماء فلما شربت ماتت».

ويسمي الحق سبحانه هنا العذاب الذي نزل على ثمود «الصيحة» وسمّاه في موضع آخر «الطاغية»: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ ﴾ [الحاقة: ٥].

وسمّاه في موضع آخر «صاعقة» فقال سبحانه: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝ ﴾ [فصلت: ١٣].

وفي سورة الأعراف سمّاه «الرجفة»، وكل من الصاعقة والصيحة والرَّجْفة تؤدّي معنى الحدث الذي يَدهَمُ، ولا يمكن الفكاك منه.

ثم قال سبحانه: ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ أي: مُلقون على رُكَبهم وعلى جباههم بلا حركة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ۝ ﴾[هود: ٦٨].

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ ﴾ أي: لم يقيموا فيها، لأنها صارت حصيدًا.

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية: ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ ﴾ وهذه هي حيثية العذاب الذي نزل بهم.

وعادة ما تتعدى كلمة «كفر» بالباء، ويقال: كفروا بربهم، ولكن الحق سبحانه يقول هنا: ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ ﴾.

والفارق كبير بين المعنيين، فمعنى ﴿ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ ﴾ أي: ستروا وجوده، فلا وجود له، ولكن معنى «كفروا بربهم» هو اعتراف بالله الموجود، لكنهم لم يؤمنوا به.

وقوله سبحانه: ﴿ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ ﴾ يرد على الملاحدة الذين لا يقرون بوجود الله، لأن ذنب إنكار وجود الله ليس بعده ذنب، ولا يوجد ما هو أكبر منه في الذنوب.

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾.

أي أنهم يستحقون ما وقع عليهم من إهلاك وطرد من رحمة الله، ولن يعطف عليهم أحد لضخامة ذنبهم.



الذِّبْحُ الْعَظِيم

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - : حينما ابتلى اللَّهُ سَيِّدنا إبراهيم عليه السلام بأن يذبح ولده إسماعيل، جاءه الابتلاء لا بوحي صريح، ولكن برؤيا منامية وهو ابتلاء شاق، فلم يكن الابتلاء - مثلاً - أن يذبح إنسان آخر سيدنا إسماعيل، ثم يصبر سيدنا إبراهيم على فقده، لا بل هو الذي يقوم بذبح ولده إسماعيل، وهكذا كان الابتلاء كبيرًا، خصوصًا أنه لم يأت إلا في آخر العمر، وكانت هذه المسألة من الملابسات القاسية على النفس، ولذلك أوضح ربنا عز وجل أن سيدنا إبراهيم كان أمة، أي اجتمعت فيه صفات الإيمان اللازمة لأمة كاملة.

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ولنر رحموت النبوة في سلوك سيدنا إبراهيم عليه السلام حين جاء لينفذ أمر الرؤيا بذبح الابن لأن رؤيا الأنبياء وحي؛ لذلك لم يشأ أن يأخذ ولده أخذًا دون أن يطلعه على الحقيقة؛ لأنه لو فعل ذلك سيعرض ولده لحظة لهاجس عقوق لأبيه، وقد يقول الابن: أي رجل هذا الذي يذبح ابنه؟ وأراد سيدنا إبراهيم أن يشاركه ابنه كذلك في الثواب، وأن يكون الابن خاضعًا لأمر الحق تبارك وتعالى كأبيه فقال له: ﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وهكذا أوضح سيدنا إبراهيم عليه السلام الابتلاء الذي جاءه كرؤيا في المنام.

فماذا يقول الابن إجابة على سؤال أبيه؟ ﴿ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

أي أن إسماعيل عليه السلام أسلم زمامه لأمر الحق تبارك وتعالى، ويواصل المولى سبحانه وتعالى وصف ابتلاء سيدنا إبراهيم بذبح الابن فيقول تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٣- ١٠٥].

فبعد أن رضي كل من سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل وسلما أمرهما لله تعالى وامتثلا للأمر بالقضاء، رفع الله برحمته هذا القضاء؛ لذلك يصف الحق تبارك وتعالى هذا البلاء وتكرمه بالفداء فيقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ [الصافات: ١٠٦، ١٠٧].

وتعلمنا هذه الواقعة أيها المسلم أنك إذا ما جاء لك قضاء من الله، إياك أن تجزع، إياك أن تسخط، إياك أن تغضب، إياك أن تتمرد، لأنك بذلك تطيل أمد القضاء عليك، ولكن سلم لقضاء الله فيُرفع هذا القضاء؛ لأن القضاء لا يُرفَع حتى يُرضى به، وهكذا لم يكن جزاء الصبر على القضاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام افتداء إسماعيل بذبح عظيم فقط، بل وزيادة على ذلك يسوق له المولى البشرى بمزيد من العطاء فيقول: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢﴾ [الصافات: ١١٢].

أي أنه لم يرزقه بولد ثان فقط، بل بولد يكون نبيًا وصالحًا، وتأتي زيادة أخرى في العطاء الرباني لسيدنا إبراهيم عليه السلام فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢﴾ [الأنبياء: ٧٢].

هكذا يتجلى عطاء المولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فلا يعطيه الولد الذي يحفظ ذكره فقط، بل يعطيه الولد الذي يحفظ أمانة الدعوة أيضًا، وكل ذلك نافلة من الله، أي عطاء كريم زائد وفضل كبير لأبي الأنبياء.

الله الله الله الله الله

خضوع النار لإرادة الله تعالى

لـمّا حطّم إبراهيمُ عليه السلام الأصنام، تكالب عليه عُبّادها، وكان من أمره وأمرهم ما قصّه الله تعالى في كتابه في سورة «الأنبياء»: قال الحقُّ - سبحانه - : ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩﴾ [الأنبياء: ٥٩].

أي: لما ذهبوا إلى المعبد الذي يعبدون فيه أصنامهم وجدوها مُحطمة فقالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنه اعتدى على الآلهة السليمة وكسَّرها.

إذًا هذه الآلهة لا تستطيع أن تدفع عن نفسها الضر، وكان عليهم أن يتنبّهوا إلى هذه المسألة، كيف يقبَلُون عبادتها، ولو أوقعتْ الريحُ أحدَهم لكسرته، فيحتاج الإله إلى مَن يُصلح ذراعه ويُرمِّمه ويُقيمه في مكانه، فأيُّ ألوهية هذه التي يدافعون عن حقوقها؟!

﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء: ٦٠].

أي تطوّع بعضهم وقالوا هذا، وكان للقوم يوم مُحدّد يذهبون فيه إلى معبدهم ومكان أصنامهم، ويأخذون طعامهم وشرابهم، ويبدو أنه كان يَومَ عيد عندهم، وقد استعدّ «آزر» لهذا اليوم، وأراد أن يأخذ معه إبراهيم لعلَّ الآلهة تجذبه فيهتدي وينصرف عمَّا هو فيه.

لكن إبراهيم عليه السلام ادّعى أنه مريض، لا يستطيع الخروج معهم، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] .

وعندها عزم إبراهيم على تحطيم أصنامهم وقال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: ٥٧].

سمعه بعض القوم فأخبرهم بأمره.

﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٠] والذكر هنا يعني: بالشر بالنسبة لهم، ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] يعني: اسمه إبراهيم، أو حين نناديه نقول: يا إبراهيم.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنبياء: ٦١].

ومعنى ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: على مَرأى منهم ليشاهدوه بأعينهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي: يشهدون ما نُوقِعه به من العذاب حتى لا يجترئ أحد آخر أن يفعل هذه الفِعلة، ويكون عبرةً لغيره.

﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء: ٦٢].

هنا أيضًا كلام محذوف: فأتَوا به، ثم سألوه هذا السؤال، والاستفهام ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ استفهام عن الفاعل؛ لأن الفعل واضح لا يحتاج إلى استفهام؛ لذلك لم يقُل: أفعلتَ هذا يا إبراهيم، بل اهتم بالفاعل: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ كما تقول: أبنيتَ الدار التي كنت تنوي بناءها؟ فهذا استفهام عن الفِعل، إنما أأنت بنيت الدار، فالمراد الفاعل.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وكأنه يريد أن ينتزع منهم الإقرار بأن هذا الكبير لا يفعل شيئًا، فيُواجههم: فلماذا - إذًا - تعبدونهم؟!

وقَول إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ فيه توبيخ وتبكيت لهم، حيث رَدَّ الأمر إلى مَن لا يستطيعه ولا يتأتّى منه، وقد ضرب الزمخشري - رحمه الله - مثلاً لذلك برجل جميل الخطِّ، وآخر لا يُحسِن الكتابة، فيرى الأخيرُ لوحة جميلة، فيقول للأول: أأنت كاتب هذه اللوحة؟ فيقول: لا بل أنت الذي كتبتها!! تبكيتًا له وتوبيخًا.

ثم يُصرِّح إبراهيم لهم بما يريد: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ وهم لن

يسألوهم؛ لأنهم يعرفون حقيقتهم.

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٤].

أي تنبّهوا وعادوا إلى عقولهم، ونطقوا بالحق: ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يعني: بعبادتكم هذه الأصنام، وأنتم تعلمون أنها لا تنفع ولا تضرُّ، ولا ترى ولا تتكلم.

هكذا واجهوا أنفسهم بهذه الحقيقة وكشفوا عن بطلان هذه العبادة، لكن هذه الصحوة ستكون على حسابهم، وخسارتهم بها ستكون كبيرة، هذه الصحوة ستُفقِدهم السُّلْطة الزمنية التي يعيشون في ظلها، وينتفعون من ورائها بما يُهدَى للأصنام؛ لذلك سرعان ما يتراجعون ويعودون على أعقابهم بعد أن غلبهم الواقع وتذكَّروا ما تجرُّه هذه الصحوة.

﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

فبعد أن جابهوا أنفسهم بالحق ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ والنكسة: أن الأعلى يأتي في الأسفل، وأنتم تعلمونها طبعًا!! ورجعوا يقولون له نفس حجته عليهم ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ وهذا هو التغفيل بعينه.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٦].

يعني: لا ينفعكم بشيء إن عبدتموه ولا يضرّكم بشيء إن تركتم عبادته.

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

﴿ أُفٍّ ﴾ اسم فعل بمعنى أتضجر، فليس اسمًا، ولا فعلاً، ولا حرفًا، إنما ﴿ أُفٍّ ﴾ اسمٌ مدلوله فعل، ففيه من الاسمية، وفيه من الفعلية؛ لذلك يسمونها «الخالفة» لأن كلام العرب يدور على اسم أو فعل أو حرف، مثل هيهات: اسم فعل بمعنى بَعُدَ، فإبراهيم عليه السلام يعبِّر بهذه الكلمة ﴿ أُفٍّ ﴾ عن ضيقه وتضجُّره مِمَّا يفعل قومه من عبادة الأصنام من دون الله.

﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

ونلحظ قولهم ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ بالتضعيف الدالّ على المبالغة، ولم يقولوا مثلاً: احرِقوه، وقد اجتمعوا على هذا الفعل فبنَوا بناءً وضعوا فيه النار، ومكثوا أربعين يومًا يسجرونها بكل ما يمكن أن يشتعل، وبذلك اشتدت حرارة النار، حتى إن الطير الذي يمرُّ فوق هذه النار كان يسقط مشويًا من شدة حرها.

والدليل على ذلك أنهم لما أرادوا إلقاء إبراهيم في النار لم يستطيعوا الاقتراب منها لشدة لَفحها، فصنعوا له منجنيقًا لِيُلقُوه به في النار من بعيد.

وقولهم: ﴿ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ ﴾ حسب اعتقادهم كأن المعركة بين إبراهيم والآلهة، والحقيقة أن الآلهة التي يعبدونها مع إبراهيم وليست ضده فالمعركة - إذًا - بين إبراهيم وبين عُبَّاد الأصنام.

وقولهم: ﴿ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ يعني: إن فعلتم شيئًا بإبراهيم فَحرِّقوه.

ثم يقول الحق سبحانه عن إنجائه لإبراهيم عليه السلام من هذه المَحرقَة: ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

جاء هذا الأمر من الحق الأعلى سبحانه؛ ليخرق بالمعجزة نواميس الكون السائدة، ولا يخرق الناموس إلا خالق الناموس، كما قلنا في قصة موسى عليه السلام: الماء قانونه السيولة والاستطراق، ولا يسلبه هذه الخاصية إلا خالقه؛ لذلك فَرَقه لموسى فُرقانًا - كما قلنا - كلُّ فِرق كالطَّود العظيم، فلا يُعطّل قانون الأشياء إلا خالقها؛ لأن الأشياء لم تُخلق لتكون لها القدرة على قيُّومية نفسها، بل مخلوقة تُؤدِّي مهمة، والذي خلقها للمهمة هو القادر أن يسلبها خواصّها.

وفَرق بين فِعل العبد وفِعل الحق سبحانه: فلو أنَّ في يدك مسدسًا، وأنت تُحسِن التصويب، وأمامك الهدف، ثم أطلقت تجاه الهدف رصاصة، أَلَكَ تحكُّمٌ فيها بعد ذلك؟! أيمكن أن تأمرها أن تميلَ يمينًا أو شمالاً؟!

لكن الحق سبحانه يتحكّم فيها، ويُسيِّرها كيف يشاء، فالحق سبحانه خلق

النار وخلق فيها خاصية الإحراق، وهو وحده القادر على سَلب هذه الخاصية منها، فتكون نارًا بلا إحراق، فليس للنار قيومية بذاتها.

لذلك يقول البعض: بمجرد أن صدر الأمر: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ انطفأت كل نار في الدنيا، فلما قال: ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أصبح الأمر خاصًا بنار إبراهيم دون غيرها، فاشتعلت نيران الدنيا عدا هذه النار، ونلحظ أن الحق سبحانه قيَّد بَردًا بسلام؛ لأن البرد المطلق يؤذي.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٧٠].

والمراد بالكيد هنا مسألة الإحراق، ومعنى الكيد: تدبير خفيّ للعدو حتى لا يشعر بما يُدبَّر له، فيحتاط للأمر، والكيد يكون لصالح الشيء، ويكون ضده، ففي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦].

أي: لصالحه فلم يقُل: كِدنا يوسف إنما كِدنا له، وقالوا في الكيد: إنه دليل ضعف وعدم قدرة على المواجهة، فالذي يُدبِّر لغيره، ويتآمر عليه خُفية ما فعل ذلك إلا لعدم قدرته على مواجهته.

لذلك يقولون: أعوذ بالله من قبضة الضعيف، فإني قويٌّ على قبضة القوي، فإذا ما تمكّن الضعيف من الفرصة لا يدعها؛ لأنه لا يضمنها في كل وقت، أما القوي فواثق من قدرته يستطيع أن ينال خَصمه في أيِّ وقت، ومن هنا قال الشاعر:

وَضَعيفَةً فَإذا أصَابَتْ فُرصَةً ... قَتلتْ كَذلكَ قُدْرَةُ الضُّعفاء

لذلك استدلوا على ضعف النساء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

ومادام أن كيدهن عظيم، فضعفُهن أيضًا عظيم أو حتى أعظم.

ثم يقول تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ والأخسرون جمع أخسر، على وزن أفعل، ليدل على المبالغة في الخُسران، وقد كانت خسارتهم في مسألة حَرق إبراهيم من عِدَّة وجوه: أولاً: أن إبراهيم عليه السلام لم يُصِبه سوء رغم إلقائه في النار، ثم إنهم لم يَسلمَوا من عداوته، وبعد ذلك سيُجازون على فِعلهم، هذا في الآخرة، فأيُّ خُسران بعد هذا؟!.



الرِّيحُ العقيم

سكن قومُ «عاد» بأرض «الأحقاف»[1] في شمال حضرموت وعمان.. والأحقاف الآن رمال هشّة شديدة النعومة، يقال: إنها تبتلع كل ما يقع فوقها!! ويسمّونها منطقة الرمال المتحرّكة.. بالربع الخالي من المملكة العربية السعودية.

وكان قوم «عاد» أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة: «صمدا، وصمودا، وهرا».

فبعث الله - تعالى - أخاهم هودًا عليه السلام فدعاهم إلى الله تعالى.

وعن قصّته عليه السلام مع قومه، يحدِّثنا الحقُّ - سبحانه - في سورة «هود» فيقول: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝ ﴾ [هود: ٥٠].

يفتتح الحق سبحانه الآية بتحنينهم ومؤانستهم بالمرسَل إليهم، فيُخبرهم أنه أخوهم، ولا يمكن للأخ أن يريد لهم العَنَتَ، بل هو ناصح، مأمون عليهم، وعلى ما يبلغهم به.

وحين يقول لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ فهذا للإيناس أيضًا.

ثم يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده؛ لأنهم اتخذوا الله إلهًا، وهذا قمة الافتراء.

والله سبحانه لم يقل: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ إلا لأن الفساد قد طَمَّ.

ويقول سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان هود: ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [هود: ٥١].

وقول هود عليه السلام: ﴿ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ يفيد أنه كان من الواجب أن

---

(١) **الأحقاف**: جمع حقف، وهو رمل مستطيل مربّع فيه انحناء.

يدفعوا أجرًا كبيرًا مقابل منفعتهم بما يدعوهم إليه؛ لأن الأجر الذي تدفعونه في المستأجرات العامة لكم إنما يكون مقابلاً لمنافع موقوتة، لكن ما يقدمه لهم هود عليه السلام هو منفعة غير موقوتة!

ولذلك ترك هود عليه السلام الأجر لمن يقدر عليه، وهو الله سبحانه وتعالى، فهو القادر على كل شيء.

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام مخاطبًا قومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ۝٥٢ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣﴾ [هود: ٥٢، ٥٣].

وهم هنا ينكرون أن هودًا قد أتاهم بِبَيِّنَة أو مُعجزةٍ.

والبينة - كما نعلم - هي الأمارة الدالة على صدق الرسول.

وصحيح أن هودًا هنا لم يذكر معجزته؛ وتناسوا أن جوهر أي معجزة هي التحدي؛ فمعجزة نوح عليه السلام هي الطوفان، ومعجزة إبراهيم عليه السلام أن النار صارت بردًا وسلامًا عليه حين ألقوه فيها.

إذًا فالبينة التي جاء بها هود عليه السلام أنه وقف أمامهم ودعاهم إلى ترك الكفر؛ وهو تحدي القادرين عليه؛ لأنهم أهل طغيان؛ وأهل بطش؛ ومع ذلك لم يقدروا عليه.

وأضاف قوم عاد: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

وقولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾ يعني: وما نحن بتاركي آلهتنا بسبب قولك.

وقولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: وما نحن لك بمصدِّقين.

يقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤﴾ [هود: ٥٤].

معنى الآية الكريمة: وما نقول لك إلا أنَّ آلهتنا أصابتك بسوء؛ سَفَّهتهم وأبطَلتَ ألوهيّتهم، وجئتَ بإله جديد من عندك، فأصابتك الآلهة بسوء - يراد به الجنون - فأخذت تخلط في الكلام الذي ليس له معنى.

ويردُّ عليهم هود عليه السلام بما جاء في نفس الآية: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وهو يُشهِد الله الذي يثق أنه أرسله، ويحمي ذاته، ويحمي عقله؛ لأن عقل الرسولَ هو الذي يدير كيفية أداء البلاغ عن الله.

والحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يرسل رسولاً ولا يحميه.

وقد قال الكافرون عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه مجنون؛ فأنزل الحق سبحانه وتعالى قوله الكريم: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٢ - ٤].

ونحن نعلم أن المجنونَ لا خُلُق له، وفي هذا بيان أن رسول الله ﷺ في قمة العقل؛ لأنه في قمة الخُلُق الطيِّب.

وهنا يُشهد هود عليه السلام قومه ويطالبهم أن يرجعوا إلى الفطرة السليمة، ويحكموا: أهو مجنون أم لا، ويشهدهم أيضًا أنه بريء من تلك الآلهة التي يُشركون بعبادتها من دون الله تعالى.

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام: ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ [هود: ٥٥].

وقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من دون الله، فهم قد عبدوا أصنامًا من دون الله سبحانه، ومطلب هود عليه السلام منهم أن يكيدوا له جميعًا، وهم كثرة طاغية، وهو فرد واحد؛ وإن كادت الكثرة المتجبِّرة لواحد، فمن المتوقع أن يغلبوه، وهو عليه السلام هنا يتحداهم ويطلب منهم أن يعملوا كل مكرهم وكيدهم، وأن يقتلوه لو استطاعوا، وهذا قمة التحدي.

والتحدي هنا معجزة؛ لأنه ساعة يتحداهم فهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى

ينصره، وهو عليه السلام متأكد من قوله: ﴿ أُشْهِدُ ٱللَّهَ ﴾ الذي قاله في الآية السابقة، ولا يمكن أن يرمي مثل هذا التحدي جزافًا؛ لأن الإنسان لا يجازف بحياته في كلمة.

وهو لم يَقُل: ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ إلا إذا كان قد آوى إلى ركن شديد، وإنه ينطق بالكلمة عن إيمان بأن الحق سبحانه سيهبه قدرة على نفاذ الكلمة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان هود عليه السلام: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود: ٥٦]

يعلن لهم هود عليه السلام حقيقة أنه يتوكَّل على الله تعالى الذي لا يعلوهم فقط، ولا يرزقهم وحدهم، بل هو الآخذ بناصية كل دابَّة تدبُّ في الأرض ولها حرية وحركة، والناصية هي مقدّم الرأس، وبها خصلة من الشَّعْر.

ونحن نلحظ أنه عليه السلام قال في صدر الآية: ﴿ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ ﴾ وفي عَجُز الآية قال: ﴿ إِنَّ رَبِّى ﴾، والسبب في قوله: ﴿ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ ﴾ أنهم كانوا قادحين في مسألة ربوبية الحق سبحانه.

لذلك قال عليه السلام في مجال السيطرة: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: أن الإله الواحد سبحانه له مطلق العدالة، ولم يأتِ هنا بشيء يخصُّ أربابهم؛ لأنه هنا يتحدث عن مطلق عدالة الحق سبحانه.

والحق سبحانه وتعالى على صراط مستقيم في منتهى قُدرته، وقَهره وسيطرته، ولا شيء يُفلت منه، ومع كل قدرة الله تعالى اللامتناهية فهو لا يستعمل قهره في الظُّلْم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ [هود: ٥٧].

الفعل ﴿ تَوَلَّوْا۟ ﴾ أصله: «تتولَّوا»، وفي اللغة: إذا ابتدأ فعل بتاءين يُقتصَر على تاء واحدة.

وهكذا يكون المعنى: إن تتولَّوا فقد أبلغتكم المنهج الذي أرسلت به إليكم، ولا عُذر لكم عندي؛ لأن الحق سبحانه لا يعذِّب قومًا وهم غافلون؛ لذلك أرسلني إليكم.

أو أن الخطاب من الله سبحانه لهود عليه السلام ليبيِّن له: فإن تولَّوا فقل لهم: ﴿أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ﴾.

لأن المنهج الذي نزل على الخَلق، أنزله الحق سبحانه وتعالى لصلاح العباد، وهو سبحانه خَلَق أولاً بكل صفات الكمال فيه، ولن يزيده العباد وصفًا من الأوصاف، ولن يسلبه أحد وصفًا من الأوصاف.

ولذلك نقول للمتمردين على عبوديتهم لله كفرًا، وللمتمردين على المنهج بالمعصية:

أنتم ألفتم التمرد؛ إما التمرد في القمة وهو الكفر بالله، وإما التمرد على أحكام الله بمخالفتها، فلماذا لا يتمرد أحدكم على المرض، ويقول: لن أمرض؟! ولماذا لا يتمرد أحدكم على الموت ويرفض أن يموت؟!

إذًا فمادُمتَ قد عرفت التمرد فيما لك فيه اختيار، فهل تستطيع التمرد على أحكام الله القهرية فيك؟!

إنك لن تستطيع، لأنك مأخوذ بناصيتك، والحق سبحانه إن شاء أن يوقف القلب، فلن تستطيع أن تأمر قلبك بعدم التوقف. لذلك قال هود عليه السلام: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾[1] فالله سبحانه رقيب؛ لأنه قيوم قائم على كل أمور كونه.

---

(١) قال الإمام القرطبي – رحمه الله – في «تفسيره» (٩/ ٤٩): «قوله تعالى: **﴿ولا تضرونه شيئًا﴾** أي: بتولّيكم وإعراضكم. **﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾** أي: لكلّ شيء حافظ، «على» بمعنى اللاّم؛ فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء» ا.هـ.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝ ﴾ [هود: ٥٨].

وساعة تسمع: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾.

فأنت تعرف أن هناك آمرًا وأمرًا مُطاعًا، وبمجرد صدور الأمر من الآمر سبحانه يكون التنفيذ؛ لأنه يأمر مَن له قدرة على التنفيذ.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ يعني مجيء الأمر بالعذاب للمخالفين لدعوة هود عليه السلام، وقد تحقَّق هذا العذاب بطريقة خاصة ودقيقة؛ تتناسب في دقتها مع عظمة الآمر بها سبحانه وتعالى.

فحين تأتي ريحٌ صَرصَرٌ[1] أو صَيحةٌ طاغيةٌ، فهذا العذاب من خارجهم، ومادَام العذاب من الخارج، وبقوة من قوى الطبيعة الصادرة بتوجيه الله، فقد يعُمُّ المكذِّبين لسيدنا هود، ومعهم المصدِّقون به وبرسالته، فيكف يتأتَّى أن تذهب الصيحة إلى آذان المكذِّبين فقط، وتخرق تلك الآذان؛ وتترك آذان المؤمنين؟!

إنها قدرة التقدير لا قوة التدمير.

إن مُوجِّه الصيحة قد حدَّد لها مَن تُصيب ومن تترك، وهي صيحة موجَّهة، مثلها مثل حجارة سجِّيل التي رمتها طير أبابيل على أبرهة الحبشي وجنوده، مع نجاةِ جنود قريش بنفس الحجارة؛ ولم تكن إصابة بالطاعون كما ادَّعى بعضٌ من المتفلسفين.

---

(١) **الصِّر**: البرد الشديد. قال تعالى: ﴿**كمثل ريح فيها صرٌّ**﴾ [آل عمران: ١١٧]. وقال تعالى: ﴿**وأما عادٌ فأهْلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية**﴾ [الحاقة: ٦].
قال الإمام محمد بن إسحاق - رحمه الله تعالى - ما مختصره: «فلمّا أبوا إلا الكفر، أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى أجهدهم ذلك، فدعوا الله أن ينزل المطر، فأنشأ الله سحابة سوداء، فلمّا رأوها استبشروا وظنّوا أن فيها مطرًا. وقالوا: ﴿**هذا عارض ممطرنا**﴾ [الأحقاف: ٢٤]، والعارض هنا: السّحاب، فيقول الله تعالى: ﴿**بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمّر كل شيء بأمر ربها**﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥]، فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك.. واعتزل هود عليه السلام في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود وتلذّ الأنفس، وإنها لتمرّ على عاد بالطعن، وتدفعهم بالحجارة» اهـ.

وهذه من أسرار عظمة الحق سبحانه فهو يأخذ بشيء واحد؛ ولكنه يُنجي المؤمن؛ ويعذِّب الكافر؛ فلا يوجد ناموس يحكم الكون بدون قدرة مسيطرة عليه.

يقول المتنبي:

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مِنَّا بِيضَ أوُجُهِنا وَمَا تُسَوِّدُ بِيضَ العَينِ واللَّمَمِ

وَكَانَ حَالُهُما فِي الحُكْمِ واحِدَةً لَو احتكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إلى حَكَمِ

وهكذا يضرب المتنبي المثل بأن جلوس الواحد منا في الشمس؛ يجعل بشرة الأبيض تميل إلى السمرة ولا تسود بياض الشعر، لكنك إن تركت شيئًا أسود في الشمس فترة لوجدته يميل إلى الأبيض؛ ويحدث ذلك رغم أن الفاعل واحد؛ لكن القابل مختلف.

والحق سبحانه يقول هنا: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾.

فلا تقل كيف نجوا من العذاب الجامع والعذاب العام؛ لأن هذه هي الرحمة، والرحمة - كما نعلم - هي ألا يمس الداء الإنسان من أول الأمر؛ أما الشفاء فهو يعالج الداء.

ونحن نلحظ هنا أن الحق سبحانه يذكر في نفس الآية الكريمة نجاتين:

النجاة الأولى: من العذاب الجامع؛ الريح الصرصر؛ من الصيحة؛ من الطاغية، يقول الحق سبحانه: ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

والنجاة الثانية: هي نجاة من عذاب الآخرة الغليظ، فعذاب الدنيا رغم قسوته، إلا أنه موقوت بعمر الدنيا.

أما عذاب الآخرة فهو عذاب بلا نهاية، ووصفه الحق سبحانه بالغلظة،

وكانت نجاة هود ﷺ والمؤمنين معه من العذاب الأول مقدمة للنجاة من العذاب الغليظ.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝﴾ [هود: ٥٩].

و«تلك» إشارة إلى المكان الذي عاش فيه قوم عاد؛ لأن الإشارة هنا لمؤنث، ولنتذكر أن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى.

وهكذا فصل بين «عاد» المكان، و «عاد» المكين، وهم قوم عاد؛ لذلك قال سبحانه: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

فهم قد ذهبوا وبقيت آثارهم.

و «عاد» إما أن تطلق على المكان والمحل، وإما أن تطلق على الذوات التي عاشت في المكان، فإذا أشار سبحانه بـ «تلك» فهي إشارة إلى الديار، والديار لم تجحد بآيات الله؛ ولذلك جاء بعدها بقوله تعالى: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

والجحود هو النكران مع قوة الحجة والبرهان.

﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: أن هناك مُتَّبِعًا، ومُتَّبَعًا.

والمقصود بالجبار العنيد هم قمم المجتمع، سادة الطغيان والصنف الثاني هم من اتبعوا الجبابرة.

ومن رحمته سبحانه أنه حين يتكلم عن الفِرَق الضالة، فهو يتكلم أيضًا عن الفرق المضلة، فهناك ضالٌّ في ذاته، وهناك مُضِلٌّ لغيره.

والمضل لغيره عليه وزران: وزر ضلاله في ذاته، ووزر إضلال غيره.

أما الذين اتَّبعوا فلهم بعض العذر؛ لأنهم اتَّبعوا بالجبروت والقهر، لا بالإقناع والبينة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ

﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٦٠].

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾ أي أن الله - سبحانه - أذاقهم العذاب في الدنيا، ثم يدخلهم النار يوم القيامة.

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية: ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾.

وكلمة ﴿ أَلَآ ﴾ هي أداة تنبيه - كما قلنا من قبل - تنبه السامع إلى أهمية ما يلقيه المتكلم حتى لا يجابه السامع بالكلام وهو غافل، ولأن المتكلم هو الذي يقود زمام الكلام، فيجب ألا يستقبله السامع غافلاً، فتأتي كلمة ﴿ أَلَآ ﴾ كجرس ينبه إلى ما بعدها من كلام.

والكلام عن قوم عاد الذين نالوا عذابًا في الدنيا بالريح العقيم[1]، ثم أتبعوا لعنة في البرزخ، وسوف يُستقبلون يوم القيامة باللعنات؛ فهذه لعنات ثلاث.

وجاء الحق سبحانه وتعالى بحيثية هذه اللعنات مخافة أن يرق قلب السامع من كثرة ما يقع عليهم من لعن، فبيَّن بكلمة ﴿ أَلَآ ﴾ أي: تنبهوا إلى أن قوم عاد كفروا ربهم.

وأنت حين تسمع جريمتهم؛ تنفعل وتطلب أقصى العقاب لهم؛ ولذلك يأتي قول الحق سبحانه: ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾.

فأنت لا تكتفي بلعنتهم الأولى، بل تلعنهم مرة أخرى.

ولسائل أن يقول: ولماذا يقول الحق سبحانه هنا: ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾.

ونقول: لقد قال الحق سبحانه وتعالى في موضع آخر من القرآن: ﴿ وَأَنَّهُۥ

---

(١) ذلك كان عذاب قوم عاد، كما قال تعالى: ﴿**وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم**﴾ [الذاريات: ٤١] والريح العقيم هي التي لا خير فيها، بل هي تهلك وتدمر.

أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ [النجم: ٥٠].

وهذا يوضح لنا أن «عادًا» كانت اثنتين: عادًا الأولى، وهم قوم عاشوا وضَلُّوا فأهلكهم الله، وهناك عاد الثانية.



البُشْرى بإسحاق ويحيى - عليهما السلام -

قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود: ٦٩].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - : والبشرى هي الإخبار بشيء يسرُّ قبل أوان وقوعه، وهي عكس الإنذار الذي يعني الإخبار بشيء محزن قبل أوانه.

وقبل أن يوضح الرسل لإبراهيم عليه السلام البشارة التي جاءوا من أجلها، يعلمنا الحق سبحانه المقدمات اللازمة للدخول إلى الأماكن، فمن أدب الدخول إلى أي مكان أن نسلِّم على أهل هذا المكان، والحق سبحانه القائل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النور: ٢٧].

ولذلك يأتي الحق سبحانه هنا بما قالته الملائكة من قبل إبلاغ البشرى: ﴿ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾.

وجاء سبحانه بردِّ إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ سَلَـٰمٌ ﴾.

ونحن نلحظ أن السلام جاء على ألسنتهم بالنصب، والرد بالسلام جاء بالرفع، وقولهم: ﴿ سَلَـٰمًا ﴾ دل على فعل يوضح التجدد، والرد جاء بكلمة ﴿ سَلَـٰمٌ ﴾ بالرفع؛ ليدل على الثبات والإصرار.

والحق سبحانه هو القائل: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: ٨٦].

هكذا استقبل إبراهيم عليه السلام رسل الحق سبحانه.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾.

والعجل هو ولد البقر.

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ [هود: ٧٠].

وكلمة ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ تقتضي أن ننظر في مادة «النون والكاف والراء» وكلمة

«نكر» وكلمة «أنكر» كلتاهما مستعملة في القرآن.

والشاعر يقول:

وأنكَـرتْني ومَـا كَـانَ الَّـذي نكِـرَت مِـنَ الحَـوادِث إلا الـشَّيبَ والـصَّلَعا

والاستعمال اللغوي يدل على أن المقابح من ألوان السلوك تسمى منكرات، أي: ينكرها الإنسان بفطرته.

وهنا حين رأى إبراهيم عليه السلام أن أيديهم لا تصل إلى العجل الحنيذ نكرهم، وأوجس في نفسه خيفة، فلاحَظوا ذلك، وقالوا: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ [هود: ٧٠].

وهكذا عرف لمن جاءوا، واطمأن أن قومه لم يأتوا بفعل يستحقون عليه العذاب، وخصوصًا أن كتب التاريخ تقول: إن امرأة إبراهيم عليه السلام قالت له: ألا تضم ابن أخيك إلى كنفك هنا؛ لأن قومه يوشك أن يعمهم الله بالعذاب.

وحين سمعت أن الرسل إنما جاءت إلى قوم لوط سُرَّت من فراستها، وتبسَّمت لأنها تنبهت إلى هذه المسألة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: ٧١].

فعندما كانت امرأته قائمة على خدمة الضيوف[1]، وسمعت كلام الملائكة اطمأنت على أنه لا عذاب على قومهم، وتحققت فراستها فضحكت فأزادها الله سرورًا، وبشَّرتها الملائكة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب.

فبعد دفع العذاب، وبيان أمر العذاب لقوم آخرين مجرمين، تأتي البشارة

---

(١) عن سهل بن سعد أن أبا أسيد الساعدي أتى رسول الله ﷺ فدعاه في عرسه فكانت امرأته خادمهم يومئذ وهي العروس. قال: تدرون ما سقت رسول الله ﷺ أنقعت تمرات من الليلة في تور. أخرجه البخاري في «صحيحه» (٥١٧٦)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ٤٩٨)، وابن ماجه في «سننه» (١٩١٢).

بتحقيق ما كان إبراهيم عليه السلام وزوجه يصبوان[1] إليه، وإن كان أوانها قد فات؛ لأن زوجة إبراهيم كانت قد بلغت التسعين من عمرها، وبلغ هو المائة والعشرين عامًا[2]، وفي هذا امتنان على إبراهيم بمجيء ابن الابن أيضًا.

ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.

فالإنسان يحب أن يكون له ابن، ويحب أكثر أن يرى ابن ابنه، لأن هذا يمثل امتدادًا له.

وهكذا توالت البشارات، فقد أعلنت الملائكة أنها جاءت لتعذب قوم لوط، هؤلاء الذين اختلف معهم إبراهيم عليه السلام؛ لما جاءوا به من الفواحش، وكذلك لأن إبراهيم عليه السلام وامرأته قد علما أنهما لم يأتيا بأي أمر يغضب الله تعالى.

والثالثة من البشارات هي الغلام، وكان ذلك حُلمًا قديمًا عند امرأة إبراهيم عليه السلام لأنها عاقر، واستقبلت امرأة إبراهيم البشارة الأولى بالضحك، واستقبلت البشارة بالابن بالدَّهْشة.

وهذا ما يقول فيه الحق سبحانه: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود: ٧٢].

والشيء العجيب هو الذي يخالف نواميس الكون المعتادة، ولكن هناك فرقًا بين النواميس وخالق النواميس، الذي هو قادر على أن يخرق النواميس.

وها هو سيدنا إبراهيم يقول في موضع آخر: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ [الحجر: ٥٤].

ولم يأت هنا بقول امرأة إبراهيم التي قالت: ﴿يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾.

---

(١) صبا يصبو صبوًا وصبوًا: مال وأحب.

(٢) قال مجاهد: كانت سارة بنت تسع وتسعين سنة، وقال ابن اسحاق: كانت بنت تسعين، وقيل غير هذا، أما إبراهيم فقيل: كان ابن مائة وعشرين سنة، وقيل: ابن مائة سنة، ذكره القرطبي في «تفسيره» (٤/ ٣٣٨٨).

وتسمية الزوج بعلاً فيها دقة شديدة؛ لأن البعل هو الذي يقوم بأمر المبعول ولا يحوجه لأحد.

كذلك الزوج يقوم بأمر زوجته فيما لا يستطيع أبوها ولا أخوها أن يقوما به، وهو الإحساس بالأنوثة والإخصاب، وهو أهم ما تطلبه المرأة.

إذًا فالبعل هو الزوج الذي يقوم على أمر زوجته فلا يُحوجها إلى غيره في أي شيء من الأشياء.

وهنا تتعجب زوجة إبراهيم عليه السلام من أمر الإنجاب؛ لأن هذا شيء عجيب يقع على غير انتظار؛ ولذلك يرد الملائكة عليها.

ويقول الحق سبحانه عن ذلك: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود: ٧٣].

والعجب - إذًا - إنما يكون من قانون بشري، وإنما القادر الأعلى سبحانه له طلاقة القدرة في أن يخرق الناموس.. ومن خرق النواميس جاءت المعجزات لتثبت صدق البلاغ عن الله تعالى، فالمعجزات أمر خارق للعادة الكونية.

تكرارُ القِصّة مع زكريا عليه السلام:

والقصة التي حدثت لإبراهيم عليه السلام وامرأته تكررت في قصة زكريا عليه السلام، والحق سبحانه هو الذي أعطى مريم عليها السلام بشارة التذكير لزكريا عليه السلام حين سألها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران: ٣٧].

فقالت مريم: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٨].

إذًا فالحساب يكون بين الخلق وبعضهم، لا بين الخالق - سبحانه - وخَلقه.

ولذلك يأتي قول الحق عز وجل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وما دام زكريا عليه السلام قد تذكَّر بقول مريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾.

فمن حَقّه أن يدعو: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً﴾ [آل عمران: ٣٨].

فأوحى له الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝﴾ [مريم: ٧].

أي أن الحق سبحانه لم يرزقه الابن فقط، بل وسماه له أيضًا باسمٍ لم يسبقه إليه أحد.

وتسمية الله تعالى غير تسمية البشر، فإن كان بعض البشر قد سموا من بعد ذلك بعض أبنائهم باسم «يحيى» فقد فعلوا ذلك من باب الفأل الحسن في أن يعيش الابن.

لكن الحق سبحانه حين يسمى اسمًا، فقد سماه «يحيى» ليحيا بالفعل، ويبلغ سن الرشد، ثم لا يأتي الموت؛ لذلك قُتل[1] يحيى وصار شهيدًا، والشهيد حيٌّ عند ربه لا يأتي إليه موتٌ أبدًا.

وهذا عكس تسمية البشر؛ لأن الإنسان قد يسمي ابنه «سعيد» ويعيش الابن حياته في منتهى الشقاء.

والشاعر يقول عن الإنسان الذي سمى ابنه «يحيى»:

وَسَمَّيتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ ... لِرَدِّ قَضَاءِ الله فِيهِ سَبِيلُ

وحين نرجع إلى أن مريم عليها السلام هي التي نبهت إلى قضية الرزق من الله، نجد أن زكريا عليه السلام قد دعا، وذكر أنه كبير السن وأن زوجه عاقر.

ولابد أن زكريا عليه السلام يعرف أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل شيء أزلاً،

---

(١) قال ابن كثير في «قصص الأنبياء» (ص٣٩٠): «ذكروا في قتله أسبابًا من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها فنهاه يحيى ﷺ عن ذلك فبقى في نفسها منه، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى، فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طست إلى عندها، فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها».

ولذلك شاء الله سبحانه أن يطمئن زكريا عليه السلام بأنه سيرزقه الولد ويسميه، ويأتي قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾ [مريم: ٩].

ومادم الحق سبحانه وتعالى هو الذي قرَّر، فلا رادَّ لما أراده، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٩].

وهكذا توالت الأحداث بعد أن نبهت مريم زكريا عليه السلام إلى قضية خَرق النواميس التي تعرضت هي لها بعد ذلك، حينما تمثَّل لها المَلَك بشرًا، وبشَّرها بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

وتساءلت مريم عن كيفية حدوث ذلك - وهي التي لم يمسسها بشر - فيذكِّرها المَلَك بأنها هي التي أجرى الله سبحانه وتعالى على لسانها قوله الحق في أثناء كلامها مع زكريا عليه السلام: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وكان لابد من طمأنتها؛ لأن إنجابها للمسيح عيسى عليه السلام دون أب هي مسألة عرض، ويجب أن تُقبل عليها وهي آمنة، غير مرتابٍ فيها ولا متهمة.

مع آل إبراهيم مَرَّة ثانية:

والآية التي نحن بصددها هنا تتعرض لامرأة إبراهيم عليه السلام حين جاءتها البشارة بالطفل، وكيف أوضحت لها الملائكة أنه لا عجب مما قدَّره الله تعالى وأراده، خلافًا للناموس الغالب في خلقه؛ لأن رحمة الله تبارك وتعالى بكل خير فيها قد وسعت أهل بيت النبوة، ومن تلك الرحمة والبركات هبة الأبناء في غير الأوان المعتاد.

ولهذا قال الحق سبحانه هنا: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾.

وينهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾.

أي أنه سبحانه يستحق الحمد لذاته، وكل ما يصدر عنه يستوجب الحمد له من عباده، فلا حد لخيره وإحسانه، ولله تعالى مُطلَقُ صفات المجد.

وهكذا بيَّن الحق سبحانه أن إبراهيم عليه السلام وزوجه قد اطمأنا على أن الملائكة قد جاءت لهما بالبشرى، وأنها لا تريد بإبراهيم أو بقومه سوءًا، بل هي مكلفة بتعذيب قوم لوط.



المُؤتَفِكَة

نزل «لوط» عليه السلام بمدينة «سدوم»، وكان أهلها كما قال ابن كثير - رحمه الله - : «من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طويّة، وأردئهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يعملون».

وابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحدٌ من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وتَرْك ما خَلَق الله من النسوان لعباده الصالحين.

ولمّا أرسل اللهُ إليهم نبي الله لوطًا عليه السلام أخبرنا القرآنُ عن بعض مواقف لوط عليه السلام مع قومه، ودعوته إيّاهم، فقال: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل: ٥٤- ٥٦].

وهكذا تمادوا في ضلالهم وطغيانهم، واستمرّوا على فجورهم وكفرانهم.

وقد تقدّم معنا - في القصّة السابقة - قصّة الملائكة الذين نزلوا ضيوفًا على إبراهيم، ثم بيّنوا له مقصدهم، وهو: إهلاكُ قوم لوط.

ونتابع - هنا - ما وقفنا عنده هناك: قال الحقّ - سبحانه - في سورة «هود»: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٤].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - : يبيِّن لنا الحق سبحانه أن إبراهيم بعد أن ذهب عنه الروع وجاءته البشرى بأن الله تعالى سيرزقه بغلام، وعلم إبراهيم من الملائكة أنهم ذاهبون لتعذيب قوم لوط: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الذاريات: ٣٢ - ٣٤].

ومجادلة سيدنا إبراهيم في عقاب قوم لوط، لم تكن ردًّا لأمر الله، ولكن طلبًا للإمهال لعلهم يؤمنون؛ ذلك أن قلب إبراهيم عليه السلام؛ قلب رحيم.

ولذلك يأتي الحق سبحانه بالعلة في المجادلة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ٧٥].

إذًا فالعلة في الجدال أنه حليم لا يُعجِّل بالعقوبة، و﴿أَوَّاهٌ﴾؛ أي: يتأوه من القلب، والتأوه رقة في القلب، وإن كان التأوه من الأعلى فهذا يعني الخوف من ألا يكون قد أدى حق الله تعالى، وإن كان التأوه للأقل فهو رحمة ورأفة.

ولذلك فقد طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى تأجيل العذاب لقوم لوط لعلهم يؤمنون، وتأوُّههُ هنا لله تعالى، وعلى هؤلاء الجهلة بما ينتظرهم من عذاب أليم.

وقال الحق سبحانه في صفات إبراهيم أنه ﴿مُّنِيبٌ﴾ أي: يرجع إلى الحكم وإلى الحق في قضاياه.

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها والتي أوضحت تأوه إبراهيم لله عز وجل تأوه رحمة بهؤلاء الذين لم يؤمنوا، وهم قوم لوط، وأيضًا كانت حجة إبراهيم عليه السلام في الجدال ما قاله الحق سبحانه في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣١، ٣٢].

وكان سؤال إبراهيم للملائكة: كيف تُهلكون أهل هذه القرية وفيهم من هو يؤمن بالله وعلى رأسهم نبي من الله هو لوط عليه السلام، وردت عليه الملائكة: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

وكأن إبراهيم خليل الرحمن يعلم أن وجود مؤمنين مع الكافرين في قرية واحدة، يبيح له الجدال عن أهل القرية جميعًا.

ويتلقى إبراهيم الرد هنا في سورة هود في الآية التالية: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦].

وقول الملائكة: ﴿ يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ ﴾ يعني إبلاغ إبراهيم أن مسألة تعذيب من لم يؤمن من قوم لوط أمرٌ مُنتهٍ ومحسوم، فهم قد جاءوا لينفذوا، لا ليهدِّدوا؛ وأبلغوا إبراهيم: ﴿ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ ﴾.

وإذا ما كان الأمر قد جاء من الله، فإبراهيم عليه السلام لأنه ﴿ مُّنِيبٌ ﴾ يعلم أن أي أمر من الله تعالى لابد أن يُنفَّذ، فلابد أن يَتقبَّل - أمر الحق سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٍ ﴾.

أي لا أحد بقادر على أن يرد عذاب الله، وكما أن هناك وعدًا من الله تعالى غير مكذوب، فهناك أيضًا عذاب غير مردود.

وانتهى الجدال، وذهبت الملائكة إلى مهمتها التي هي إيقاع العذاب بقوم لوط.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [هود: ٧٧].

أي أن لوطًا شعر بالسوء، وضاق بهم ذرعًا، والذرع مأخوذ من الذراع التي فيها الكف والأصابع وندفع بها الأشياء، وأي شيء تستطيع أن تمد إليه ذراعك لتدفع به، وإن لم تَطُله ذراعك؛ قلت: «ضقت به ذرعًا» أي: أن يدي لم تطله، وهو أمر فوق قوتي وطاقتي، وفوق ما آتاني الله من الآلات ومن الحيل.

وما الذي يسيء لوطًا في مجيء الملائكة؟

قيل: لأن الملائكة قد جاءوا على الشكل المعروف من الجمال، فحين يُقال: «فلان ملاك» أي: أن شكله جميل.

ولوط عليه السلام يعلم أن آفة قومه هي إتيان الذكور، وامرأته تعلم هذه الآفة، لكن موقفها من ذلك غير موقف لوط، فهي ترحب بتلك الآفة.

ويُقال: إنها تنبهت لمجيء الرجال الحِسان - ولم تعرف أنهم ملائكة العذاب - وصعدت إلى سطح المنزل، وصفقت لعل القوم ينتبهون لها، فلم يلتفت لها أحد، فأشعلت نارًا فانتبه لها القوم، وأشارت لهم بما يعبر عن مجيء ضيوف يتميزون

بالجمال(١).

وهنا قال لوط عليه السلام: ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أي: يوم شديد المتاعب.

وفي هذا يقول الحق سبحانه عن ذلك: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [هود: ٧٨].

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾.

أي: يسرعون إليه في تدافق، والإنسان إذا لم يكن قد مرن على الشر وله به دُربة، يكون مترددًا خائفًا، أما مَن له دربة فهو يقبل على الشر بجرأة ونشاط.

يقول الحق سبحانه عنهم: ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾.

أي: أن هذه المسألة عندهم كانت محبوبة، ولهم دربة عليها وخفيفة على قلوبهم، ولا حياء يمنعهم عنها.

فالحياء يعني أن بعض الناس يعمل السيئة ويخشى الآخرون أن يفعلوها، لكن إذا ما كانوا كلهم يحبون تلك السيئة، فلن يخجل أحد من الآخر.

وماذا يكون موقف لوط عليه السلام في هذا اليوم العصيب؟ لقد أقبلوا عليه بسرعة، وفي كوكبة واندفاع، وهو يعلم نياتهم ويعلم سوابقهم، وفكَّر لوط عليه السلام في أن يصرفهم انصرافًا من جنس اندفاعهم.

يقول الحق سبحانه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ ﴾.

وقد قال ذلك لأن المرأة مخلوقة لذلك، ومن الممكن أن يتزوجوا من بناته، وكان العُرف في أيام لوط عليه السلام لا يمنع أن يزوِّج المؤمن ابنته لغير المؤمن، وقد زَوَّجَ رسولُ الله ﷺ إحدى بناته لُعتبة بن أبي لهب، وأخرى لأبي العاص بن

---

(١) وتلك كانت خيانتها لزوجها لوط عليه السلام، أنها كانت تدل قومها على أضياف لوط ليفعلوا معهم المنكر، وقد قال رب العزة عن امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿ **كانتا تحت عَبدين من عِبادنا صَالحَين فَخَانَتَاهُما** ﴾ [التحريم: ١٠].

الربيع قبل تحريم الحق سبحانه تزويج المؤمنة لغير المؤمن(١).

فهل كان المقصود بناته من صُلبه أم بنات أمته، أم بنات المؤمنين به؟

وقد قيل: إنه لم يؤمن بالله إلا لوط وابنتاه، فكيف يكون الزواج لابنتين من كل هذا العدد من الرجال المتدافعين؟!

وقيل: إنه بحث عن السادة الأقوياء الذين بيدهم القرار، وأراد أن يراضيهم بهذا الزواج؛ لعلهم يرجعون عن الفواحش والسيئات، وفي هذا طهر لهم، وبذلك يحفظون كرامته أمام ضيوفه(٢).

يقول لوط عليه السلام: ﴿فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾.

وهنا يطلب لوط عليه السلام من قومه ألا يخزوه في ضيفه، والخزي فضيحة أمام النفس وأمام الناس.

والإنسان قد تهون عليه نفسه ويُقبل على العمل السيِّئ ما لم يره أحد، أما أن يراه الناس، ففي هذا فضح له؛ فالفضيحة تكون بين جمهرة الناس، والهوان أن يكون العمل السيئ بينه وبين نفسه.

ويتساءل لوط عليه السلام: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

أي: ألا يوجد بينكم رجل له عقل ومروءة وكرامة، يمنع هذه المسألة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود: ٧٩].

هذه الآية تحمل رد المتدافعين طلبًا للفحشاء من قوم لوط؛ فقد قالوا له: أنت تعلم مقصدنا، وليس لنا في بناتك أية حاجة نعتبرها غاية لمجيئنا.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٩/ ٦٨).

(٢) قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿هؤلاء بناتي﴾: ما عرض لوط بناته على قومه لا سفاحًا ولا نكاحًا، إنما قال: هؤلاء نساؤكم، لأن النبي إذا كان بين ظهراني قوم فهو أبوهم.

وكان هذا يعني الإعراض عن قبول نصحه لهم بالتزويج من بناته بدلاً من طلب فعل الفاحشة مع ضيوف لوط، وهم الملائكة الذين جاءوا في هيئة رجال بلغوا مبلغ الكمال في الجمال.

ويأتي الحق سبحانه برد لوط عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: ٨٠].

وساعة تقرأ كلمة ﴿لَوْ﴾ فهذا هو التمني، أي: رجاء أن يكون له قوة يستطيع أن يدفع بها هؤلاء، وكان لابد من وجود شرط، مثل قولنا: «لو أن زيدًا عندك لجئت»، لكن نجد هنا شرطًا ولا جواب، كأن يقال: «لو أن لي بكم قوة لفعلت كذا وكذا».

ولذلك يقال إن الملائكة قالت له: إن ركنك شديد؛ ولذلك قال: ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

وقد قال لوط عليه السلام ذلك لأنه لم يكن في مَنعةٍ من قومه، أهل «سدوم» ويقال: إنها خمس قرى قريبة من «حمص».

وقد تعجَّب رسول الله ﷺ من قول لوط، فقال - فيما رواه البخاري - : «**رَحِمَ الله أَخِي لوطًا كان يأوي إلى رُكْنٍ شديد**»[1].

فَلِهَوْل ما عانى لوط عليه السلام من كرب المفاجأة قال ذلك، وهو يعلم أنه لا يوجد سند أو ركن أشد من الحق سبحانه وتعالى.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قالته الملائكة للوط عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود: ٨١].

وهكذا علم لوط - لأول مرة - أنهم رسل من الله تعالى، رغم أنهم حين

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٥، ٤٦٩٤)، وغيره.

تكلموا مع إبراهيم لم يقولوا أنهم رسل من الله؛ ليدلنا على أن إبراهيم عليه السلام كان يعلم أنهم رسل من الحق سبحانه، لكنه لم يكن يعلم سبب مجيئهم.

وهم حين أخبروا لوطًا: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾.

فمن باب أولى ألا يصلوا إليهم، وتخبر الملائكة لوطًا أن يسري بأهله ليلاً أي: اخرج بأهلك في جزء من الليل، وقد أوضحت الملائكة أن موعد النكال بقوم لوط هو الصبح: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾.

لذلك قالوا: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾.

والمقصود أن يترك ربع الليل الأول، وربعه الآخر، وأن يسير في نصف الليل الذي بعد ربع الليل الأول وينتهي عند ربع الليل الأخير، وقيل: إن أليق ما يكون بالقطع هو النصف.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾.

والالتفات: هو الانصراف عن الشيء الموجود قبالتك، ويسمى الانصراف عن المقابل، فهل المقصود هو الالتفات الحسي أم الالتفات المعنوي؟

نحن نعلم أن لوطًا سيصحب المؤمنين معه؛ من ديارهم وأموالهم، وما ألفوه من مقام ومن حياة؛ لذلك تنبههم الملائكة ألا تتجه قلوبهم إلى ما تركوه، وعليهم أن ينقذوا أنفسهم، وسيعوضهم الله سبحانه خيرًا مما فاتهم.

هذا هو المقصود بعدم الالتفات المعنوي، وأيضًا مقصود به عدم الالتفات الحسي.

وتوصي الملائكة لوطًا عليه السلام ألا يصحب امرأته معه؛ لأنها خانته بموالاتها للقوم المفسدين، وإفشائها للأسرار[1]، وعليه أن يتركها مع الذين يصيبهم العذاب.

---

(١) وليست خيانة فراش كما ظنّ بعض الناس. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - «ما بغت امرأة نبي قطّ، إنما كانت خيانتهما في الدِّين - يعني امرأة نوح وامرأة لوط -».

ولكنها لحظة الخروج ادعت أنها مخلصة للوط، وقالت: سأخرج حيث تخرج، ثم نظرت إلى القوم وقالت: واقوماه ورجعت لتمكث معهم، ولينالها العذاب الذي نالهم في الموعد الذي حددته الملائكة وهو الصبح: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

وقد تحدد الصبح لإهلاكهم؛ لأنه وقت الدعة والهدوء فيكون العذاب أشد نكالاً.

ويقول الحق سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: ٨٢].

والحق سبحانه يبين لنا هنا أن الأمر بالعذاب حين يصدر، فالمأمور يستجيب قهرًا، ويقال إن قرى قوم لوط خمس: قرية «سدوم» وقرية «دادوما»، وقرية «ضعوه»، وقرية «عامورا» وقرية «قتم».

وقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: انقلبت انقلابًا تامًّا[1].

ونفذ أمر الله بأن أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، وهو طين قد تحجَّر.

والحق سبحانه يقول في آية أخرى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]. وكلمة ﴿حِجَارَةً﴾ تعطي الإحساس بالصلابة، أما كلمة ﴿طِينٍ﴾ فتعطي إحساسًا بالليونة، ولكن الطين الذي نزل قد تحجر بأمر من الله تعالى، وهو قد نزل منضودًا.. أي: يتتابع في نظام، وكأن كل حجر يعرف صاحبه، لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

وكلمة ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعلَّمة، وكأن كل حجر قد تم توجيهه إلى صاحبه، فهذا الحجر يذهب إلى فلان، وذاك إلى فلان، مثل الصواريخ الموجهة إلى البلاد،

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٠٠): «أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها، حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم، لم تنكفئ لهم جرة، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم، وأتبعهم الله بالحجارة».

ولكن الدقة في هذه الحجارة أن كل حجر يعرف على مَن بالتحديد سوف ينزل بالعذاب، وقد جعلها الحق سبحانه لتعذيب المكين، أي: الإنسان، ولا تدمر البلاد.

وهي مرتبة، لأن الحق سبحانه قال: ﴿ سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود: ٨٢]، ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾.

والظالمون هنا مقصود بهم الكافرون برسالة الحق - سبحانه وتعالى - التي تتابعت في الموكب الرسالي وخاتمها هو محمد ﷺ(١).

أو: أن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينبه قريشًا إلى أن الهلاك الذي نزل بهؤلاء القوم المشركين، ليس ببعيد أن يصيب قريشًا، وأن يرسل الله سبحانه على كل واحد من الكافرين به حجرًا مسوَّمًا يصيبه في مكانه الذي يكون فيه.



(١) قال الإمام القرطبي - رحمه الله - : قوله تعالى: ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ يعني: قوم لوط؛ أي: لم تكن تخطئهم. وقال مجاهد: يُرهب قريشًا؛ المعنى: ما الحجارة من ظالمي قومك يا محمد ببعيد. وقال قتادة وعكرمة: يعني ظالمي هذه الأمة؛ والله ما أجار الله منها ظالمًا بعد»ا.هـ.

مُعْجِزَةُ بَقَرة بَني إسرائيل

قال الحقُّ - سبحانه - : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة: ٦٧- ٧٤].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - في خواطره حول هذه الآيات: نلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى أتى بحرف: ﴿ وَإِذْ ﴾ يعني واذكروا.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ ولم يقل لماذا أمرهم بأن يذبحوا البقرة؟ .. ولابد أن نقرأ الآيات إلى آخر القصة لنعرف السبب في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣].

والمفروض في كل الأمور أن الأمر تسبقه علته... ولكن هذه عظمة القرآن الكريم... لأن السؤال عن العلة أولاً معناه أن الأمر صادر من مُسَاوٍ لك... فإذا

قال لك إنسان افعل كذا... تسأله لماذا حتى أطيع الأمر وأنفذه... إذًا الأمر من المساوي هو الذي تسأل عن علته.. ولكن الأمر من غير المساوي ... كأمر الأب لابنه والطبيب لمريضه والقائد لجنوده... مثل هذا الأمر لا يسأل عن علته قبل تنفيذه... لأن الذي أصدره أحكم من الذي صدر إليه الأمر... ولو أن كل مكلف من الله أقبل على الأمر يسأل عن علته أولاً... فيكون قد فعل الأمر بعلته... فكأنه قد فعله من أجل العلة... ومن هنا يزول الإيمان... ويستوي أن يكون الإنسان مؤمنًا أو غير مؤمن... ويكون تنفيذ الأمر بلا ثواب من الله...

إن الإيمان يجعل المؤمن يتلقى الأمر من الله طائعًا... عرف علته أو لم يعرف... ويقوم بتنفيذه لأنه صادر من الله...ولذلك فإن تنفيذ أي أمر إيماني يتم لأن الأمر صادر من الله... وكل تكليف يأتي علة حدوثه هي الإيمان بالله... ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يبدأ كل تكليف بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: يا من آمنت بالله ربًا وإلهًا وخالقًا... خذ عن الله وافعل لأنك آمنت بمن أمرك.

في هذه الآيات التي نحن بصددها أراد الله تعالى أن يبين لنا ذلك... فجاء بالأمر بذبح البقرة أولاً... وبالعلة في الآيات التي روت لنا علة القصة... وأنت حين تعبد الله فكل ما تفعله هو طاعة لله سبحانه وتعالى... سواء عرفت العلة أو لم تعرفها... فأنت تؤدي الصلاة لأن الله تبارك وتعالى أمرك بأن تصلي... فلو أديت الصلاة على أنها رياضة أو أنها وسيلة للاستيقاظ المبكر... أو أنها حركات لازمة لليونة المفاصل فإن صلاتك تكون بلا ثواب ولا أجر... إن أردت الرياضة فاذهب إلى أحد النوادي وليدربك أحد المدربين لتكون الرياضة على أصولها... وإن أردت اللياقة البدنية فهناك ألف طريقة لذلك... وإن أردت عبادة الله كما أمرك الله فلتكن صلاتك التي فرضها الله عليك لأن الله فرضها... وكذلك كل العبادات الأخرى.

الصوم ليس شعورًا بإحساس الجائع... ولا هو طريقة لعمل الرجيم ولكنه عبادة... إن لم تصم تنفيذًا لأمر الله بالصوم فلا ثواب لك... وإن جعلت للصيام أي سبب إلا العبادة فإنه صيام لا يقبله الله... والله أغنى الشركاء عن الشرك... فمن أشرك معه أحدًا ترك الله عمله لمن أشركته وكذلك كل العبادات.

هذا هو المفهوم الإيماني الذي أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إليه في قصة بقرة بني إسرائيل... ولذلك لم يأت بالعلة أو السبب أولاً... بل أتى بالقصة ثم أخبرنا سبحانه في آخرها عن السبب... وسواء أخبرنا الله عن السبب أو لم يخبرنا فهذا لا يغير في إيماننا بحقيقة ما حدث... وإن القصة لها حكمة وإن خفيت علينا فهي موجودة.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ ﴾ أعطى الله تبارك وتعالى الأمر أولاً ليختبر قوة إيمان بني إسرائيل.. ومدى قيامهم بتنفيذ التكليف دون تلكؤ أو تمهل... ولكنهم بدلاً من أن يفعلوا ذلك أخذوا في المساومة والتباطؤ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ ﴾ كلمة قوم تطلق على الرجال فقط... ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ [الحجرات: ١١].

إذًا قوم هم الرجال... لأنهم يقومون على شئون أسرهم ونسائهم... ولذلك يقول الشاعر العربي:

وما أدري ولست أخال أدري أقَومٌ آل حصنٍ أم نساءُ

فالقوامة للرجال... والمرأة حياتها مبنية على الستر في بيتها... والرجال يقومون لها بما تحتاجه من شئون... والمفروض أن المرأة سكن لزوجها وبيتها وأولادها... وهي في هذا لها مهمة أكبر من مهمة الرجال... قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ ﴾ الأمر طلب فعل. وإذا كان الآمر أعلى من المأمور نسميه أمرًا... وإذا كان مساويًا له نسميه التماسًا... وإذا كان إلى أعلى نسميه رجاء ودعاء... على أننا لابد أن نلتفت إلى قوله تعالى على لسان زكريا: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ ﴾ [آل عمران: ٣٨].

هل هذا أمر من زكريا؟ طبعًا لا... لأنه دعاء والدعاء رجاء من الأدنى إلى الأعلى... قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ ﴾ لو أن إنسانًا يعقل أدنى عقل ثم يطلب

منه أن يذبح بقرة... أهذه تحتاج إلى إيضاح؟ لو كانوا ذبحوا بقرة لكان كل شيء قد تم دون أي جهد... فمادام الله قد طلب منهم أن يذبحوا بقرة... فكل ما عليهم هو التنفيذ(١).

ولكن انظر إلى الغباء حتى في السؤال... إنهم يريدون أن يفعلوا أي شيء لإبطال التكليف... لقد قالوا لموسى نبيهم إنك تهزأ بنا... أي أنهم استنكروا أن يكلفهم الله تبارك وتعالى بذبح بقرة على إطلاقها دون تحديد... فاتهموا موسى أنه يهزأ بهم... كأنهم يرون أن المسألة صعبة على الله سبحانه وتعالى... لا يمكن أن تحل بمجرد ذبح بقرة... وعندما سمع موسى كلامهم ذُهل... فهل هناك نبي يهزأ بتكليف من تكليفات الله تبارك وتعالى... أينقل نبي الله لهم أمرًا من أوامر الله جل جلاله على سبيل الهزل؟!

هنا عرف موسى أن هؤلاء اليهود هم جاهلون... جاهلون بربهم وبرسولهم وجاهلون بآخرتهم... وأنهم يحاولون أن يأخذوا كل شيء بمقاييسهم وليس بمقاييس الله سبحانه وتعالى... فاتجه إلى السماء يستعيذ بالله من هؤلاء الجاهلين... الذين يأتيهم اليسر فيريدونه عسرا... ويأتيهم السهل فيريدونه صعبا... ويطلبون من الله أن يعنتهم وأن يشدد عليهم وأن يجعل كل شيء في حياتهم صعبًا وشاقًا.

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ [البقرة: ٦٨]

وكان سؤالهم يبين نقص درجة الإيمان عندهم... لم يقولوا ادع لنا ربنا... بل قالوا ادع لنا ربك، وكأنه رب موسى وحده... ولقد تكررت هذه الطريقة في كلام

---

(١) قال أبو هريرة: «ولو أن القوم حين أُمِرُوا بذبح بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إيّاها، ولكن شَدّدوا على أنفسهم فَشدّد الله عليهم، ولولا أن القوم اسْتَثْنُوا فقالوا: ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ لما هُدُوا إليها أبدًا». وروى ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «لو أخذوا أدنى بقرة لاكْتَفوا بها، ولكنهم شدّدوا فَشُدِّد عليهم»، قال ابن كثير: إسناده صحيح.

بني إسرائيل عدة مرات... حتى إنهم قالوا كما يروي لنا القرآن الكريم: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤].

ولقد استمر الحوار بينهم وبين موسى فترة طويلة... يوجهون السؤال لموسى فيدعو الله فيأتيه الجواب من الله تبارك وتعالى... فبدلاً من أن ينفذوا الأمر وتنتهي المسألة يوجهون سؤالاً آخر... فيدعو موسى ربه فيأتيه الجواب، ويؤدي الجواب إلى سؤال في غير محله منهم... ثم يقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم أسباب الجدل... بأن يعطيهم أوصافًا لبقرة لا تنطبق إلا على بقرة واحدة فقط... فكأنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

نأتي إلى أسئلة بني إسرائيل... يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ ...

سؤال لا معنى له ولا محل له... لأن الله تبارك وتعالى قال لهم إنها بقرة... ولم يقل مثلاً إنها حيوان على إطلاقه فلم يكن هناك محل للسؤال... فجاء الحق تبارك وتعالى يقول لهم: ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ .

(الفارض) في اللغة: هو الواسع والمراد به بقرة غير مسنة... ولكن ما العلاقة بين سن البقرة وبين الواسع؟ البقرة تتعرض للحمل كثيرًا وأساسًا هي للبن وللإنجاب... ومادامت قد تعرضت للحمل كثيرًا يكون مكان اللبن فيها في اتساع... أي أن بطنها تزداد اتساعًا مع كل حمل جديد... وعندما تكون البقرة بطنها واسعة يعرف عنها أنها مُسنة وولدت كثيرًا وصارت فارضا.

وكلمة ﴿ بِكْرٌ ﴾ لها معانٍ متعددة منها أنه لم يطأها فحل... ومنها أنها بكر ولدت مرة واحدة... ومنها أنها ولدت مرارًا ولكن لم يظهر ذلك عليها لأنها صغيرة السن.

وقوله تعالى: ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ ... يعني وسط بين هذه الأوصاف كلها. الحق بعد ذلك يقرعهم فيقول: ﴿ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾... يعني كفاكم مجادلة ونفذوا أمر الله واذبحوا البقرة... ولكنهم لم يسكنوا إنهم يريدون أن

يحاوروا ولذلك غيروا صيغة السؤال.

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴾ [البقرة: ٦٩].

بحثوا عن سؤال آخر ما هو لونها؟ كأن الله تبارك وتعالى حين حدثهم عن السن فتحوا الأبواب ليسألوا ما لونها؟ مع أنه سبحانه وتعالى قال لهم: ﴿ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ [البقرة: ٦٨]... فلم يفعلوا بل سألوا ما لونها؟ ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ ﴾ والصفرة لون من الألوان... ثم قال جل جلاله: ﴿ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾... يعني صفرة شديدة... ثم قال: ﴿ تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴾ ... يعني أن كل من ينظر إليها يُسر لنضارتها ونظافتها وحُسن مظهرها وتناسق جسدها...

وصف البقرة بأنها صفراء هذا لون معروف... وفي الألوان لا يمكن أن تحدد لونًا إلا برؤيته... ولذلك فإن المحسَّات في الألوان لابد أن تسبق معرفتها وبعد ذلك تأتي باللون المطلوب... لذلك لا يقال صفراء فقط لأنك لا تستطيع تحديده... لأن اللون الأصفر له درجات لا نهاية لها... ومزج الألوان يعطيك عددًا لا نهائيًا من درجاتها... ولذلك فإن المشتغلين بدهان المنازل لا يستطيعون أن يقوموا بدهان شقة بلون إلا إذا قاموا بعمل مزيج اللون كله مرة واحدة... حتى يخرج الدهان كله بدرجة واحدة من اللون... ولكن إذا طلبت منه أن يدهن الشقة بنفس اللون... بشرط أن يدهن حجرة واحدة كل يوم فإنه لا يستطيع... فإذا سمعت صفراء يأتي اللون الأصفر إلى ذهنك... فإذا سمعت فاقع فكل لون من الألوان له وصف يناسبه يعطينا دقة اللون المطلوب... فاقع أي شديد الصفرة...

أظنَ أن المسألة قد أصبحت واضحة... إنها بقرة لونها أصفر فاقع تسر الناظرين... وكان من المفروض أن يكتفي بنو إسرائيل بذلك ولكنهم عادوا إلى السؤال مرة أخرى.

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٧٠].

ورغم أن ما قيل لبني إسرائيل... واضح تمام الوضوح عن البقرة... وعمرها وشكلها ولونها ومنظرها... فإن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤدبهم فجعلهم ينظرون إلى البقر ... وهذا يقول هذه هي والآخر يقول لا بل هي في مكان كذا... والثالث يقول لا بل هي في موقع كذا... وعادوا إلى موسى يسألونه أن يعود إلى ربه ليبين لهم لأن البقر تشابه عليهم... وهنا ذكروا الله الذي نسوه ولم ينفذوا أمره منذ أن قال لهم: اذبحوا بقرة، ثم قال لهم: ﴿ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ ... فطلبوا منه الهداية بعد أن تاهوا وضاعوا بسبب عنادهم وجدلهم... وجاء الجواب من الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧١].

﴿ بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ ﴾ ... البقرة الذلول: هي البقرة المروضة الممرنة تؤدي مهمتها بلا تعب... تمامًا مثل الخيل المروضة التي لا تتعب راكبها لأنها تم ترويضها... وسيدنا إسماعيل هو أول من روض الخيل وساسها... وقال الله سبحانه وتعالى لهم أول وصف للبقرة أنها ليست مروضة... لا أحد قادها ولا قامت بعمل... إنها انطلقت على طبيعتها وعلى سجيتها في الحقول بدون قائد.

﴿ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي لم تستخدم في حراثة الأرض أو فلاحتها.

﴿ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾... أي لم تستخدم في إدارة السواقي لسقية الزرع.

﴿ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ ﴾ أي خالية من العيوب لا أذنها مثقوبة. ولا فيها أي علامة من العلامات التي يميز الناس أبقارهم بها... ولا رجلها عرجاء، خالية من البقع والألوان غير اللون الأصفر الفاقع.

وكلمة ﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ ﴾ أي لا شيء فيها.

والمتأمل في وصف البقرة كما جاء في الآيات يرى الصعوبة والتشدد في اختيار

أوصافها... كأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يجازيهم على أعمالهم... ولم يجد بنو إسرائيل إلا بقرة واحدة تنطبق عليها هذه المواصفات فقالوا: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ كأن ما قاله موسى قبل ذلك كان خارجًا عن نطاق الحق... وذبحوا البقرة ولكن عن كره منهم... لأنهم كانوا حريصين على ألا يذبحوها، حرصهم على عدم تنفيذ المنهج... هم يريدون أن يماطلوا الله سبحانه وتعالى... والله يقول لنا أن سمة المؤمنين أن يسارعوا إلى تنفيذ تكاليفه... واقرأ قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وهذه السرعة من المؤمنين في تنفيذ التكاليف... دليل على عشق التكليف؛ لأنك تسارع لتفعل ما يطلبه منك من تحبه.. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ يدلنا على أنهم حاولوا الإبطاء في التنفيذ والتلكؤ.

إننا لابد أن نلتفت إلى أن تباطؤ بني إسرائيل في التنفيذ خدم قضية إيمانية أخرى... فالبقرة التي طلبها الله منهم بسبب عدم قيامهم بتنفيذ الأمر فور صدوره لهم بقرة نادرة لا تتكرر... والمواصفات التي أُعطيت لهم في النهاية... لم تكن تنطبق إلا على بقرة واحدة ليتحكم صاحبها في ثمنها ويبيعها بأغلى الأسعار.

والقصة أنه كان هناك في بني إسرائيل رجل صالح... يتحرى الحلال في الرزق والصدق في القول والإيمان الحقيقي بالله... وعندما حضرته الوفاة كان عنده عجلة وكان له زوجة وابنها الصغير... ماذا يفعل وهو لا يملك سوى العجلة؟ اتجه إلى الله وقال: اللهم إني استودعك هذه العجلة لولدي، ثم أطلقها في المراعي... لم يوصِّ عليها أحدًا ولكن استودعها الله... استودعها يد الله الأمينة على كل شيء... ثم قال لامرأته إني لا أملك إلا هذه العجلة ولا آمن عليها إلا الله... ولقد أطلقتها في المراعي...

وعندما كبر الولد قالت له أمه: إن أباك قد ترك لك وديعة عند الله وهي

عجلة... فقال يا أمي وأين أجدها؟ قالت كن كأبيك هو توكل واستودع وأنت توكل واسترد... فقال الولدُ: اللهم رب إبراهيم ورب موسى... ردّ إليَّ ما استودعه أبي عندك، فإذا بالعِجلة تأتي إليه وقد أصبحت بقرة فأخذها ليريها لأمه... وبينما هو سائر رآه بنو إسرائيل... فقالوا إن هذه البقرة هي التي طلبها الرب... وذهبوا إلى صاحب البقرة وطلبوا شراءها فقال بكم؟... قالوا بثلاثة دنانير... فذهب ليستشير أمه فخافوا أن ترفض وعرضوا عليه ستة دنانير... قالت أمه لا... لا تباع... فقال الابن لن أبيعها إلا بملء جلدها ذهبا، فدفعوا له ما أراد... وهكذا نجد صلاح الأب يجعل الله حفيظًا على أولاده يرعاهم وييسر لهم أمورهم[1].

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٢]

قصة القتيل هي أن رجلاً ثريًا من بني إسرائيل لم يكن له ولد يرثه... وكان له أقارب كل منهم يريد أن يستأثر بأموال هذا الرجل... والمال والذهب هما حياة بني إسرائيل... فتآمر على هذا الرجل الثري ابن أخيه فقتله ليرثه ويستولى على أمواله... ولكنه أراد أن يبعد التهمة عن نفسه فحمل الجثة وألقاها على باب قرية مجاورة ليتَّهم أهلها بقتل الثري... وفي الصباح قام أهل القرية ووجدوا جثة الثري أمام قريتهم... ووجدوه غريبًا عن القرية فسألوا من هو؟ حتى وصلوا إلى ابن أخيه... فتجمع أهل القتيل واتهموهم بقتله... وكان أشدهم تحمسًا في الاتهام القاتل ابن أخيه[2].

وقوله تعالى: ﴿ فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ الدرأ هو الشيء حين يجيء إليك وكل واحد ينفيه عن نفسه... ﴿ فَادَّارَأْتُمْ ﴾ أي أن كلا منكم يريد أن يدفع الجريمة عن نفسه فكل واحد يقول: لست أنا...

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في «التفسير» (١١٧٢ - شاكر).
(٢) نفس المرجع، وستأتي القصّة بتمامها عقب التفسير. إن شاء الله تعالى.

وليس من الضروري أن يتهم أحدٌ آخرَ غيرَه... المهم أن يدفعها عن نفسه...

ولقد حاول أهل القريتين... قرية القتيل، والقرية التي وجدت أمامها الجثة أن يدفع كل منهما شبهة الجريمة عن نفسه وربما يتهم بها الآخر... ولم يكن هناك دليل دامغ يرجح اتهامًا محددًا... بل كانت الأدلة ضائعة ولذلك استحال توجيه اتهام لشخص دون آخر أو لقرية دون أخرى.

وكان التشريع في ذلك الوقت ينص على أنه إذا وجد قتيل على باب قرية ولم يستدل على قاتله... فإن قرية القتيل وأهله يأخذون خمسين رجلاً من أعيان القرية التي وجدت بجوارها الجثة... فيلقوا اليمين بأنهم ما قتلوه... ولا علموا قاتله... وإذا كان الأعيان والأكابر أقل من خمسين رجلاً... تكررت الأيمان حتى تصير خمسين يمينًا... فيحلفون أنهم ما قتلوه ولا يعرفون قاتله... عندها يتحمل بيت المال دية القتيل...

ولكن الله كان يريد شيئًا آخر... يريد أن يرد بهذه الجريمة على جحود بني إسرائيل باليوم الآخر... ويجعل الميت يقف أمامهم وينطق اسم قاتله... ويجعلهم يرون البعث وهم أحياء... ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾.

أي أن بني إسرائيل أو أولئك الذين ارتكبوا الجريمة دبروها على أن تبقى في طي الكتمان فلا يعلم أحد عنها شيئًا... ولذلك جاء الشاب وقتل عمه دون أن يراه أحد... ثم حمل الجثة خفية في ظلام الليل وخرج بها فلم يلتفت أحد إليه... ثم ذهب إلى قرية مجاورة وألقى بالجثة على باب القرية وأهلها نائمون وانصرف عائدًا...

كانت كل هذه الخطوات في رأيه ستجعل الجريمة غامضة لا تنكشف أبدًا ولا يعرف سرها أحد... لكن الله تبارك وتعالى أراد غير ذلك... أراد أن يكشف الجريمة بطريقة لا تحتمل الجدل، وفي نفس الوقت يرد على جحود بني إسرائيل

للبعث... بأن يريهم البعث وهم أحياء.

﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣].

احتدم الخلاف بين بني إسرائيل وكادت تحدث فتنة كبيرة... فقرروا أن يلجأوا إلى موسى ﷺ ليطلب من الله تبارك وتعالى أن يكشف لهم لغز هذه الجريمة ويدلهم على القاتل... وجاء الأمر من الله سبحانه وتعالى أن اذبحوا البقرة ولو ذبحوا بقرة أية بقرة لانتهت المشكلة... ولكنهم ظلوا يقولون ما لونها وما شكلها إلى آخر ما رويناه... حتى وصلوا إلى البقرة التي كان قد استودعها الرجل الصالح عند الله حتى يكبر ابنه فاشتروها وذبحوها... فأمرهم الله أن يضربوه ببعضها... أي أن يضربوا القتيل بجزء من البقرة المذبوحة بعد أن سال دمها وماتت.

وانظر إلى العَظَمَة في القصة... جزء من ميت يُضرب به ميت فيحيا... إذًا المسألة أعدها الحق بصورة لا تجعلهم يشكون أبدًا... فلو أن الله أحياه بدون أن يضرب بجزء من البقرة... لقالوا لم يكن قد مات... كانت فيه حياة ثم أفاق بعد إغماءة. ولكن الله أمرهم أن يذبحوا بقرة حتى تموت ليعطيهم درسًا إيمانيا بقدرة الله وهم الماديون الذين لا يؤمنون إلا بالماديات... وأن يأخذوا جزءًا أو أجزاء منها وأن يضربوا به القتيل فيحيا وينطق باسم قاتله ويميته الله بعد ذلك...

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ليرى بنو إسرائيل وهم على قيد الحياة كيف يحيي الله الموتى وليعرفوا أن الإنسان لا يبقى حيًّا بأسباب الحياة... ولكن بإرادة مسبب الحياة في أن يقول: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ

ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٤].

لماذا ذكر الحق سبحانه وتعالى القلب ووصفه بأنه يقسو ولم يقل نفوسكم؟ لأن القلب هو موضع الرقة والرحمة والعطف... وإذا ما جعلنا القلب كثير الذكر لله فإنه يمتلئ رحمة وعطفا... والقلب هو العضو الذي يحسم مشاكل الحياة... فإذا كان القلب يعمر باليقين والإيمان... فكل جارحة تكون فيها خميرة الإيمان.

وحتى نعرف قوة وقدرة وسعة القلب على الإيمان واحتوائه أوضح الله تعالى هذا المعنى في كتابه العزيز حيث يقول: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

وهكذا نرى أن الجلود تقشعر من هول الوعيد بالنار... بمجرد قراءة ما ذكره القرآن عنها... وبعد ذلك تأتي الرحمة، وفي هذه الحالة لا تلين الجلود فقط ولكن لابد أن تلين القلوب لأنها هي التي تعطي اللمحة الإيمانية لكل جوارح الجسد...

ورسول الله ﷺ يقول: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلُحَت صَلُحَ الجسدُ كلُّه وإذا فَسَدَتْ فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(١).

إذًا فالقلب هو منبع اليقين ومصب الإيمان، وكما أن الإيمان في القلب فإن القسوة والكفر في القلب... فالقلب حينما ينسى ذكر الله يقسو... لماذا؟ ... لأنه يعتقد أنه ليس هناك إلا الحياة الدنيا وإلا المادة فيحاول أن يحصل منها على أقصى ما يستطيع وبأي طريقة فلا تأتي إلا بالظلم والطغيان وأخذ حقوق الضعفاء، ثم لا يفرط فيها أبدًا لأنها هي منتهى حياته فلا شيء بعدها.

إنه يجد إنسانًا يموت أمامه من الجوع ولا يعطيه رغيفًا... وإذا خرج الإيمان

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

من القلب خرجت منه الرحمة وخرج منه كل إيمان الجوارح... فلمحة الإيمان التي في اليد تخرج فتمتد اليد إلى السرقة والحرام... ولمحة الإيمان التي في العين تخرج فتنظر العين إلى كل ما حرم الله... ولمحة الإيمان التي في القدم تخرج فلا تمشي القدم إلى المسجد أبدًا ولكنها تمشي إلى الخمَّارة وإلى السرقة... لأنه كما قلنا القلب مخزن الإيمان في الجسم.

ويشبه الحق تبارك وتعالى قسوة قلوبهم فيقول: ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ ... الحجارة هي الشيء القاسي الذي تدركه حواسنا ومألوف لنا ومألوف لبني إسرائيل أيضًا... لأن لهم مع الحجارة شوطًا كبيرًا عندما تاهوا في الصحراء... وعندما عطشوا وكان موسى يضرب لهم الحجر بعصاه...

الله تبارك وتعالى لفتهم إلى أن المفروض أن تكون قلوبهم لينة ورفيقة حتى ولو كانت في قسوة الحجارة... ولكن قلوبهم تجاوزت هذه القسوة فلم تصبح في شدة الحجارة وقسوتها بل هي أشد.

ولكن كيف تكون القلوب أشد قسوة من الحجارة... لا تنظر إلى ليونة مادة القلوب ولكن انظر إلى أدائها لمهمتها.

الجبل قسوته مطلوبة لأن هذه مهمته أن يكون وتدًا للأرض صلبًا قويًا، ولكن هذه القسوة ليست مطلوبة من القلب وليست مهمته... أما قلوب بني إسرائيل فهي أشد قسوة من الجبل... والمطلوب في القلوب اللين، وفي الحجارة القسوة... فكل صفة مخلوقة لمخلوق ومطلوبة لمهمة... فالخطاف مثلاً أعوج، هذا العوج يجعله يؤدي مهمته على الوجه الأكمل... فعوج الخطاف استقامة لمهمته.. وحين تفسد القلوب وتخرج عن مهمتها تكون أقسى من الحجارة، وتكون على العكس تمامًا من مهمتها...

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ ﴾ [البقرة: ٧٤].

هنا يذكرهم الله لما رأوه من الرحمة الموجودة في الحجارة... عندما ضرب موسى الحجر بالعصا فانفجرت منه العيون... وذلك مَثل حِسي شهدوه... يقول لهم الحق جل جلاله: إن الرحمة تصيب الحجارة فيتفجر منها الأنهار ويخرج منها الماء ويقول سبحانه: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾.

إذًا فالحجارة يصيبها اللين والرحمة فيخرج منها الماء... ولكن قلوبكم إذا قست لا يصيبها لين ولا رحمة فلا تلين أبدًا ولا تخشع أبدًا... والله سبحانه وتعالى نزل عليكم التوراة وأعطاكم من فضله ورحمته وستره ومغفرته الكثير... كان المفروض أن تلين قلوبكم لذكر الله.

ولكن ما الفرق بين تفجر الأنهار من الحجارة وبين تشققها ليخرج منها الماء؟ عندما تتفجر الحجارة يخرج منها الماء... نحن نذهب إلى مكان الماء لنأخذ حاجتنا... ولكن عندما تتفجر منها الأنهار فالماء هو الذي يأتي إلينا ونحن في أماكننا... وفرق بين عطاء تذهب إليه وعطاء يأتي إليك... أما هبوط الحجر من خشية الله فذلك حدث عندما تجلى الله للجبل فجعله دكا...

واقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

يذكرهم الحق سبحانه كيف أن الجبل حين تجلى الله له هبط وانهار من خشية الله وهكذا لا يعطيهم الأمثلة مما وقع لغيرهم، ولكن يعطيهم الأمثلة مما وقع لهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي تذكروا أن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء وأن كلٍ ما تعملونه يعرفه وأنكم ملاقوه يوم القيامة ومحتاجون لرحمته ومغفرته... فلا تجعلوا قلوبكم تقسو حتى لا يطردكم الله من رحمته كما خلت قلوبكم من ذكره.

مُلخّص القِصّة:

قال السُّدِّيّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ قال: كان رجل من بني إسرائيل مكثرًا من المال فكانت له ابنة، وكان له ابن أخ محتاج فخطب إليه ابن أخيه ابنته، فأبى أن يزوجه فغضب الفتى وقال: والله لأقتلن عمي ولأخذن ماله، ولأنكحن ابنته، ولآكلن ديته، فأتاه الفتى وقد قدم تُجار في بعض أسباط بني إسرائيل فقال: يا عمّ انطلق معي فخذ من تجارة هؤلاء القوم لعلي أن أصيب منها، فإنهم إذا رأوك معي أعطوني فخرج العم مع الفتى ليلاً فلمّا بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمّه كأنه لا يدري أين هو فلم يجده، فانطلق نحوه فإذا هو بذلك السِّبط مُجتمعين عليه فأخذهُم وقال: قَتلتُم عَمِّي فأدُّوا إليَّ دِيته فَجَعَل يبكي ويحثُو التُّراب على رأسه ويُنادي وَاعَماه.

فرفعهم إلى موسى فقضى عليهم بالدِّية فقالوا له: يا رسول الله اُدْعُ لنا رَبّك حَتَّى يُبيِّن لنا مَن صَاحِبه فيُؤخذ صَاحِب الجريمة فَوالله إنَّ دِيتَه عَلَيْنا لَهَيِّنَة، ولكن نستحي أن نُعَيَّر به، فَذَلك حين يَقُول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

فقال لهم موسى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ قالوا: نَسألك عن القتيل وعمَّن قَتَلهُ وتَقُول: اذبحوا بقرة أتهزأُ بِنا؟

فقال: ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

قال ابن عباس: فلو اعترضُوا بقرة فذبحُوها لأجزأت عنهم، ولكن شدَّدوا وتَعَنَّتُوا على مُوسى فشدَّد الله عليهم فقالوا: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾.

والفَارِض: الهَرِمَة التي لا تَلِد، والبكر: التي لم تلد إلا ولدًا واحدًا، والعوان: النصف التي بين ذلك التي قد ولدت وولد ولدها.

﴿ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ۝٦٨ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا ﴾. قال: نَقِيّ لونها.

﴿ تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾.قال: تُعجب الناظرين

﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ۝٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ ﴾ من بياض ولا سواد ولا حُمرة.

﴿ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ فطلبوها فلم يَقدروا عليها.

وكان رجُل من بني إسرائيل من أبرّ النَّاس بأبيه، وإنَّ رجُلاً مَرّ به معهُ لُؤلُؤ يبيعهُ وكان أبوهُ نائمًا تحت رأسه المفتاح، فقال لهُ الرَّجُل: تشتري مِني هذا اللُؤلُؤ بِسبعين ألفًا؟ فقال له الفتى: كما أنت حتَّى يستيقظ أبي فآخُذهُ مِنك بثمانين ألفا قال الآخر: أيقظ أباك وهو لك بستين ألفًا. فجعل التَّاجر يحُطّ لهُ حتَّى بلغ ثلاثين ألفًا، وزاد الآخر على أن ينتظر أباهُ حتى يستيقظ حتَّى بلغَ مائة ألف فلمَّا أكثر عليه قال: والله لا أشتريه مِنك بشيء أبدًا وأَبى أن يُوقِظ أباه فعوَّضَهُ الله من ذلك اللُؤلُؤ أن يجعل له تلك البقرة فمرَّت به بنو إسرائيل يَطلبُون البقرة وأبصروا البقرة عنده فسألوه أن يبيعهم إيَّاها بقرة ببقرةٍ فأبى فأعطوهُ ثِنتين فأبى فزادُوهُ حَتَّى بلغُوا عَشرًا.

فقالوا: والله لا نترُكك حَتَّى نأخُذها منك فانطلقُوا به إلى مُوسى عليه السلام فقالوا: يا نبي الله إنَّا وجدنَاها عند هذا وأَبى أن يُعطِينَاهَا وقد أعطيناه ثَمنًا.

فقال لهُ مُوسى: أعطِهم بَقَرتك.

فَقَال: يا رسُول الله أنا أحق بمالي.

فقال: صدقت.

وقال للقوم: أرضُوا صَاحِبكُم فأعطوهُ وزنها ذَهبًا فأبى فأضعَفُوهُ لهُ حَتَّى أعطوهُ وزنها عَشر مرَّات ذَهبًّا فباعَهُم إيَّاها وأخذ ثمنها فذبحوها، قال: اضربوه

ببعضها فضَربُوه بالبَضعة التي بين الكتفين فَعَاشَ فسألوه من قتلك؟

فقال لهم: ابن أخي.

قال: أقتلهُ فآخُذ مَالهُ وأنكِح ابنته.

فأخذُوا الغُلام فقتَلُوهُ[1].



(١) رواه ابن جرير الطبري - رحمه الله - في «تفسيره» (١١٧٤)، وقال الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله - إسناده حسن.

حِكْمةُ اللهِ تعالى في قَطْعِ نَسْلِ الْمَمْسُوخ

قال الحقُّ - سبحانه - : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ٦٥، ٦٦].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهاتين الآيتين: بعد أن بين الله جل جلاله لنا كيف أنه فتح باب الفضل والرحمة لليهود فتركوه... أراد أن يبين لنا بعض الذي فعلوه في مخالفة أوامر الله والتحايل عليها... والله تبارك وتعالى له أوامر في الدين وأوامر تتعلق بشئون الدنيا... وهو لا يجب أن نأخذ أي أمر له يتعلق بالدين أو بالدنيا مأخذ عدم الجد... أو نفضل أمرًا على أمر... ولذلك تجد في سورة الجمعة مثلاً قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ٩، ١٠].

هذان أمران أحدهما في الدين والثاني يتعلق بالدنيا... وكلاهما من منهج الله... فالله لا يريدك أن تتاجر وتعمل وقت الصلاة... ولا أن تترك عملك بلا داع وتبقى في المسجد بعد الصلاة... إذا نودي للصلاة فإلى المسجد... وإذا قضيت الصلاة فإلى السعي للرزق... وهناك يومان في الأسبوع ذكرا في القرآن بالاسم وهما يوما الجمعة والسبت... بينما أيام الأسبوع سبعة، خمسة أيام منها لم تذكر في القرآن بالاسم... وهي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس... الجمعة هي عيد المسلمين الذي شرع فيه اجتماعهم في المساجد وأداء صلاة الجماعة... ونلاحظ أن يوم الجمعة لم يأخذ اشتقاقه من العدد... فأيام الأسبوع نسبت إلى الأعداد فيما عدا الجمعة والسبت... لذلك تجد الأحد منسوب إلى واحد والاثنين منسوب إلى اثنين... والثلاثاء منسوب إلى ثلاثة... والأربعاء منسوب إلى أربعة...

والخميس منسوب إلى خمسة....

كان المفروض أن ينسب يوم الجمعة إلى ستة ولكنه لم ينسب... لماذا؟ لأنه اليوم الذي اجتمع فيه للكون نظام وجوده... فسماه الله تبارك وتعالى الجمعة وجعله لنا عيدًا... والعيد هو اجتماع كل الكون في هذا اليوم... اجتماع نعمة الله في إيجاد الكون وتمامها في ذلك اليوم... فالمؤمنون بالله يجتمعون اجتماع حفاوة بتمام خلق الكون لهم... والسبت... الباء والتاء تفيد معنى القطع... وسبت يسبت سبتًا إذا انقطع عمله... ونلاحظ أن خلق السموات والأرض تم في ستة أيام مصداقًا لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الحديد: ٤].

وكان تمام الخلق يوم الجمعة... وفي اليوم السابع وهو يوم السبت... كان كل شيء قد استقر وفرغ من خلق الكون... ولذلك له سبات أي أن هذا اليوم يسمي سباتًا... لأن فيه سكون الحركة بعد تمام الخلق... فلما أراد اليهود يومًا للراحة أعطاهم الله يوم السبت وأراد الحق تبارك وتعالى أن يبتليهم في هذا اليوم والابتلاء هو امتحانهم فقد كانوا يعيشون على البحر وعملهم كان صيد السمك... وكان الابتلاء في هذا اليوم حيث حرم الله عليهم فيه العمل وجعل الحيتان التي يصطادونها تأتي إليهم وقد بدت أشرعتها وكانوا يبحثون عنها طوال الأسبوع وربما لا يجدونها... وفي يوم السبت جاءتهم ظاهرة على سطح الماء تسعى إليهم لتفتنهم... واقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وهكذا يمتلئ سطح البحر بالأسماك والحيتان يوم السبت... فإذا جاء صباح الأحد اختفت بعيدًا وهم يريدون أن يجعلوا السبت عيدًا لهم لا يفعلون فيه أي شيء... ولكنهم في نفس الوقت يريدون أن يحصلوا على هذه الأسماك والحيتان...

صنعوا شيئًا اسمه الحياض العميقة ليحتالوا بها على أمر الله بعدم العمل في هذا اليوم... وفي نفس الوقت يحصلون على الأسماك... هذه الحياض يدخلها السمك بسهولة... ولأنها عميقة لا يستطيع الخروج منها ويتركونه يبيت الليل وفي الصباح يصطادونه... وكان هذا تحايلاً منهم على مخالفة أمر الله... والله سبحانه وتعالى لا يحب من يحتال في شيء من أوامره.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾... وهذه قصة مشهورة عند اليهود ومتواترة... يُعلمها الأجداد للآباء والآباء للأحفاد... وهي ليست جديدة عليهم وإن كان المخاطبون هم اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ ... ولذلك عندما نسمع: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ﴾ أي: لقد عرفتم ومعنى ذلك أن القصة عندكم معروفة... وكأنها من قصص التراث التي يتناقلونها...

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ المفعول هنا واحد هنا حيلة مذكورة أنهم اعتدوا على أمر الله بالراحة يوم السبت... هم حقيقة لم يصطادوا يوم السبت... ولكنهم تحايلوا على الممنوع بنصب الفخاخ للحيتان والأسماك... وكانوا في ذلك أغبياء... وقد كان الممنوع أن يأخذوا السمك في حيازتهم بالصيد يوم السبت... ولكنهم أخذوه في حيازتهم بالحيلة والفخاخ... وقوله تعالى: ﴿ ٱعْتَدَوْا۟ ﴾ أي تجاوزوا حدود الله المرسومة لهم... وعادة حين يحرم الله شيئًا يأتي بعد التحريم قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة: ١٨٧].

لأنه يريد أن يمنعك من الإغراء... حتى لا تقع في المعصية فيقول لك لا تقترب... ولكن بني إسرائيل اعتدوا على حكم الله متظاهرين بالطاعة وهم عاصون... وحسبوا أنهم يستطيعون خداع الله بأنهم طائعون مع أنهم عاصون... وصدر حكم الله عليهم: ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾...

وعادة أنك لا تأمر إنسانًا أمرًا إلا إذا كان في قدرته أن يفعله... الأمر هنا أن يكونوا قردة... فهل يستطيعون تنفيذه؟ وأن يغيروا خلقتهم إلى قردة... إنه أمر في

مقدرة الله وحده فكيف يقول لهم كونوا قردة؟

نقول: إن الآمر نفسه هنا هو الذي يستطيع أن يجعلهم قردة... وهذا الأمر يسمى أمرًا تسخيريًّا ولم يقل لهم كونوا قردة ليكونوا هم بإرادتهم قردة... ولكنه سبحانه بمجرد أن قال كونوا قردة كانوا... وهذا يدلنا على انصياع المأمور للأمر وهو غير مختار... ولو كان لا يريد ذلك ولا يلزم أن يكونوا قد سمعوا قول الله أو قال لهم... لأنه لو كان المطلوب منهم تنفيذ ما سمعوه ربما كان ذلك لازما.. ولكن بمجرد صدور الأمر وقبل أن يتنبهوا أو يعلموا شيئًا كانوا قردة.

ولقد اختلف العلماء كيف تحول هؤلاء اليهود إلى قردة؟ كيف مسخوا؟ قال بعضهم لقد تم المسخ وهم لا يدرون... فلما وجدوا أنفسهم قد تحولوا إلى خلق أقل من الإنسان... لم يأكلوا ولم يشربوا حتى ماتوا... وقال بعض العلماء إن الإنسان إذا مسخ فإنه لا يتناسل... ولذلك فبمجرد مسخهم لم يتناسلوا حتى انقرضوا... ولماذا لم يتناسلوا؟ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولو أنهم تناسلوا... لتحمَّل الأبناء وزر آبائهم... وهذا مرفوض عند الله(١)... إذًا فمن رحمة الله أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون... ويبقون فترة ثم ينقرضون بالأمراض والأوبئة وهذا ما حدث لهم.

قد يقول بعض الناس لو أنهم مسخوا قردة... فمن أين جاء اليهود الموجودون الآن؟ نقول لهم أنه لم يكن كل اليهود عاصين.... ولكن كان منهم أقلية هي التي عصت ومسخت... وبقيت الأكثرية ليصل نسلها إلينا اليوم... وقد قال علماء آخرون أن هناك آية في سورة المائدة تقول: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ

---

(١) هذا من أجمل ما قرأناه في تفسير الآية الكريمة، فرحم اللّـهُ الإمام الشعراوي، وأجزل له الثواب.

وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٦٠].

إذًا هذه قضية قوم غضب الله عليهم ومسخهم قردة وخنازير وعبدة الطاغوت... ولقد أخبرنا الله جل جلاله أن اليهود مسخوا قردة... ولكنه لم يقل لنا أنهم مسخوا خنازير... فهل مسخوا قردة ثم بعد ذلك ازداد غضب الله عليهم ومسخوا خنازير؟ وهل نقلهم الله من إنسانية إلى بهيمية في القيم والإرادة والخلقة؟

نقول: علينا أولاً أن ننظر إلى البهيمية التي نقلهم الله إليها... نجد أن القردة هي الحيوان الوحيد المفضوح العورة دائمًا... وإن عورته لها لون مميز عن جسده... وأنه لا يتأدب إلا بالعصا... واليهود كذلك لم يقبلوا المنهج إلا عندما رفع فوقهم جبل الطور... وما هم فيه الآن ليس مسخ خِلْقة ولكن مسخ خُلُق... والخنازير لا يغارون على أنثاهم وهذه لازمة موجودة في اليهود... وعبدة الطاغوت... الطاغوت هو كل إنسان تجاوز الحد في البغي والظلم... وعُبَّاد الطاغوت هم الطائعون لكل ظالم يعينونه على ظلمه وهم كذلك...

إذًا فعملية المسخ هذه سواء تمت مرة واحدة أو على مرتين مسألة شكلية... ولكن الله سبحانه وتعالى أعطانا في الآية التي ذكرناها في سورة المائدة سمات اليهود الأخلاقية... فكأنهم مسخوا خلقة ومسخوا أخلاقًا.

﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٦].

يريد الله تبارك وتعالى أن يلفتنا إلى أنه بعد أن جعل المسخة الخلقية والأخلاقية لليهود: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ﴾ أي ما معها: ﴿ وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أي ما بعدها، و «النكال» هو العقوبة الشديدة... والعقوبة لابد أن تنشأ عن تجريم أولاً... هذا هو المبدأ الإسلامي والمبدأ القانوني... فرجال القانون يقولون لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص... قبل أن تعاقب لابد أن تقول أن هذا الفعل جريمة عقوبتها كذا وكذا... وفي هذه الحالة عندما يرتكبها أي إنسان يكون مستحقًا للعقوبة... وما دام هذا هو الموقف فلابد من تشريع.

والتشريع ليس معناه أن الله شرَّع العقوبة... ولكن معناه محاولة منع الجريمة بالتخويف حتى لا يفعلها أحد... فإذا تمت الجريمة فلابد من توقيع العقوبة... لأن توقيعها عبرة للغير ومنع له من ارتكابها... وهذا الزجر يسمى نكولا ومنها النكول في اليمين أي الرجوع فيه.

إذًا قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا﴾ ... أي جعلناها زجرًا وعقابًا قويًا... حتى لا يعود أحد من بني إسرائيل إلى مثل هذه المخالفة: ﴿نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾. أي عقوبة حين يرويها الذين عاصروها تكفي لكي لا يقتربوا من هذه المعصية أبدًا... وتكون لهم موعظة لا ينسونها: ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ يعني جعلناها تتوارثها الأجيال من بني إسرائيل جيلاً بعد جيل... كما بيننا الأب يحكي لابنه حتى لا يعود أحد في المستقبل إلى مثل هذا العمل من شدة العقوبة: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ... أي موعظة لكل الناس الذين سيبلغهم الله تبارك وتعالى بما حدث من بني إسرائيل وما عاقبهم به... حتى يقوا أنفسهم شر العذاب يوم القيامة الذي سيكون فيه ألوان أشد كثيرًا من هذا العذاب... على أننا لابد أن نلفت الانتباه إلى أن مبدأ أنه لا عقوبة إلا بتجريم، ولا تجريم إلا بنص هو مبدأ إلهي، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

أي يأتي الرسول أولاً ليجرِّم هذه الأفعال.. فإن ارتكبها أحد من خلق الله حَقَّت عليه العقوبة... ومن هنا فإن كل ما يُقال عن قوانين بأثر رجعي مخالف لشريعة الله تبارك وتعالى وعدله، فلا يوجد في عدالة السماء ما يُقال عنه «أثر رجعي».

وفي سورة «الأعراف» قال الحقُّ سبحانه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟

يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣- ١٦٦].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - : في تفسيره لهذه الآيات: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ والسؤال هنا سؤال للتقرير والتقريع والتوبيخ: وما قصة القرية التي كانت حاضرة البحر؟

لقد قلنا: إن حاضرة البحر أي القريبة من البحر، ونفهم أن ما تتعرض له الآية من سؤالهم يشير إلى أنّ للبحر فيه مدخلاً؛ لأن المسألة متعلقة بالحيتان والسمك والصيد؛ لذلك لابد أن تكون بلدة ساحلية.

﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وحيتان جمع حوت، مثلما يجمعون «نُونًا» - وهو الحوت أيضًا - على «نينان»؛ وهو صنف من الأسماك، لقد حرم الله عليهم العمل في يوم معين لينقطعوا فيه للعبادة وهو يوم «السبت»، ومازالت عندهم بعض هذه العادات، حتى إن واحدًا منهم زار أمريكا ورفض أن يركب سيارة يوم السبت لأنه يوم عطلة، ورفض كذلك أن يعمل حتى جاء اليوم التالي. وشاء الحق سبحانه أن يؤدبهم حينما ارتكبوا أشياء مخالفة للمنهج، وسلب منهم وقتًا للعمل، وقال: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء: ١٦٠].

وفي هذه مُثُل وعِبَر لأي منحرف، ولكل منحرف نقول: إياك أن تظن أنك بانحرافك عن منهج الله ستأخذ أشياء من وراء ربنا وتسرقها، لا؛ لأن ربنا قادر أن يبتليه بعقاب يفوق ما أخذ آلاف المرات، فالمرتشي مثلاً يفتح له الله أبوابًا من الأمراض ومن العلل ومن المصائب فيضيع عليه كل شيء أخذه.

إذا فقد استحل بنو إسرائيل أشياء محرمة، فابتلاهم الله بأن يحرمهم من أشياء كانت حلالاً لهم. وهكذا نرى أن ما وقع عليهم من عقاب كان بظلمهم لأنفسهم؛ لأنهم انشغلوا بالدنيا وبالمادة، فحرم عليهم العمل في يوم السبت،

وهؤلاء الذين كانوا يقيمون قريبًا من حاضرة البحر يبتليهم الله البلاء العظيم، ويرون السمك في المياه وهو يرفع زعانفه كشراع المركب، وتطل عليهم أشرعة الحيتان وهم في بيوتهم، وهذا ابتلاء من ربهم لهم وعقاب؛ لأنهم ممنوعون من صيده، ويرون هذا السمك أمامهم في يوم السبت، لكن في بقية الأيام التي يباح فيها العمل، كيوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة لا تظهر لهم ولا سمكة واحدة: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وهنا قالوا: مادام ربنا قد حرم علينا أن نصطاد يوم السبت فعلينا أن نحتال. وصنعوا كيسًا من السلك المضفر والذي نسميه «الجوبية» وهم أول من صنعوا هذه الجوبية بشكل خاص، ويدخل السمك فيها ولا يستطيع الخروج منها، فيأتي السمك يوم السبت ويدخل في الجوبية ويستخرجونه يوم الأحد، وفي هذا اعتداء. أو يصنعون حوضًا له مدخل وليس له مخرج وفي هذا مكر. وتمكر لهم السماء بحيلة أشد. لقد أراد الله ابتلاءهم لأنهم فسقوا عن المنهج. وخرجوا عن الطاعة، واستحلوا أشياء حرمها الله؛ لذلك يحرم الله عليهم أشياء أحلها لغيرهم.

ويقول الحق بعد ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

وحينما تجد أن طائفة قالت قولاً، فلابد أن هناك أناسًا قيل لهم هذا القول، إذًا ففيه «قوم واعظون»، و «قوم موعوظون» و «قوم مستنكرون وعظ الواعظين». وهكذا صاروا ثلاث فرق:

الذين قالوا وعظًا لهم: لماذا لا تلتزمون بمنهج الله؟ هؤلاء هم المؤمنون حقًا.

وقالوا ذلك لأنهم رأوا من يخالف منهج الله، والذين لاموا الواعظين هم الصلحاء من أهل القرية الذين يئسوا من صلاح حال المخالفين للمنهج.

وحين ندقق في الآية: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ نعلم أن القائلين هم من الذين لم يعتدوا، ولم يعظوا وقالوا هذا التساؤل لمن وعظوا؛ لأنهم رأوا أن الوعظ مع الخارجين على منهج الله لا ينفع، كما قال الله لرسوله ﷺ: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝ ﴾.

هنا يسأل الحق رسوله: ولماذا تُحزن نفسك وتعمل على إزهاق روحك، وهنا قال بعض بني إسرائيل: لم تعظون هؤلاء المغالين في الكفر، لماذا ترهقون أنفسكم معهم، إنهم يعملون من أجل أن يعذبهم الله. وماذا قال الواعظون؟ قالوا: ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

وما هي المعذرة إلى الله؟

يقال: عذرك فلان إذا كنت قد فعلت فعلاً كان في ظاهره أنه ذنب ثم بينت العذر في فعله، كأن تقول: لقد جعلتني أنتظرك طويلاً وتأخرت في ميعادك معي، أنت تقول ذلك لصديق لك لأنه أتى بعمل مخالف وهو التأخر في ميعادٍ ضربه لك، فيرد عليك: تعطلت مني السيارة ولم أجد وسيلة مواصلات، وهذا عذر، إذًا فمعنى «العذر» هو إبداء سبب لأمر خالف مراد الغير.

ولذلك يقال: أعذر من أنذر، والحق يقول: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ [التوبة: ٩٠].

ونعلم أيضًا أن هناك مُعذِرًا، ومُعذِّرًا، والمُعَذِّر هو من يأتي بعذر كاذب، والمُعذِر هو من يأتي بعذر صادق، وقال الواعظون: نحن نعظهم، وأنتم حكمتم بأن العظة لا تنفع معهم لأنهم اختاروا أن يهلكهم الله ويعذبهم ولكنا لم نيأس، وعلى فرض أننا يئسنا من فعلهم، فعلى الأقل نكون قد قدمنا لربنا المعذرة في أننا عملنا على قدر طاقتنا.

وكلمة «وَعظ» تقتضي أن نقول فيها: إن هناك فارقًا بين بلاغ الحكم، والوعظ بالحكم؛ فالوعظ أن تكرر لموعوظ ما يعلمه لكنه لا يفعله، كأن

تقول لإنسان: قم إلى الصلاة، هو يعلم أن الصلاة مطلوبة لكنه لا يقوم بأدائها.

إذًا فالوعظ معناه تذكير الغافل عن حكم، ومن كلمة الوعظ نشأت الوعَّاظ، وهم من يقولون للناس الأحكام التي يعرفونها، ليعملوا بها، فالوعاظ إذًا لا يأتون بحكم جديد.

وبعض العلماء قال: إن قول الحق: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ ليس مرادًا به الفئة التي لم تفعل الذنب ولم تعظ، إنما يراد به الفئة الموعوظة، كأن الموعوظين قالوا: إن ربنا سيعذبنا فلماذا توعظوننا؟ ونقول: لا، لأن عَجُز الآية ينافي هذا، فالحق يقول: ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

ومجيء «لعلهم» يؤكد أن هذا خبر عن الغير لا أنَّه من الموعوظين، ويقول الحق بعد ذلك: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

ويخبرنا الحق هنا أن الموعوظين حينما نسوا ما وعظهم به بعض المؤمنين أهلكهم الله بالعذاب الشديد جزاءً لخروجهم وفسوقهم عن المنهج وأنجى الله الفرقة الواعظة، وماذا عن الفرقة الثالثة التي لم تنضم إلى الواعظين أو الموعوظين؟

الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ إن قولهم هذا لون من الوعظ؛ فساعة يخوفونهم بأن ربنا مهلك أو معذب من يخرج على منهجه، فهو وعظ من طرف آخر.

وقوله الحق: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ يدل على أنه قد وعظهم غيرهم وذكروهم، ويعذب الحق هؤلاء الذين ضربوا عرض الحائط بمنهجه ولم يسمعوا من وعظوهم، وخرجوا على تعاليمه فظلموا أنفسهم واستحقوا العذاب الشديد؛ فالمسألة ليست تعنتًا من الله؛ لأنهم السبب في هذا، إما بفسق، وإمّا بظلم للنفس.

ويقول الحق بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝﴾.

وأخذهم بعذاب يدل على أنه لم يزهق حياتهم ويميتهم؛ لأن العذاب هو إيلام من يتألم، والموت ليس عذابًا لأنه ينهي الإحساس بالألم، ولنتعرف على الفارق بين الموت والعذاب حين نقرأ قصة الهدهد مع سيدنا سليمان، يقول سيدنا سليمان حين تنبه لغياب الهدهد عندما وجد مكانه خاليًا: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [النمل: ٢٠، ٢١].

هكذا نرى الفارق بين العذاب وبين الموت، وهنا يقول الحق: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾ و﴿عَتَوْاْ﴾ تعني أبوْا وعصوا واستكبروا، فحق عليهم عذاب الله الذي أوضحه قول الحق: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

لأن «العتو» كبرياء وإباء؛ فيعاقبهم الله بأن جعلهم كأخس الحيوانات، فصيرهم أشباه القرود، كل منهم مفضوح السوءة، يسخر الناس منهم ويستهزئون بهم، فهل انقلبوا قردة؟ نعم، لأنك حين تأمر إنسانًا بفعل.. ألا تُقَدِّر قبل الأمر له بالفعل أنه صالح أن يفعل وألا يفعل؟!

وحين يقول الله: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾ فهل في مكنتهم أن يصنعوا من أنفسهم قردة؟! نقول: إن هذا اسمه «أمر تسخيري» أي أصبحوا وصُيِّروا قردة، وقد رأوهم على هذه الهيئة من وعظوهم، وهي هنا مقولة «خبر» نصدقه بتوثيق من قاله، وكان هذا الخبر واقعًا لمن شاهده.

ولذلك نجد المعجزات التي حدثت لسيدنا رسول الله ﷺ غير القرآن الذي وصلنا ككتاب منهج ومعجزة وسيظل كذلك إلى قيام الساعة، لكن ألم ينبع الماء من بين أصابعه ﷺ ؟!

لقد حدث ذلك وغيره من المعجزات وشاهده أصحابه ﷺ، وأخبرونا بالخبر، وكان ذلك آية تُثبِّت يقينهم وإيمانهم.

وتثبت لنا خبرًا، فإن اتسع لها ذهنك فأهلاً وسهلاً، وإن لم يتسع لها فلا توقف إيمانك؛ لأنها آية لم تأت من أجلك أنت، وكل معجزة كونية حدثت لرسول الله فالمراد بها من شاهدها، ووصلتك أنت كخبر، إن وثقت بالخبر صدقته، وإن لم تثق به ووقفت عنده فلن ينقص إيمانك، غير أنه يجب على من وصل إليه الخبر بطريق مقطوع به، أن يصدق ويذعن.

وقد أخبر الحق هنا بالأمر بقوله: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ بأنه أوقع عليهم عذابًا بأن جعلهم قردة خاسئين، فهذا عقاب للذين عتوا عمَّا نهوا عنه، والذين وعظوهم أو عاصروهم هم من شاهدوا وقوع العذاب.

وهل الممسوخ يظل ممسوخًا؟

إن الممسوخ قردًا أو خنزيرًا، يظل فترة كذلك ليراه من رآه ظالمًا، ثم بعد ذلك يموت وينتهي[1].



(١) والدليل: روى مسلم وأحمد عن ابن مسعود، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الله لم يَجْعَلْ لِمسخ نَسْلاً، ولا عَقِبًا، وقد كانت القردةُ والخنازير قَبْلَ ذلك».
وقال ابن عباس: ولم يعش مسخٌ قطّ فوق ثلاثة أيّام، ولم يأكل ولم يشرب، ولم ينسل، وكذلك يفعل الله بمن يشاء كما يشاء ويحوله كما يشاء.

نَتْقُ الْجَبَل

قال تعالى - مخاطبًا - بني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [البقرة: ٦٣].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله - : الحق سبحانه وتعالى أخذ على اليهود الميثاق القديم.. ولولا هذا الميثاق ما آمنوا ولا آمنت ذريتهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ أي أن الله تبارك وتعالى يذكرهم بأنهم بعد أن نجوا وأغرق الله فرعون وقومه ذهب موسى لميقات ربه ليتلقى عنه التوراة.. فعبد بنو إسرائيل العجل، وعندما عاد موسى بالتوراة وبالألواح.. وجدوا في تعاليمها مشقة عليهم.. وقالوا نحن لا نطيق هذا التكليف وفكروا ألا يلتزموا به وألا يقبلوه.

التكليف هو من مكلف هو الله سبحانه وتعالى.. وهم يقولون إن الله كلفهم ما لا يطيقون.. مع أن الله جل جلاله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.. هذا هو المبدأ الإيماني الذي وضعه الحق جل جلاله.. يظن بعض الناس أن معنى الآية الكريمة: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

يظنون أننا نضع أنفسنا حكمًا على تكليف الله.. فإن كنا نعتقد أننا نقدر على هذا التكليف نقول هو من الله وإن كنا نعتقد أننا لا نقدر عليه بحكمنا نحن.. نقول الله لم يكلفنا بهذا لأنه فوق طاقتنا.. ولكن الحكم الصحيح هل كلفك الله بهذا الأمر أم لم يكلفك؟ إن كان الله قد كلفك فهو عليم بأن ذلك في وسعك.. لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.. ونحن نسمع الآن صيحات تقول أن العصر لم يعد يحتمل.. وأن ظروف الدنيا وسرعة الحركة فيها وسرعة الأحداث هي تبرير أنه ليس في وسعنا أن نؤدي بعض التكاليف.. ربما كان هذا التكليف في الوسع في الماضي عندما كانت الحياة بسيطة وحركتها بطيئة ومشاكلها محدودة.

نقول لمن يردّد هذا الكلام: إن الذي كلفك قديمًا هو الله سبحانه وتعالى، إنه يعلم أن في وسعك أن تؤدي التكليف وقت نزوله.. وبعد آلاف السنين من نزوله وحتى قيام الساعة.. والدليل على ذلك أن هناك من يقوم بالتكليف ويتطوع بأكثر منه ليدخل في باب الإحسان.. فهناك من يصلي الفروض وهي التكليف.. وهناك من يزيد عليها السنن.. وهناك من يقوم الليل.. فيظل يتقرب إلى الله تبارك وتعالى بالتطوع من جنس ما فرض.. وهناك من يصوم رمضان ومن يتطوع ويصوم أوائل الشهور العربية.. أو كل اثنين وخميس على مدار العام أو في شهري رجب وشعبان.. وهناك من يحج مرة ومن يحج مرات.. وهناك من يلتزم بحدود الزكاة ومن يتصدق بأكثر منها.

إذًا كل التكاليف التي كلفنا الله بها في وسعنا وأقل من وسعنا.. ولا يقال إن العصر قد اختلف، فنحن الذين نعيش هذا العصر... بكل ما فيه من متغيرات نقوم بالتكاليف ونزيد عليها دون أي مشقة.. والله سبحانه وتعالى رفع فوق بني إسرائيل جبل الطور رحمة بهم.. تمامًا كما يمسك الطبيب المشرط ليزيل صديدًا تكوَّن داخل الجسد.. لأن الجسد لا يصح بغير هذا.

لذلك عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يصيب بفضله ورحمته بني إسرائيل رغم أنوفهم.. رفع فوقهم جبل الطور الموجود في سيناء.. وقال لهم تقبلوا التكليف أو أطبق عليكم الجبل.. تمامًا كما أهلك الله تبارك وتعالى الذين كفروا ورفضوا الإيمان وقاوموا الرسل الذين من قبلهم.. قد يقول البعض إن الله سبحانه وتعالى أرغم اليهود على تكليف وهو القائل: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

نقول: إن الله جل جلاله لم يرغم أحدًا على التكليف.. ولكنه رحمة منه خيرهم بين التكليف وبين عذاب يصيبهم فيهلكهم.. وهذا العذاب هو أن يُطبقَ عليهم جبل الطور.

إذًا المسألة ليس فيها إجبار ولكن فيها تخيير.. وقد خُيِّرَ الذين من قبلهم بين الإيمان والهلاك فلم يصدقوا حتى أصابهم الهلاك.. ولكن حينما رأى بنو إسرائيل الجبل فوقهم خشعوا ساجدين على الأرض.. وسجودهم دليل على أنهم قبلوا المنهج.. ولكنهم كانوا وهم ساجدون ينظرون إلى الجبل فوقهم خشية أن يطبق عليهم.. ولذلك تجد سجود اليهود حتى اليوم على جهة من الوجه.. بينما الجهة الأخرى تنظر إلى أعلى وكان ذلك خوفًا من أن ينقض الجبل عليهم.. ولو سألت يهوديًا لماذا تسجد بهذه الطريقة؟ يقول لك: أحمل التوراة ويهتز منتفضًا.

نقول أنهم اهتزوا ساعة أن رفع الله جبل الطور فوقهم.. فكانوا في كل صلاة يأخذون نفس الوضع.. والذين شهدوهم من أولادهم وذريتهم.. اعتقدوا أنها شرط من شروط السجود عندهم.. ولذلك أصبح سجودهم على جانب من الوجه.. ونظرهم إلى شيء أعلاهم يخافون منه.. أي أن الصورة التي حدثت لهم ساعة رفع جبل الطور لازالوا باقين عليها حتى الآن.

في هذه الآية الكريمة يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ وفي آية أخرى يقول المولى جل جلاله في نفس ما حدث: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧١].

﴿ نَتَقْنَا ﴾ كأن الجبل وتد في الأرض ونريد أن نخلعه.. فنحركه يمينًا ويسارًا حتى يمكن أن يخرج من الأرض.. هذه الحركة والزحزحة والجذب هي النتق.. والجبل كالوتد تمامًا يحتاج إلى هز وزعزعة وجذب حتى يخرج من مكانه.. وهذه الصورة عندما حدثت خشعوا وسجدوا وتقبلوا المنهج.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ .

الأخذ عادة مقابل للعطاء.. أنت تأخذ من معطٍ.. والتكليف أخذ من الله حتى تعطى به حركة صلاح في الكون.. إذًا كل أخذ لابد أن يأتي من عطاء.. فأنت تأخذ من الجيل الذي سبقك وتعطي للجيل الذي يليك.. ولكنك لا تعطيه

كما هو، ولكن لابد أن تضيف عليه.. وهذه الإضافة هي التي تصنع الحضارات.

وقوله تعالى: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ .. أي لا تأخذوا التكليف بتخاذل.. والإنسان عادة يأخذ بقوة ما هو نافع له.. ولذلك فطبيعة مناهج الله أن تؤخذ بقوة وبيقين.. لتعطي خيرًا كثيرًا بقوة وبيقين.. وإذا أخذت منهج الله بقوة فقد ائتمنت عليه وإن صدرك قد انشرح وتريد أن تأخذ أكثر.. لذلك تجد في القرآن الكريم يسألونك عن كذا.. دليل على أنهم عشقوا التكليف وعلموا أنه نافع فهم يريدون زيادة النفع.

ومادام الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ .. فقد عشقوا التكليف ولم يعد شاقًا على أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .. اذكروا ما فيه أي ما في المنهج وأنه يعالج كل قضايا الحياة واعرفوا حكم هذه القضايا..﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تطيعون الله وتتقون عقابه وعذابه يوم القيامة.



مُعْجِزَةُ العَصَا

يقول الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - : خَرْقُ الناموس يكون بإذن من الله للرسل والأنبياء والأولياء؛ إننا نجد كل ذلك آيات من الحق لإثبات صدق الرسول في البلاغ عنه، وهذا الإثبات مشروط بشروط: أولها أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى في هذا المجال الذي تحدث فيه تلك المعجزة.

والمثال على ذلك: خرق الحق سبحانه لناموس العصا وهي فرع من شجرة وجعل موسى عليه السلام يلقيها فإذا هي حية تسعى.

وما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحرًا ولكنه نقلها من جنس إلى جنس في عصر نبغ فيه الناس في السحر، ونعلم أن موسى أنس إلى ربه فقال وأطنب وأسهب وأطال: ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ [طه: ١٨].

وعرف موسى من بعد مقام الأنس والانجذاب مقام الخشية فأوجز قائلاً: ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ١٨].

لقد عرف موسى عليه السلام أنه يخاطب مولاه فأطال الأنس به ، وعرف أيضًا مراعاة المقامات وانتقل من الانجذاب والأنس إلى مقام الرهبة فقال: ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾.

وجاء الأمر بإلقاء العصا: ﴿ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ١٩].

وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذي يعلمه موسى عليه السلام فلم تعد للتوكؤ والهش على الغنم، ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حيّة: ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه: ٢٠].

ولذلك كان لابد أن تُدهش المسألةُ موسى عليه السلام، لذلك أوجس خيفة، ولكن

موسى عندما عرف سرّ عصاه لم يوجس خيفة بل تحدى السحرة الذين جاء بهم فرعون في يوم الزينة، وعرف موسى أنه ليس بساحر مثلهم ولكن الله أتاه معجزة ستبهر حتى السحرة، فالسحرة يعلمون أن عملهم تخييل وليس تغييرًا للأشياء، أما الحق فهو يغير الأشياء نفسها، لقد جاء السحرة بناء على أمر فرعون إلى يوم الزينة، ويعلمنا القرآن بلمحات جانبية أن نظام السخرة كان موجودًا، ولذلك طالب السحرة بأجرهم إن هم غلبوا موسى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣].

وعلى الرغم من اختلاف مواهب هؤلاء السحرة ورقي كل منهم في فرع من فروع السحر، إلا أنهم جميعًا سجدوا للحقيقة عندما ألقى موسى عصاه وقالوا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢].

وهكذا عرفوا أن ما فعله موسى ليس قدرة بشرية ولكنه قدرة فوق قدرة البشر، إنها المعجزة التي يجريها الله على يد الرسل لإثبات صدقهم في ادعائهم أنهم رسل من الله.

وكذلك نبغ قوم عيسى عليه السلام في الطب، ولم يجرؤ أحدهم على أن يشفي بكلمة واحدة الأكمه والأبرص أو أن يخرج الميت من موته إلى الحياة، وعلى الرغم من تقدمهم في الطب لم يستطع أحدهم أن يفعل ذلك.

والحق سبحانه يسهل المعجزات على رسله، والمثال في الإسلام هو الإسراء برسولنا ونبينا ﷺ، وحَدَثَ الإسراء في لمح البصر، ونحن في زماننا نرى التقدم الآلي والفني قد اخترع الصواريخ التي يمكن أن تختصر الوقت لمثل الرحلة من مكة إلى القدس ولكنها تمت بوساطة آلة تعمل وبأجهزة أعدت بنظام دقيق بعد تجارب مضنية، ولكن الحق عندما أراد لم يكن الأمر سوى كلمة منه تصير معجزة في التو واللحظة.

ولنحفظ ذلك جيدًا: إن المعجزة خرق اقتدار لا سبق ابتكار أي أنها خرق لنواميس الكون حادث من اقتدار المقتدر - سبحانه - ولم يحدث ذلك من ابتكار واختراع واكتشاف مكتشف.



المعجزات التي أيَّدَ اللهُ بها مُوسى عليه السلام

قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١].

اقترح كفار مكة على رسول الله ﷺ عدة آيات ذُكرت في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

فأراد الحق سبحانه أن يُلفِت نظره أن سابقيهم من اليهود أتتهم تسع آيات ونزلت عليهم دون أن يطلبوها، ومع ذلك كفروا، فالمسألة كلها تعنّت وعناد من أهل الكفر في كل زمان ومكان.

ومعنى ﴿ بَيِّنَٰتٍ ﴾ أي: واضحات مشهورات بَلْقَاء كالصبح، لأنها حدثت جميعها على مَرأىً ومشهد من الناس.

والمراد بالآيات التسع هنا هي الآيات الخاصة بفرعون؛ لأن كثيرون يخلطون بين معجزات موسى إلى فرعون، ومعجزاته إلى بني إسرائيل.

إذًا فقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ﴾ هي الآيات التي أُرسل بها إلى فرعون وقومه وهي: العصا التي انقلبت حية، واليد التي أخرجها من جيبه بيضاء مُنورة، وأخذ آل فرعون بالسنين ونقصٍ من الأموال والأنفس، والثمرات، ثم لما كذَّبوا أنزل الله عليهم الطوفان، والجراد، والقُمّل(١)، والضفادع،

---

(١) القُمَّل: صغار الذَّر والدَّبَى. وهو شيء صغير له جناح أحمر، قال ابن السّكيت: القمل: شيء يقع في الزَّرْع ليس بِجَراد فيأكل السّنبلة وهي غضّة قبل أن تخرج فيطول الزّرع ولا سُنبل له.

والدم، هذه تسع آيات خاصة بها دار بين موسى وفرعون.

أما المعجزات الأخرى مثل العصا التي ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، ونتق[1] الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة، وإنزال المنِّ والسَّلْوى عليهم، فهذه آيات خاصة ببني إسرائيل.



(١) نتقه: رَفَعَه من مكانه وَحَرّكَه وَجَذَبه.

داود عليه السلام والحديد

يقول الحق سبحانه عن داود عليه السلام: ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ يصح أن نقول: كان هذا التعليم بالوحي، أو بالتجربة أو الإلقاء في الرَّوع، وهذه الصنعة لم تكن معروفة قبل داود عليه السلام.

واللَّبوس: أبلغ وأحكم من اللباس، فاللباس من نفس مادة «لبس» هي الملابس التي تستر عورة الإنسان وتقيه الحر والبرد، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ [النحل: ٨١].

أما في الحرب فنحتاج إلى حماية أكبر ووقاية أكثر من العادية التي نجدها في اللباس، في الحرب نحتاج إلى ما يقينا البأس، ويحمينا من ضربات العدو في الأماكن القاتلة؛ لذلك اهتدى الناس إلى صناعة الخوذة والدرع لوقاية الأماكن الخطرة في الجسم البشرى، وتتمثل هذه في الرأس والصدر، ففي الرأس المخ، وفي الصدر القلب، فإن سَلِمَت هذه الأعضاء فما دونها يمكن مداوته وجَبْره.

إذًا اللبوس أبلغ وأكثر حماية من اللباس؛ لأن مهمته أبلغ من مهمة اللباس، وهذه كانت صنعة داود عليه السلام كان يصنع الدروع، وكانت قبل داود مَلساء يتزحلق السيف عليها، فلما صنعها داود جعلها مُركَّبة من حلقات حتى ينكسر عليها السيف؛ لذلك قال تعالى بعدها: ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ أي: تحميكم في حَربكم مع عدوكم، وتمنعكم وتحوطكم(١).

إذًا ألهمنا داود عليه السلام، فأخذ يُفكِّر ويبتكر، وكل تفكير في ارتقاء صَنعة إنما ينشأ

---

(١) وكان داود عليه السلام - لا يحتاج في تشكيل الحديد إلى نار!! قال تعالى: ﴿**ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد**﴾ [سبأ: ١٠].

من ملاحظة عيب في صَنعة سابقة، فيحاول اللاحق تلافي أخطاء السابق، وهكذا حتى نصلَ إلى شيء لا عَيبَ فيه، أو على الأقل يتجنب عيوب سابقه؛ لذلك يُسمُّونه «آخر موديل».

ثم يقول تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ .. ﴿ شَٰكِرُونَ ﴾ على نعمة الله الذي يرعاكم ويحفظكم في المأزق والمواقف الصعبة، واختار سبحانه موقف البأس أمام العدو؛ ليعطينا إشارة إلى ضرورة إعداد المؤمن لمواجهة الكافر، والأخذ بأسباب النجاة إذا تمَّت المواجهة.

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥].

فليست مهمة الحديد في الحياة أنه ينفع الناس فحسب، إنما له مهمة قتالية أيضًا؛ لذلك قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾.

كما قال: ﴿ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[الإنسان: ٢٣].

فإن كان القرآن للهداية فالحديد يُؤيِّد هذه الهداية، حيث نضرب به على أيدي الكافرين العاصين، ونحمي به صدور المؤمنين المصدِّقين؛ لذلك قال:

﴿ وَأَنزَلْنَا ﴾ أي: من أعلى مع أنه خارج من الأرض.

إذًا فمسألة الحديد في الأرض نعمة كبيرة من نِعَم الله علينا، بها نحفظ أنفسنا من العدو، فالحق - سبحانه وتعالى - خلق الخَلْق ولم يتركه هكذا يُدِّبر أمره، إنما خلقه ووضع له قانون حمايته وصيانته، وهذا يستحقّ مِنّا الشكر الدائم الذي لا ينقطع.



الجماد يتكلم!!

قال الحق سبحانه: ﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله - : حينما جمع السياق القرآني بين داود وسليمان أراد أن يبيِّن لنا طَرَفًا مِمَّا وهبهما الله، فقوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ ﴾ مظهر من مظاهر امتيازه، وهنا يُبيِّن مَيزةً لداود عليه السلام: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ ﴾ والتسخير: قَهر المَسَخّر على فعل لا يستطيع أن ينفكَّ عنه، وليس مختارًا فيه، ونلحظ هنا الارتقاء من الأدنى إلى الأعلى: أولا: سخّر الجبال وهي جماد، ثم الطير وهي أرقى من الجماد، لكن إن تصوَّرنا التسبيح من الطير؛ لأنه حَيٌّ، وله روح، وله حركة وصوت مُعبّر، فكيف يكون التسبيح من الجبال الصماء؟

بعض العلماء حينما يستقبلون هذه الآية يأخذونها بظواهر التفسير، لا بعُمق ونظر في لُبِّ الأشياء، فالجبال يرونها جامدة، ليس لها صوت مُعبّر كما للطير؛ لذلك يعجبون من القول بأن الجبال تُسبِّح، فكيف لها ذلك وهي جمادات؟

لكن؛ ما العجب في ذلك، وأنت لو قُمتَ بمَسح شامل لأجناس الناس في الأرض، واختلاف لغاتهم وألسنتهم وأشكالهم وألوانهم بحسب البيئات التي يعيشون فيها، فالناس مختلفون في مثل هذه الأمور متفقون فقط في الغرائز، فالجوع والعطش والخوف والضحك والعواطف كلها غرائز مشتركة بين جميع الأجناس، وهذه الغرائز المشتركة ليس فيها اختيار.

ألم تَرَ إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم: ٤٣] فمادام أنه سبحانه الذي يُضحِك، والذي يُبكِي، فلن نختلف في هذه الأمور.

فالكلام - إذًا - من الأشياء التي يختلف فيها الناس، وهذا الاختلاف ليس في صوت الحروف، فالحروف هي هي، فمثلاً حين ننطق «شرشل» ينطقها أهل اللغات الأخرى كذلك: شين وراء وشين ولام، فنحن - إذًا - متحدون في الحروف، لكن نختلف في معاني الأشياء.

وقد يعزّ على بعض الحناجر أن تنطقَ ببعض الحروف بطبيعة تكوينها، فغير العربي لا ينطق الضاد مثلاً، فليس عندهم إلا الدال، أما في العربية فعندنا فَرق بين الدال المرقّقة والضاد المفخّمة، وفرق بين السين والثاء، وبين الزاي والذال، وبين الهمزة والعَين، لذلك نجد غير العربي يقول في «علي»: «ألي»، فليس له قدرة على نُطق العين، وهو إنسان ناطق بلغة ومُتكلِّم.

فإذا كنا - نحن البشر - لا يفهم بعضُنا لغاتِ بعض، فهذا عربي، وهذا إنجليزي، وهذا فرنسي .. إلخ، فإذا لم تتعلم هذه اللغة لا تفهمها.

ومعلوم أن اللغة بنت المحاكاة وبنت السماع، فما سمعته الأذن يحكيه اللسان، والأبكم الذي لا يتكلم كان أصمَّ لا يسمع، والطفل ينطق بما سمع، فلو وُضِع الطفل الإنجليزي في بيئة عربية لنطق بالعربية.. وهكذا.

فلماذا نعجب حين لا نفهم لغة الطَّير أو لغة الجمادات، وهي أشياء مختلفة عنّا تمامًا، فلا يعني عدم فَهمنا للغاتهم أنهم ليست لهم لغة فيما بينهم يتعارفون عليها ويُعبِّرون بها.

إذًا لا تستبعد أن يكون للأجناس الأدنى منك لغات يتفاهمون بها وأنت لا تفهمها، بدليل أن الله تعالى أعطانا صورةً من لغات الطير، وهذه يعلمها مَن علَّمه الله، كما امتنَّ الله على سليمان وعلَّمه لغة الطير، ففهم عنها وخاطبها.

وقد حكى الحق سبحانه وتعالى عنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ١٦] ولولا أن الله علَّمه لغة الطير ما عَلمها.

وها هو الهدهد يقول لسليمان عليه السلام لما تفقَّد الطير، ولم يجد الهدهد فتوعَّده:

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢].

ونلحظ هنا دِقَّة سليمان عليه السلام في استعراض مملكته، فلم يترك شيئًا حتى الهدهد، ونلحظ أدبه في قوله: ﴿ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ [النمل: ٢٠] فقد اتهم نظره وشَكَّ أولاً، فربما الهدهد يكون موجودًا، ولم يَرَهُ سليمان.

وانظر إلى قَول الهدهد للملِك: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ ثم معرفته الدقيقة بقضية التوحيد والعقائد: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

ويعترض الهدهد على هذا الشرك، ويردُّ عليه بشيء خاص به، وبظاهرة تُهِمه: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٢٥].

فاختار الهدهد مسألة إخراج الخبء؛ لأن منه طعامه، فلا يأكل من ظاهر الأرض، بل لابُدَّ أن ينبش الأرض، ويُخرِج خبأها ليأكله.

وكذلك النمل، وهو أقلُّ من الهدهد، فقد كان للنملة مع سليمان لغة، وكلام، وفَهم عنها: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل: ١٨، ١٩].

إذًا كان الكلام للنمل ، لكن فَهمه سليمان؛ لذلك قال: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ [النمل: ١٩].

ذلك لأننا لا نفهم هذه اللغات إلا إذا فَهَّمنا الله إيّاها.

ومع هذا حينما وقف العلماء أمام هذه الآية: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩] قالوا: يعني تسبيح دلالة، فهي بحالها تدلُّ على الخالق سبحانه، وليس المراد التسبيح على حقيقته، وأولى بهم أن يعترفوا لها بالتسبيح؛ لكنه تسبيح لا نفهمه نحن، كما قال تعالى: ﴿ لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والآن نرى في طموحات العلماء السَّعي لعمل قاموس للغة الأسماك ولغة بعض الحيوانات، ولا نستبعد في المستقبل عمل قاموس للغة الأحجار والجمادات، وإلا فكيف ستكون ارتقاءات العلم في المستقبل؟! وهذه حقيقة أثبتها القرآن تنتظر أن يكتشفها العلم الحديث.

والمزيّة التي أعطاها الله تعالى لنبيه داود ﷺ ليست في تسبيح الجبال؛ لأن الجبال تُسبِّح معه ومع غيره، وإنما المزية أنها تُردِّد معه، وتوافقه التسبيح، وتجاوبه، فحين يقول داود: سبحان الله، تردد وراءه الجبال: سبحان الله، وكأنهم جميعًا «كورس» يردد نشيدًا واحدًا.

وليس معنى الجماد أنه جامد لا حياة فيه، فهو جماد من حيث صورة تكوينه، ولو تأملتَ المحاجر في طبقات الأرض لوجدت بين الأحجار حياة وتفاعلاً وحركة منذ ملايين السنين، ونتيجة هذه الحركة يتغير لَونُ الحجر وتتغير طبيعته، وهذا دليل الحياة فيها، انظر مثلاً لو دهنت الحجر لَونًا معينًا تراه يتغير مع مرور الزمن، إذًا في هذه الجمادات حياة، لكن لا ندركها.

وسبق أن أشرنا[1] إلى أن الذين يقولون في معجزات النبي ﷺ أنه سبَّح الحصى في يده، أن هذه المقولة غير دقيقة تحتاج إلى تنقيح عقلي، فالحجر مُسبِّح في يد رسول الله، وفي يد أبي جهل، إذًا قل: إن المعجزة هي أن رسول الله ﷺ سمع تسبيح الحصى في يده.

فما من شيء في كون الله إلا وله حياة تناسبه، وله لغة يُسبِّح الله بها، أدركناها أم لم ندركها؛ لأن الكلام فرع وجود حياة، وكل شيء في الوجود له حياة، فعلبة الكبريت هذه التي نستعملها يقول العلماء: إن بين ذراتها تفاعلات تكفي لإدارة قطار حول العالم، هذه التفاعلات دليل حركة وحياة.

ألم يقُل الحق سبحانه وتعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨].

---

(١) يعني في غير هذا الموضع.

فكلُّ ما يقال له شيء - إلا وَجه الله - هالك، والهلاك يعني أن فيه حياةً؛ لأن الهلاك ضد الحياة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فكُلُّ شيء في الوجود له حياة بقانونه، وليس من الضروري أن تسمع الكلام حتى تعترف بوجوده، فهناك مثلاً لغة الإشارة، وهي لغة مفهومة ومُعبِّرة، ألا ترى مثلاً إلى الخادم ينظر إلى سيده مجرد نظرة يفهم منها ما يريد أن يُقدِّمه للضيف مثلاً.

البحارة لهم إشارات يتعارفون عليها ويتفاهمون بها، جهاز التلغراف لَون من ألوان الأداء ووسيلة من وسائل التفاهم، إذًا الأداء والبيان ليس من الضروري أن يتمّ بالكلام المسموع، إنما تتفاهم الأجناس ويُكلِّم بعضها بعضًا كلّ بلغته، فإذا أراد الله أن يفيض عليك من إشراقاته أعطاك من البصيرة والعلم ما تفهم به لغات غيرك من الأجناس.

لذلك يقول تعالى: ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور: ٤١].

والتنوين هنا دالٌّ على التعميم، فلكل شيء صلاته التي تناسبه، وتسبيحه الذي يناسب طبيعته.

والحق - سبحانه وتعالى - حين يعرض قضية التسبيح والخضوع والقَهر من المخلوقات جميعًا لله يأتي الكلام عامًا في كل الأجناس بلا استثناء، إلا في الكلام عن الإنسان، فإن التسبيح والخضوع خاصٌّ ببعض الناس.

اقرأ قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾ [الحج: ١٨].

هكذا بلا استثناء، أمّا في الإنسان، فقال: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج: ١٨].

ثم يقول تعالى: ﴿ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

نعم، الحق سبحانه خالق كل شيء، وفاعل كل شيء، لكن مع ذلك يؤكد هذه الحقيقة حتى لا نتعجب من تسبيح الطير والجماد، فالله هو الفاعل، وهو المانح والمحرك.



تسخير الرِّيح والشياطين لسليمان عليه السلام

قال الحق - سبحانه - : ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨١].

لاشكّ أن سليمان عليه السلام قد استفاد بما علَّم الله به أباه داود، وأخذ من نعمة الله على أبيه، وهنا يزيده ربه - تبارك وتعالى - أمورًا يتميز بها، منها ﴿ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أي: القوية الشديدة.

﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ ﴾.

وكأنها مواصلات داخلية في مملكته من العراق إلى فلسطين.

وفي موضع آخر قال: ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص: ٣٥، ٣٦].

﴿ رُخَآءً ﴾: أي هيّنة ليّنة ناعمة، وهنا قال: ﴿ عَاصِفَةً ﴾ فكأن الله تعالى جمع لهذه الريح صفة السرعة في ﴿ عَاصِفَةً ﴾ وصفة الراحة في ﴿ رُخَآءً ﴾، وهاتان صفتان لا يقدر على الجمع بينهما إلا الله، فنحن حين تُسرِع بنا السيارة مثلاً لا تتوفر لنا صِفة الراحة والاطمئنان، بل يفزع الناس ويطلبون تهدئة السرعة.

أما ريح سليمان فكانت تُسرع به إلى مراده، وهي في الوقت نفسه مريحة ناعمة هادئة لا تُؤثِّر في تكوينات جسمه، ولا تُحِدث له رجَّة أو قوة اندفاع يحتاج مثلاً إلى حزام أمان، فمَن يقدر على الجمع بين هذه الصفات إلا الله القابض الباسط، الذي يقبض الزمن في حق قوم ويبسطه في حق آخرين.

ومعنى ﴿ بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ ﴾ أي: بركة حِسيَّة بما فيها من الزروع والثمار والخِصب والخيرات، وبركة معنوية حيث جعل فيها مهابط الوحي والنبوات وآثار الأنبياء.

وليس تسخير الريح لسليمان أنها تحمله مثلاً، كما رأينا في «السينما» بساط الريح الذي نراه يحمل شيئًا ويسير به في الهواء، أو أنها كانت تُسيِّر المراكب في البحار، إنما المراد بتسخيرها له أن تكون تحت مراده، وتأتمر بأمره، فتسير حيث شاء يمينًا وشمالاً، فهي لا تُهبُّ على مرادات الطبيعة التي خلقها الله عليها، ولكن على مراده هو.

وإن كانت هذه الريح الرُّخاء تحمله في رحلة داخلية في مملكته، فهناك من الرياح ما يحمله في رحلات وأسفار خارجية، كالتي قال الله تعالى عنها: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ: ١٢].

فيجوب بها في الكون كيف يشاء: ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص: ٣٦].

ثم يقول تعالى: ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١].

أي عندنا عِلم نُرتِّب به الأمور على وَفق مرادنا، ونكسر لمرادنا قانون الأشياء فَنُسيِّر الريح كما نحب، لا كما تقتضيه الطبيعة.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

فبعد أن سخَّر الله له الريح سخَّر له الشياطين ﴿ يَغُوصُونَ لَهُۥ ﴾ والغوص: النزول إلى أعماق البحر، ليأتوه بكنوزه ونفائسه وعجائبه التي ادخرها الله فيه، ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: مما يُكلِّفهم به سليمان من أعمال شاقة لا يقدر عليها الإنسان، وقد شرحت هذه الآية في موضع آخر:

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ [سبأ: ١٣] فأدخل مرادات العمل في مشيئته.

﴿ مَّحَٰرِيبَ ﴾ : جمع محراب، وهو مكان العبادة كالقِبلة مثلاً.

﴿ وَجِفَانٍ ﴾: جمع جَفنة، وهي القَصعة الكبيرة الواسعة التي تكفي لعدد كبير.

﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾: أي الثابتة التي لا تنقل من مكان لآخر وهي مبنية.

وقد رأينا شيئًا من هذا في الرياض أيام الملك عبد العزيز - رحمه الله - وكان هذا القِدر من الاتساع والارتفاع بحيث إذا وقف الإنسان مادًا ذراعيه إلى أعلى لا يبلغ طولها، وفي الجاهلية اشتهرت مثل هذه القدور عند ابن جدعان، وعند مطعم بن عدي.

أما التماثيل فهي معروفة، والموقف منها واضح منذ زمن إبراهيم عليه السلام حينما كسَّرها ونهى عن عبادتها، وهذا يردُّ قول مَن قال بأن التماثيل كانت حلالاً، ثم فُتِن الناس فيها، فعبدوها من دون الله فَحرِّمت، إذًا كيف نخرج من هذا الموقف؟ وكيف يمتنّ الله على نبيه سليمان أن سخر له من يعملون التماثيل وهي مُحَرَّمة؟

نقول: كانوا يصنعون له التماثيل لا لغرض التعظيم والعبادة، إنما على هيئة الإهانة والتحقير، كأن يجعلوها على هيئة رجل جبار، أو أسد ضخم يحمل جزءًا من القصر أو شرفة من شرفاته، أو يُصوِّرونها تحمل مائدة الطعام.. إلخ، أي أنها ليست على سبيل التقديس.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

حافظين للناس المعاصرين لهذه الأعمال حتى لا تؤذيهم الشياطين أو تفزعهم، ومعلوم أن الشياطين يرونَ البشر، والبشر لا يَرونَهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أما سليمان عليه السلام فكان يرى الجنَّ ويراقبهم وهم يعملون له، وفي قصته: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ [سبأ: ١٤].

وفي هذا دليل على أن الجن لا يعلمون الغيب؛ لذلك قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ

ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

ويُقال: إن سليمان عليه السلام بعد أن امتنَّ الله عليه، وأعطاه مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده، أخذ هؤلاء الجن وحبسهم في القماقم حتى لا يعملوا لأحد غيره.



عيسى عليه السلام وطلاقة القُدْرة

يحدِّثنا الحقُّ - سبحانه - عن طلاقة قدرته في خَلْق عيسى عليه السلام فيقول جلّ شأنه في سورة «مريم»: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴾ [مريم: ١٦].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - : وقصة مريم في واقع الأمر كانت قبل قصة زكريا ويحيى؛ لأن طلب زكريا للولد جاء نتيجة لما سمعه من مريم حين سألها عن طعام عندها لم يأتِ به، وهو كافلها ومُتولّي أمرها، فتعجب أن يرى عندها رِزقًا لم يحمله إليها، وهي مقيمة على عبادتها في محرابها، فقال لها: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]. وكأن هذه أول بداية قانون: من أين لك هذا؟ لكن عطاءه تعالى لا يخضع للأسباب، بل هو سبحانه يرزق مَن يشاء متى شاء وبغير حساب.

وشاءت إرادة الله أن تنطِقَ مريم بهذه المقولة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾.

لأنها ستُنبِّه زكريا إلى شيء، وستحتاجها أيضًا مريم فيها بعد حينما تشعر بالحَمل من غير زَوج، فلن تعترض على هذا الوضع، وستعلم أنه عطاءٌ من الله.

وكذلك نبَّهت هذه الآية زكريا عليه السلام إلى فَضل الله وسِعَة رحمته، وهذا أمر لا يغيب على نبي الله، ولكن هناك قضايا في النفس البشرية إلا أنها بعيدة عن بُؤرة الشعور وبعيدة عن الاهتمام، فإذا ما ذُكِّر بها انتبه إليها؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾ [آل عمران: ٣٨].

فمادام أن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فلماذا لا أدعو الله بولد صالح يحمل أمر الدعوة من بعدي، وطالما أن الرزق بغير حساب فلن يمنعه كِبَر السِّنِّ أو العُقم أو خلافه.

إذًا فمريم هي التي أوحَت لزكريا بهذا الدعاء، واستجاب الله لزكريا ورزقه يحيى؛ ليكون ذلك مقدمة وتمهيدًا لمريم، فلا تنزعج من حَملها، وتردّ هذه المسألة إلى أن الله يرزق مَن يشاء بغير حساب، وليكون ذلك إيناسًا لنفسها واطمئنانًا، وإلا فمن الممكن أن تلعبَ بها الظنون وتنتابها الشكوك، وتتصور أن هذا الحمل نتيجة شيء حدث لم تشعر به، أو كانت نائمة مثلاً.

لكن الحق - تبارك وتعالى - يقطع عنها كل هذه الشكوك، ويعطيها مقدمة تراها وتعايشها بنفسها في طعام لم يأتِ به أحد إليها، وفي حَمل زوجة زكريا وهي عاقر لا تلِد.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾.

الكتاب هو القرآن الكريم، أي: اذكُر يا محمد في كتاب الله الذي أوحاه إليك مما تذكر قصة مريم.

وقوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾.

﴿ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ أي: ابتعدت عنهم، من نبذ الشيء عنه أي أبعده، فكأن أُنسها لا بالأهل، ولكن أُنسها كان برب الأهل، والقرآن يقول: ﴿ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ولم يقُل: من الناس، فقد تركت مريم أقرب الناس إليها وأحبّهم عندها وذهبت إلى هذا مكان.

﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ لكن شرقيّ أيّ شيء؟ فكل مكان يصح أن يكون شرقيًا، ويصح أن يكون غربيًا، فهي - إذًا - كلمة دائرة في كل مكان، لكن هناك عَلَم بارز في هذا المكان، هو بيت المقدس، فالمراد إذًا شرقي بيت المقدس، وقد جاء ابتعادها عن أهلها إلى هذا المكان المقدس لتتفرغ للعبادة ولخدمة هذا المكان.

لكن، لماذا اختارت الجهة الشرقية من بيت المقدس بالذات دون غيرها من الجهات؟ قالوا: لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس، لأنها سِمَة النور الماديّ الذي يسير الناس على هُدَاه فلا يتعثرون، وللإنسان في سَيره نوران: نور ماديّ من الشمس أو القمر أو النجوم والمصابيح، وهو النور الذي يظهر له الأشياء من

حوله، فلا تصطدم بما هو أقوى منه فيحطمك ولا بأضعف منه فتحطمه.

وكذلك له نور من منهج الله يهديه في مسائل القيم، حتى لا يتخبّط تائهًا بين دُروبها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥].

ثم يقول بعدها: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]. أي: نور السماء الذي ينزل بالوحي لهداية الناس.

﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٧].

الحجاب: هو الساتر الذي يحجب الإنسان عن غيره ويحجب غيره عنه، فما فائدة أن تتخذ بينها وبين أهلها سِترًا بعد أن ابتعدت عنهم؟

نقول: انتبذت من أهلها مكانًا بعيدًا، هذا في المكان، إنما لا يمنع أن يكونَ هناك مكينٌ آخر يسترها حتى لا يطّلع عليها أحد، فهناك إذًا مكان ومكين.

والحجاب قد يكون حجابًا مُفردًا فهو ساتر فقط، وقد يكون حجابًا مستورًا بحجاب غيره، فهو حجاب مُركّب، كما يصنع أهل الترف الآن الستائر من طبقتين، إحداهما تستر الأخرى، فيكون الحجاب نفسه مَستورًا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ أي: جبريل عليه السلام.

﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ معنى «تمثَّل»: أي ليست هذه حقيقته، إنه تمثَّل بها، أما حقيقته فنورانية ذات صفات أخرى، وذات أجنحة مَثْنى وثُلاث ورُبَاع، فلماذا - إذًا - جاء المَلَكُ مريمَ في صورة بشرية؟

لأنهما سيلتقيان، ولا يمكن أن يتمّ هذا اللقاء خُفية، وكذلك يستحيل أن يلتقي المَلَكُ بملكيته مع بشر ببشريته، فلكل منهما قانونه الخاص الذي لا يناسب الآخر، ولابُدَّ في لقائهما أن يتصوَّر الملَك في صورة بشر، أو يُرقَّى البشر إلى صفات الملائكة، كما رُقي محمد ﷺ إلى صفات الملائكة في حادثة الإسراء والمعراج،

ولا يتم الالتقاء بين الجنسين إلا بهذا التقارب.

لذلك، لما طلب الكفار أن يكون الرسول ملَكًا رَدَّ عليهم الحق تبارك وتعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٥].

وقال: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩].

إذًا لا يمكن أن يلتقي المَلَكُ بالبشر إلا بهذا التقارب.

جاء جبريل عليه السلام إلى مريم في صورة بشرية لتأنس به، ولا تفزع إن رأته على صورته الملائكية ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا ﴾ أي: من جنسها.

﴿ سَوِيًّا ﴾ أي سويّ الخِلقة والتكوين، وسيمًا، قد انسجمت أعضاؤه وتناسقت على أجمل ما يكون البشر، فلا يعيبه كِبَر جبهته أو أنفه أو فمه، كما نرى في بعض الناس.

وهذا كله لإيناس مريم وطمأنينتها، وأيضًا ليثبت أنها العذراء العفيفة؛ لأنها لما رأت هذا الفتى الوسيم القَسِيم ما أبدت له إعجابًا ولا تلطف إليه في الحديث، ولا نطقت بكلمة واحدة يُفهَم منها مَيْل إليه، بل قالت كما حكى القرآن: ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ [مريم: ١٨].

فلم تُظهِر له إعجابًا، ولا مالت إليه بكلمة واحدة، وهذا دليل على عِفّتها وطهارتها واستقامتها والتزامها.

وقولها: ﴿ أَعُوذُ ﴾ أي: ألجأ وأعتصم بالله منك؛ لأنني أخاف أن تفتك بي، أو تعتدي عليَّ وأنا ضعيفة لا حَولَ لي ولا قوة إلا بالله، فأستعيذ به منك، والمؤمن هو الذي يحترم الاستعاذة بالله ويُقدِّرها، فإن استعذت بالله أعاذك، وإن استجرت بالله أجارك.

فقول مريم: ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ لأن المؤمن التقيّ هو الذي يخاف الله، ويحترم الاستعاذة به، وكأنها قالت: إن كنت تقيًا فابتعد عني،

واختارت الاستعاذة بالرحمن لما عندها من الأمل إن لم يكُن تقيًا مؤمنًا أن يبتعد عنها رحمة بها وبضعفها، ولجأت إلى الرحمن الرحيم الذي يحميها ويحرسها منه.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ۝١٩ ﴾ [مريم: ١٩].

قال: ﴿ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ ولم يقل رسول الله؛ لأن الربّ هو المتولّي للتربية الذي يُحسِنها ويصونها من الفساد، فعطاء الربوبية عطاء ماديّ، أما عطاء الألوهية فهو عطاء معنوي قِيَمي هو العبادة، فأنا رسول ربك الذي يتولاك ويرعاك ويحرسك فلا تخافي.

وقوله: ﴿ لِأَهَبَ لَكِ ﴾ يفهم منه أن ما سيحدث لمريم هبة من الله غير خاضعة للأسباب التكوينية، فالهبة في هذه الحالة هبة حقيقية محَضة، فقد قلنا في قصة زكريا ويحيى أن الله تعالى وهب يحيى لزكريا حال كونه كبير السِّن وامرأته عاقر، لكن على أية حال فالجهازان موجودان: الذكورة والأنوثة، لكن في حالة مريم فهي أنثى بلا ذكر، فهنا الهِبَة المحضة، والمعجزة الحقيقية.

وقوله: ﴿ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴾ أي مُنقًى مطهَّرًا صاف الخِلقة.

ثم يقول الحق سبحانه عن مريم: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ ﴾ [مريم: ٢٠].

﴿ أَنَّىٰ ﴾ استفهام عن الكيفيات التي يمكن أن تتم بها هذه المسألة، وتعجُّب كيف يحدث ذلك.

وقوله: ﴿ يَمْسَسْنِى ﴾ المسّ هنا كناية وتعبير مُهذَّب عن النكاح، وقد نفت السيدة مريم كل صور اللقاء بين الذكر والأنثى حين قالت: ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾.

فالتقاء الذكر بالأنثى له وسائل:

الوسيلة الأولى: هي الزواج الشرعي الذي شرعه الله لعباده للتكاثر وحِفظ النسل، وهو إيجاب وقبول، وعقد وشهادة، وهذا هو المسّ الحلال.

الوسيلة الثانية: أن يتم هذا اللقاء بصورة محرمة بموافقة الأنثى أو غَصبًا عنها.

وقد نفت مريم عن نفسها كل هذه الوسائل فقالت: ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ لا في الحلال، ولا في الحرام، وأنا بذاتي ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ إذًا فمن أين لي بالغلام؟!

وكلمة «مسَّ» جاءت في القرآن للدلالة على الجماع، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

فالمراد بالمسّ هنا الجماع، لذلك فقد فسر الإمام أبو حنيفة قوله تعالى: ﴿ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [النساء: ٤٣].

بأنه الجماع؛ لأن القرآن أطلق المسَّ، وأراد به النكاح، والمسُّ فعل من طرف واحد، أما الملامسة فهي مُفَاعلة بين اثنين، فهي من باب أولى تعني: جامعتم.

وقولها: ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾.

البغيُّ: هي المرأة التي تبغي الرجال، والبِغَاء: هو الزنا، والبَغِيّ: التي تعرض نفسها على الرجال وتدعوهم، وربما تُكرههم على هذه الجريمة.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم: ٢١].

كما قال الحق سبحانه لزكريا حينما تعجب أن يكون له ولد: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾ [مريم: ٩].

أي: أنا أعرف ما أنت فيه من كِبَر السن، وأن امرأتك عاقر لا تلِد، لكن الأمر جاء من الله وصدر حكمه، وهو وحده يملك التنفيذ، فَلِمَ التعجب إذن؟!

وهنا أيضًا قال: ﴿ رَبُّكِ ﴾ أي: الذي يتولى تربيتك ورعايتك، والذي يُربيه ربُّه يربيه تربية كاملة تعينه على أداء مهمته المرادة للمربِّي.

وقوله: ﴿ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ كما قال في مسألة البعث بعد الموت: ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] فكلمة ﴿ هَيِّنٌ ﴾ و﴿ أَهْوَنُ ﴾ بالنسبة للحق - تبارك وتعالى - لا تُؤخَذ على حقيقتها؛ لأن ﴿ هَيِّنٌ ﴾ و﴿ أَهْوَنُ ﴾ تقتضي صعب وأصعب، وهذه مسائل تناسب فِعلَ الإنسان في معالجته للأشياء على قَدْر طاقته وإمكاناته، أما بالنسبة للخالق سبحانه فليس عنده «هَيِّن»، و «أهون منه»؛ لأنه سبحانه لا يفعل الأفعال

مُعَالجةً، ولا يزاولها، وإنما بقوله تعالى «كُنْ».

فالحق سبحانه يخاطبنا على قَدر عقولنا، فقوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: بمنطقكم أنتم إن كنت قد خَلقتكم من غير شيء، فإعادتكم من شيء موجود أمر هَيِّن.

ثم يقول تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ﴾.

هل كان الغرض من خَلق عيسى عليه السلام على هذه الصورة أن يُظِهر الحق سبحانه قدرته في الخلق وطلاقة قدرته فقط؟ لا، بل هناك هدف آخر: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾.

أي أمرًا عجيبًا يخرج عن مألوف العادة والأسباب، كما نقول: هذا آية في الحُسن، آية في الذكاء، فالآية لا تُقال إلا للشيء الذي يخرج عن معتاد التناول.

والآية هنا أن الخالق - تبارك وتعالى - كما خلق آدم عليه السلام من غير أب أو أم، وخلق حواء من غير أم، خلق عيسى عليه السلام من أم بدون أب، ثم يخلقكم جميعًا من أب وأم، وقد يوجد الأب والأم ولا يريد الله لهما ولد فيجعل مَن يشاء عقيمًا.

إذًا فهذا أمر لا يحكمه إلا إرادة المكوِّن سبحانه، فالآية للناس في أن يعلموا طلاقة قدرته تعالى في الخَلق، وأنها غير خاضعة للأسباب، وليست عملية ميكانيكية، بل إرادة للخالق سبحانه أن يريد أو لا يريد.

لكن، أكانت الآية في خَلْق عيسى عليه السلام أم في أمه؟

كان من الممكن أن يوجد عيسى من أب وأم، فالآية - إذًا - في أمه، إنما هو السبب الأصيل في هذه الآية؛ لذلك يقول تعالى في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

فعيسى ومريم آية واحدة، وليسا آيتين؛ لأنهما لا ينفصلان.

ثم يقول تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ﴾ ووجه الرحمة في خَلق عيسى عليه السلام على هذه الصورة، أنه سبحانه يرحم الناس من أن يشكُّو في أن قدرة الله منوطة بالأسباب ومتوقفة عليها، ولو كان هذا الشكُّ مجرد خاطر، فإنه لا يجوز ولا يصحّ بالنسبة

للخالق سبحانه، وكأنه تبارك وتعالى يرحمنا من مجرد الخواطر بواقع يؤكد أن طلاقة القدرة تأتي في الخَلق من شيء، ومن بعض شيء، ومن لا شيء.

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أي: مسألة منتهية لا تقبل المناقشة، فإياك أن تناقش في كيفيتها؛ لأن الكلام عن شيء في المستقبل إن كان من متكلم لا يملك إنفاذ ما يقول فيمكن ألا يتم مراده لأيِّ سبب من الأسباب كأن تقول: سأفعل غدًا كذا وكذا، ويأتي غد ويحول بينك وبين ما تريد أشياء كثيرة ربما تكون خارجة عن إرادتك، إذًا فأنت لا تملك كُلَّ عناصر الفعل.

أما إذا كان الكلام من الله تعالى الذي يملك كل عناصر الفعل فإن قوله حَقٌّ وواقع، فقال تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ [مريم: ٢٢].

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ أي: حملت به على الحذف والإيصال، والحمل يقتضي حاملاً ومحمولاً، ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ لا تظن أن هذه اللقطة من القصة لقطةٌ مُعَادة، فالانتباذ الأول كان للخلوة للعبادة، وهنا: ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ ﴾ أي: ابتعدت عن القوم لما أحسَّت بالحمل، وخشيت أعيُنَ الناس وفضولهم فخرجت إلى مكان بعيد.

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم: ٢٣].

﴿ فَأَجَآءَهَا ﴾ الفعل جاء فلان. أي: باختياره ورِضَاه، إنما أجاءه فلان أي جاء به رغمًا عنه ودون إرادته، فكأن المخاض هو الذي ألجأها إلى جِذْع النخلة وحملها على الذهاب إلى هذا المكان رَغمًا عنها ﴿ فَأَجَآءَهَا ﴾ أي: جاء بها، فكأن هناك قوة خارجة عنها تشدُّها إلى هذا المكان.

و﴿ ٱلْمَخَاضُ ﴾ : هو الألم الذي ينتاب المرأة قبل الولادة، وليس هو الطَّلْق الذي يسبق نزول الجنين.

وقوله: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أوضح لنا علَّة مجيئها إلى جذع

النخلة؛ لأن المرأة حينما يأتي وقت ولادتها تحتاج إلى ما تستند إليه، وتتشبث به ليخفف عنها ألم الوضع، أو رفيقة لها تفزع إليها وتقاسمها هذه المعاناة، ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ إذًا ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، وجاءت «النخلة» مُعرَّفة لأنها نخلة معلومة معروفة.

و﴿جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾: ساقها الذي يبدأ من الجذور إلى بداية الجريد، فهل ستتشبث مريم عند وضعها بكل هذه الساق؟! بالطبع ستأخذ الجزء القريب منها فقط، وأُطلق الجذع على سبيل المبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩].

ومعلوم أن الإنسان يسدّ أذنه بأطراف الأصابع لا بأصابعه كلها، فعبَّر عن المعنى بالأصابع مبالغةً في كَتْم الصوت المزعج والصواعق التي تنزل بهم.

إذًا فالسيدة مريم أصبحت أمام أمر واقع وحمل ظاهر لا تستطيع إخفاءه، ولا تقدر على ستره، فقد قبلت قبل ذلك أن يُبشِّرها المَلَك بغلام زكيٍّ، وقبلت أن تحمل به، فكيف بها الآن وقد تحوّل الأمر من الكلام إلى الواقع الفعلي، وها هو الوليد في أحشائها، وقد حان موعد ولادته؟

لابُدَّ أن ينتابها نزوع انفعالي فالأمر قد خرج عن نطاق السَّتْر والتكتم، فإذا بها تقول: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

أي: تمنت لو ماتت قبل أن تقف هذا الموقف العصيب، مع أن الملك حين أخبرها من قبل بأن الله تعالى سيهَبُ لها غلامًا زكيًّا تعجبت قائلة: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠﴾ [مريم: ٢٠].

مجرد تعجُّب وانفعال هادئ، أما وقد أصبح الأمر ولادة حقيقية فلابُدَّ من فعل نزوعي شديد يُعبِّر عما هي فيه من حَيرة، لذلك تمنت الموت، مع أن الله تعالى نهانا عن تمني الموت، كما ورد في الحديث الشريف الذي يرشدنا إذا ضاقت الحياة بنا ألا نتمنى الموت، بل نقول: «**اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفَّني ما كانت**

الوفاة خيرًا لي»[١].

وقلنا: إن تمني الموت المنهيّ عنه ما كان فيه اعتراض على قَدَر الله، وتمرد على إرادته سبحانه، كأن تكره الحياة والعيش إذا ضاق بك فتتمنى الموت، أما أن تتمنى الموت لعلمك أنك ستصير إلى خير مما تركت فهذا أمر آخر.

فالمؤمن - إذًا - لا يجوز أن يتمنى الموت هَربًا من بلاء أصابه أو اعتراض على قَدَر الله، ويجوز له ذلك إن علم أنه صائر إلى أفضل ممّا هو فيه.

وقولها: ﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣]، النسيّ: هو الشيء التافه الذي لا يُؤبَه به.

ولم تكتف بهذا، بل قالت: ﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ لأن النسيّ: الشيء التافه الذي يُنسى في ذاته، لكن رغم تفاهته فربما يجد مَن يتذكره ويعرفه، فأكدت النسيّ بقولها: ﴿ مَّنسِيًّا ﴾ أي: لا يذكره أحد، ولا يفكر فيه أحد.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾ [مريم: ٢٤].

﴿ مِن تَحْتِهَآ ﴾ فيها قراءتان: «مِنْ»، «مَنْ»، صحيح أن جبريل عليه السلام مازال موجودًا معها لكنه ليس تحتها، فدلّ ذلك على أن الذي ناداها هو الوليد: ﴿ أَلَّا تَحْزَنِى ﴾ ، وحزن مريم منشؤه الانقطاع عن الناس، وأنها في حالة ولادة، وليس معها مَن يسندها ويساعدها، وليس معها مَنْ يُحضِر لها لوازم هذه المسألة من طعام وشراب ونحوه.

لذلك تعهّدها ربها تبارك وتعالى فوفّر لها ما يُقيتها من الطعام والشراب فقال: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ .

والسريّ: هو النهر الذي يجري بالماء العَذْب الزُّلال، ثم يعطيها الطعام

(١) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يتمنينّ أحدُكم الموتَ لِضُرٍّ نزل به، فإن كان لابد متمنيًا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي**» أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٦٨٠)، وكذا البخاري في «صحيحه» (٦٣٥١).

المناسب لحالتها، فيقول تعالى: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ ﴾ [مريم: ٢٥].

هكذا وفّر الحق سبحانه وتعالى لمريم مقوّمات الحياة وعناصر استبقائها، وهي مُرتَّبة على حَسب أهميتها للإنسان: الهواء، والشراب، والطعام، فالهواء موجود وهي في الخلاء، ثم الماء فأجرى تحتها نهرًا عذبًا زلالاً، ثم الطعام فقال: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ ﴾.

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد أن يُظهر لمريم آية أخرى من آياته، فأمرها أن تهزَّ جذع النخلة اليابس الذي لا يستطيع هَزَّه الرجل القويّ، فما بالها وهي الضعيفة التي تعاني ألم الولادة ومشاقها؟!

كما أن الحق سبحانه قادر على أن يُنزل لها طعامها دون جهد منها ودون هَزِّها، إنما أراد سبحانه أن يجمع لها بين شيئين: طلب الأسباب والاعتماد على المسبب، الأخذ بالأسباب في هَزِّ النخلة، رغم أنها متعبة قد أرهقها الحمل والولادة، وجاء بها إلى النخلة لتستند إليها وتتشبث بها في وحدتها لنعلم أن الإنسان في سعيه مُطالب بالأخذ بالأسباب مهما كان ضعيفًا.

لذلك أبقى لمريم اتخاذ الأسباب مع ضعفها وعدم قدرتها، ثم تعتمد على المسبِّب سبحانه الذي أنزل لها الرُّطَب مُستْويًا ناضجًا وهل استطاعت مريم أن تهزَّ هذا الجذع الكبير اليابس؟

إنها مجرد إشارة إليه تدلُّ على امتثال الأمر، والله تعالى يتولى إنزال الطعام لها، وقد صَوَّر الشاعر هذا الموقف بقوله:

ألم تَـرَ أنَّ الله قَـال لمـريم ... وَهُـزِّي إلـيكِ الجـذْعَ يَـسَّاقط الـرُّطب
وإنْ شَـاءَ أعطاهـا ومِـن غـير هَـزَّة ... ولكـن كُـلّ شـيءٍ لـهُ سَـبَبْ

وقوله: ﴿ تُسَٰقِطۡ ﴾ أي تتساقط عليك، ﴿ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ أي استوى واستحق أن يجنى، وليس مبتسّرًا قبل موعده، ومن الرطب ما يتساقط قبل نضجه فلا يكون صالحًا للأكل.

وقوله: ﴿ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ ﴾ فيه دليل على استجابة الجماد وانفعاله، وإلا فالبلحة لم تخرج عن طَوع أمها، إذًا فقد ألقتها طواعية واستجابة حين تَمَّ نضجها.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٦].

ونلحظ هنا أن الحق - تبارك وتعالى - عند إيجاد القُوت لمريم جاء بالماء أولاً، فقال: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤]، ثم أتى بالطعام فقال: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾ [مريم: ٢٥]. لأن الماء أولى من الطعام في احتياج الإنسان، أما عند الأمر بالانتفاع قال: ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي ﴾ [مريم: ٢٦]، فبدأ بالطعام قبل الشراب، لماذا؟ لأن الإنسان عادةً يأكل أولاً، ثم يشرب، فالماء مع أهميته، إلا أنه يأتي في العادة بعد الطعام، فسبحان مَن هذا كلامه.

﴿ وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ أي: كوني سعيدة باصطفاء الله لك مسرورة بما أعطاك، فما تهتمين به وتحزنين هو عَيْن النعمة التي ليست لأحد غيرك من نساء العالمين.

ثم يقول تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾.

وهنا يتولَّى الحق سبحانه وتعالى الدفاع عن مريم وتبرير موقفها الذي لا تجد له هي مبررًا في أعراف الناس، فَمن يلتمس عُذرًا لامرأة تحمل وتلد دون أن يكون لها زوج؟! ومهما قالت فلن تُصدَّق ولن تسلَم من ألسنة القوم وتجريحهم.

إذًا فجواب ما يكره السكوت، فأمرها سبحانه أن تلزم الصمت ولا تجادل أحدًا في أمرها: ﴿ فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ والصوم هنا أي: عن الكلام، كما حدث مثل هذا في قصة زكريا؛ لأن المعجزات قريبة من بعضها، فقد أعطى الله زكريا مع عَطَب الآلات، وأعطى مريم بنقص الآلات، ولا يبرر هذه المعجزات ولا يدافع عنها إلا صانعها تبارك وتعالى.

ونلحظ في قولها: ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ أن النهي عن الكلام مع البشر

خاصة فلم تَقُل: لن أتكلم، وإلا فمعها جبريل عليه السلام يُكلّمها وبينهما تفاهم، لعلّه يرى لها مَخرجًا، وقد كانت مريم واثقة مطمئنة إلى هذا المخرج، فإذا كان ربها - تبارك وتعالى - أمرها بالصوم عن الكلام، فإنه سينطق الوليد ليتكلم هو ويدافع عن أمه أمام اتهامات القوم.

ولما تكلّمنا في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى﴾ استبعدنا أن يكون هذا النداء من جبريل، وقلنا: إنه نداء الوليد؛ لذلك اطمأنت مريم وعَلِمت أنها أمام معجزة عُظْمى، ووثقت تمام الثقة أنها حين تُشير إليه سيتكلم هو ويردُّ عنها الحَرج مع قومها؛ لأن الكلام ممَّن يقدر على الكلام لا يأتي بحجة تُقنِع الناس عن خلاف العادة، أما حين يتكلم وهو في المهد، فهذا يعني أنه معجزة خارقة للعادة، فإذا كان الوليد معجزةً فالمعجزة في أمّه من باب أولى.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: ٢٧].

ونعجب للسيدة مريم، فبدلَ أن تخجل مما حدث وتستتر بوليدها عن أعيُن الناس، أو تنتقل به إلى مكان آخر في فيافي الأرض إذا بها تحمله، وتذهب به، وتبادر به قومها، وما كانت لتفعل ذلك وتتجرأ عليه إلا لثقتها في الحجة التي معها، والتي ستوافيها على يد وليدها.

لذلك لما سأل بعض المستشرقين الإمام محمد عبده - رحمه الله - في باريس: بأيِّ وجه قابلت عائشة قومها بعد حديث الإفك؟ سبحان الله إنهم يعلمون أنه إفْكٌ وباطل، لكنهم يرددونه كأنهم لا يفهمون.

فأجاب الشيخ - رحمه الله - ببساطة: بالوجه الذي قابلت به مريم قومها وهي تحمل وليدها. أي: بوجه الواثق من البراءة، المطمئن إلى تأييد الله، وأنه سبحانه لن يُسلمها أبدًا؛ لذلك لما نزلت براءة عائشة في كتاب الله قالوا لها: اشكري النبي، فقالت: بل أشكر الله الذي برأني من فوق سبع سموات(١).

(١) رواه البخاري.

فلما رآها القوم على هذه الحال قالوا فيها قولاً غليظًا: ﴿ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾.

﴿ فَرِيًّا ﴾: الفَرِيُ للجلد: تقطيعه، والأمر الفري: الذي يقطع معتادًا عند الناس فليس له مثيل، أو من الفِرية وهي تعمد الكذب.

ثم قالوا لها: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٨].

قولهم لمريم: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ هذا كلام جارح وتقريع ومبالغة منهم في تعييرها، فنسبوها إلى هارون الذي سُمِّي على اسم النبي، فأنتِ من بيت صلاح ونشأتِ في طاعة الله، فكيف يصدر منك هذا الفعل؟! كما ترى أنت سيدة محجبة يصدر منها في الشارع عمل لا يتناسب ومظهرها فتلومها على هذا السلوك الذي لا يُتصوّر من مثلها.

وقوله: ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ ﴾ الرجل السوء: هو الذي إن صحبته أصابك منه سوء، ونالك بالأذى.

﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ قلنا: إن البَغيَّ: هي المرأة التي تبغي الرجال وتدعوهم إليها، فالمراد: من أين لك هذه الصفة، وأنت من أسرة خَيِّرة صالحة؟!

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩ ﴾ [مريم: ٢٩].

أي: حين قال القوم ما قالوا أشارت إلى الوليد وهي واثقة أنه سيتكلم، مطمئنة إلى أنها لا تحمل دليل الجريمة، بل دليل البراءة.

فلما أشارت إليه تقول لقومها: اسألوه، تعجَّبُوا: ﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾.

ونلاحظ في قولهم أنهم لم يستبعدوا أن يتكلّمَ الوليد، فلم يقولوا: كيف يتكلم مَن كان في المهد صبيًا؟! بل قالوا: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ ﴾ أي: نحن، فاستبعدوا أن يكلموه، فكأنهم يطعنون في أنفسهم وفي قدرتهم على فَهم الوليد إن كلَّمهم.

والمهد: هو المكان الممهد المعَدّ لنوم الطفل.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

وكأنه قال للقوم: لا تتكلموا أنتم، أنا الذي سأتكلم، ثم بادرهم بالكلام: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وهكذا استهلّ عيسى عليه السلام كلامه بإظهار عبوديته لله تعالى، وفي هذا دليل على أنه قد يُقال فيه أنه ليس عبدًا، وأنه إله أو شريك للإله.

لذلك كانت أول كلمة نطق بها: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾.

فالمعجزة التي جاءت بي لا تمنع كوني عبدًا لله؛ لذلك لو سألتَ الذين يعتقدون في عيسى عليه السلام أنه إله أو شريك للإله: إنكم تقولون أنه تكلّم في المهد، فماذا قال؟ فلا يعترفون بقوله أبدًا؛ لأن قوله ونُطْقه: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ينفي معتقدهم من أساسه.

ليس هذا وفقط، بل: ﴿ءَاتَنِيَ الْكِتَابَ﴾ لكن كيف آتاه الله الكتاب وهو ما يزال وليدًا في مَهده؟

قالوا: على اعتبار أنه أمرٌ مفروغ منه، وحادث لا شَكَّ فيه، كأنه يقول: أنا أهل لأن أتحمل أمانة السماء إلى أهل الأرض، مع أن الكتاب لم يأتِ بعد، إلا أنه مُلقَّن لقَّنه ربه الكتاب بالفعل، وإن لم يأت الوقت الذي يُبلِّغ فيه هذا الكتاب.

﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فسلوكي سلوك قويم، ولا يمكن أن يكون فيَّ مطعَنٌ بعد ذلك، وإن كان هناك مطعن فهو بعيد عني، ولا ذنب لي فيه.

ثم يقول: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣١].

أي: وشرَّع لي أيضًا ما دُمت حيًا.. وقد قال عيسى عليه السلام في المهد هذه الكلمات ليبرِّئ أمه الصِّدِّيقة، ذلك أنهم اتهموها في أعزّ شيء لديها؛ ولذلك لم يكُن ليُجدي أيّ كلام منها، وإنقاذًا لها أبلغها الحق عن طريق جبريل أو عيسى عليهما

السلام أن تقول: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٦].

ثم يقول: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ [مريم ٣٢].

فلِمَ ذكر والدته هنا، ولِمَ حرص على تقرير برِّه بها؟

قالوا: لأن البعض قد يظن أن عيسى عليه السلام حينما يكبر ويعرف قصة خَلْقه، وأن أمه أتَت به من غير أب، ودون أن يمسسها بشر قد تترك هذه المسألة ظلالاً في نفسه وتُساوِره الشكوك في أمه، فأراد أن يقطع كل هذه الظنون.

ذلك لأنه هو نفسه الدليل، وهو نفسه الشاهد على براءة أمه، والدليل لا يُشكِّك في المدلول، فكأنه يقول للقوم: إياكم أن تظنوا أني سأتجرأ على أمي، أو يخطر ببالي خاطر سوء نحوها.

ثم يقول: ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ فنفى عن نفسه صفة الجبروت والقسوة والتعاظم؛ لأن الرسول لابُدَّ أن يكون ليّنَ الجانب رفيقًا بقومه؛ لأنه أتى ليُخرج الناس مِمّا أَلِفُوه من الفساد إلى ما يثقل عليهم من الطاعة.

ومعنى ﴿ شَقِيًّا ﴾ أي: عاصيًا، وما أبعدَ مَن هذه صفاته عن معصية الله التي يشقى بسببها الإنسان.

ثم يقول تعالى عن عيسى عليه السلام أنه قال: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم: ٣٣].

قوله: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ ﴾ لأن يوم مولده مَرَّ بسلام، رغم ما فيه من عجائب، فلم يتعرَّض له أحد بسوء، وهو الوليد الذي جاء من دون أب، وكان من الممكن أن يتعرّض له ولأمه بعض المتحمسين الغيورين بالإيذاء، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، ومَرَّ الميلاد بسلام عليه وعلى أمه.

﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ لأنهم أخذوه ليصلبوه، فنجّاه الله من أيديهم، وألقى شبهه على شخص آخر، ورفعه الله تعالى إلى السماء.

﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ فليس هناك من الرسل مَن سيسأل هذه الأسئلة، ويناقش هذه المناقشة التي نُوقِشها عيسى في الدنيا: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

وليس هذا قَدحًا في مكانة عيسى عليه السلام؛ لأن ربَّه تبارك وتعالى يعلم أنه ما قال لقومه إلا ما أُمِرَ به، ولكن أراد سبحانه توبيخ القوم الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله، فوجْهُ السلام في يوم ﴿ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أنه نُوقِش في الدنيا وبُرّئت ساحته.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم: ٣٤]. ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: ما تقدّم من قصة عيسى عليه السلام .

﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي: يقولها الله تعالى قَولَة حَقٍّ، والحق هو الله، فالذي قَصّ عليك هذا القَصَص هو الله، وقوله الحق الذي لا باطلَ فيه، فيكون الحق الذي هو ضد الباطل، فالمعنيان ملتقيان.

أو: يكون المراد بقول الحق كلمة «كُنْ» التي بها يتمّ الخَلْق.

ثم يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ .

من المراء: وهو الاختلاف والجدال بالباطل، فالحق سبحانه يعلم أنهم سيشكُّون فيه، ويتجادلون بالباطل، وأنهم سيقولون فيه الأقاويل، وكأن الله تعالى يقول لهم: اتركوا هذه الأقاويل والأباطيل في شأن عيسى وخُذُوا بما أخبرتكُم به من خبره، فهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلفه.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [مريم: ٣٥].

لماذا تكلم الحق سبحانه هنا عن نفي الولد بالذات؟

قالوا: لأن مسألة الشريك لله تعالى تُنفَى بأولية العقل، فإن كان كُلّ إله صالحًا للفعل وللترك، فهذه صورة مُكرّرة لا تناسب الإله، وإن كان هذا إلهًا لكذا وهذا إله لكذا، فما عند أحدهما نقص في الآخر، وهذا محال في الإله، ولو أن هناك إلهًا آخر لذهب كل منهما بجزء، كما قال سبحانه: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

لذلك نفى مسألة الولد؛ لأنها ذات أهمية خاصة بالنسبة لقصة عيسى عليه السلام؛ لأن الولد من الممكن أن يُستبعَد فيه الدليل، لماذا؟

لأنه دليله اتخاذُ الولد أو حُبُّ الولد، والإنسان يحب الولد ويسعى إليه، لماذا؟

قالوا: لأن الإنسان ابنُ دنياه، وهو يعلم أنه ميت ميت، فيحبّ أن يكون له امتداد في الدنيا وذِكر من بعده، فالإنسان يتمسّح في الدنيا حتى بعد موته، وهو لا يدري أن ذِكر الإنسان لا يأتي بعده، بل ذِكره يسبقه إلى الآخرة بالعمل الصالح.

إذًا فحبُّ الولد هنا لاستدامة استبقاء الحياة، وهذا مُحَال في حَقِّ الله تبارك وتعالى؛ لأنه الباقي الذي لا يزول.

وقد يتخذ الولد ليكون عِزْوة لأبيه وسَندًا ومُعِينًا، وهذا دليل الضَّعف، والحق سبحانه هو القويّ الذي لا يحتاج إلى معونة أحد.

إذًا فاتخاذ الولد أمر منفيّ عنه تبارك وتعالى، فهو أمر لا يليق بمقام الألوهية، ويجب أن تُنزه الله تعالى أن يكون له ولد؛ لذلك يقول تعالى بعدها: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥٓ﴾.

وسبحان تدل على التنزيه المطلق لله تعالى تنزيهًا له في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، فهو سبحانه ليس كمثله شيء.

ثم يقول تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

ذلك لأن الآية في خَلق عيسى عليه السلام مخالفة للنواميس كلها، وخارقة للعادة التي ألِفها الناس، فإياك أن تتعجب من فِعْل الله تعالى في يحيى، حيث جاء به مع عطب الآلات، أو تتعجب من خَلْق عيسى حيث جاء به مع نقص الآلات.

وإياك أن تتعَجَّب من كلام عيسى وهو في المهد صَبِيًا، فهي أمور نعم خارقة للعادة وللنواميس، فخُذْها في إطار ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ﴾.

وتنزيهًا له؛ لأنه تعالى إذا أراد شيئًا لا يعالجه بعمل ومُزاولة، وإنما يعالجه بـ: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾.



خبر المائدة

قال الحق - سبحانه - : ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٥].

وحول معنى هذه الآيات، يحدِّثنا **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - فيقول: كأن عيسى قال لهم: عليكم بتقوى الله فلا تسألوه هذه الآية، لأنكم مادمتم قد أعلنتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على الله آية لإثبات صدق رسوله، وحسبكم ما أعطاه الله لي من آيات لصدق رسالتي، وعليكم أن تلزموا أنفسكم بالمنهج الذي أعلنتم أنكم مؤمنون به.

وقد توقف العلماء عند قولهم: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ وتساءل العلماء: كيف كان هذا القول، وخصوصًا أن معناه الظاهري: أيقدر ربك؟! وكيف للحواريين أن يقولوا ذلك بالرغم من أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون؟ وقال العلماء أيضًا: إن من يتكلم في اللغة عليه أن يكون متبصرًا باشتقاقات الألفاظ واستعمالات الألفاظ وسمات الألفاظ، وكلمة ﴿ يَسْتَطِيعُ ﴾ بمعنى «يطيع» كما قالوا: استجاب بمعنى أجاب، وكأن معنى سؤالهم: أيستجيب الله وينزل علينا مائدة من السماء؟

و«استطاع» تقابل: «استجاب» وسبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء، وهو الذي يطيعه كل شيء، وهو الذي يرضخ لحكمه كل شيء، والحق لا يطلب، إنما يأمر.

وساعة تسمع الأمر فهي تنفعل، ومعنى تنفعل أي تطيع، وكل الكون مطيع لخالقه سبحانه وتعالى.

أو يكون معنى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾: هل يفعل. وذلك من باب التعبير عن المسبب بالسبب؛ إذ الاستطاعة من أسباب إيجاد الفعل.

وقيل المراد: هل تستطيع سؤال ربِّك من غير صارف ولا مانع يمنعك عن سؤاله؟ فقد قرأ الكسائي وغيره هل تستطيع ربَّك بنصب كلمة ﴿رَبُّكَ﴾ وأصلها هل تستطيع سؤال ربِّك، فحذفه المضاف «سؤال» وأقيم المضاف إليه وهو كلمة رب مقامه فنصب وقال الزمخشري: ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص، وإنما حكى ادعاءهم. وقولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ كلام لا يتأتَّى مثله من مؤمنين معظمين لربهم[(١)].

وقال الحواريون ما جاء به القرآن الكريم: ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

وكأنهم أرادوا أن يتشبهوا بسيدنا إبراهيم خليل الرحمن عندما سأل الله عن كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه، لقد آمنوا بعلم اليقين، ويريدون الآن الانتقال إلى عين اليقين؛ لذلك سألوا عن المائدة التي صارت بعد ذلك حقيقة واضحة.

وهكذا نعرف أن هناك فارقًا بين أن يؤمن الإنسان بذاته، وأن يشهد بالإيمان عند غيره، فالذي يشهد بالإيمان عند غيره يحتاج إلى يقين أعمق.

ويخبرنا الحق بما قاله عيسى عليه السلام - وهو يختلف عن قولهم في هذه المائدة - قال سبحانه: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

وقوله الحق: ﴿مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إنما يعني أن هناك لله موائد منصوبة في

---

(١) قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في «تفسيره» (٦/ ٢٨١): «وقيل إن القوم لم يَشُكّوا في استطاعة الباري - سبحانه - لأنهم كانوا مؤمنين، وإنما هو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي؟ وقد علمتَ أنه يستطيع؛ فالمعنى: هل يفعل ذلك؟ وهل يجيبني إلى ذلك أم لا؟ وقد كانوا عالمين باستطاعة الله لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معاينة كذلك. وهذا تأويل حسن؛ وأحسن منه أن ذلك كان مِنْ قول مَن كان مع الحواريين» ا.هـ.

الأرض، والكون كله مائدة فيها من الخير الكثير إن استطاع الإنسان أن يكد ويكدح.

وكلمة ﴿مَآئِدَةً﴾ لا تطلق إلا على الخوان وعليه الطعام، أما إن كانت بغير طعام فنطلق عليها «خوانًا»؛ لأن «المائدة» مأخوذة من مادة «الميم والألف والدال» والمائدة تميد أي تضطرب من كثرة ما عليها من أشياء، أو هي تعطي مما عليها من أشياء، فالمائد هو المُعطَى.

وقول عيسى عليه السلام يمتلئ بكل المعاني القيمة، فهو يطلب أن تكون المائدة مناسبة لعيد يفرح به الأولون والآخرون وآية من الحق سبحانه وتعالى، ويطلب من فضل ربوبية الرازق أن يرزقهم، ويعترف بامتنان أن الحق هو خير الرازقين.

والمقارنة بين قول الحواريين وقول عيسى تدلنا على الفارق بين إيمان المبلغ عن الله، وإيمان الذين تلقوا البلاغ عن عيسى، إيمان عيسى هو الإيمان القوى الناضج، أما إيمان الحواريين فهو إيمان ناقص، لقد كانت قوة إيمان عيسى نابعة من أنه يتلقى عن الله مباشرة، أما الحواريون فليسوا كذلك، على الرغم من أنهم آمنوا بالبلاغ عن الله وتم ذلك بواسطة رسول، ولذلك يعلو الرسول على المؤمنين ببلاغه في سلم الإيمان درجة أعلى، إنه يتلقى عن الله، ولهذا صحح عيسى عليه السلام طلبهم من الله وهو يدعو ربه.

ونلحظ أن عيسى عليه السلام قدم كلامه لله بصفة الألوهية: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ فهو كنبي مرسل يعلم تجليات صفة الله، وهي تجليات عبادة من معبود إلى عابد، أما تجليات كلمة «رب» فهي تجليات تربية من رب إلى مربوب، والفارق بين عطاء الألوهية للخلق، وعطاء الربوبية هو أن عطاء الألوهية تكليف من معبود إلى عابد، والعابد يطيع المعبود فيما يأمر به وفيما ينهى عنه، أما عطاء الربوبية فهو سبحانه المتولي للتربية للأجسام والعقول والمواهب والقلوب، والرب هو رب للمؤمن والكافر، ويتولى الرب تربية الكافر على الرغم من إنكار الكافر للألوهية، فسبحانه يربي الماديات التي تقيم حياته.

لقد قال عيسى ابن مريم داعيًا الله: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وألزم عيسى نفسه بنداء الألوهية أولاً معترفًا بالعبودية لله ملتزمًا بالتكليف القادم منه ثم جاء بنداء الربوبية، فيا من أنزلت علينا التكليف ويا من تتولى تربيتنا نحن ندعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء، وأخذ نداءه زاوية القيم ثم زاوية المادية وهي الرزق، لكن الحواريين قدموا بشريتهم فطلبوا من المائدة الأكل والطعام فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

أما عيسى ابن مريم بصفائية اختياره رسولاً فقد أخّر الطعام عن القيم فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

صحيح أن الرزق يمس الأكل، ولكن الرزق ليس كله أكلاً، فالرزق هو كل شيء تحتاج إليه وتنتفع به، فالأكل رزق، والشرب رزق، والملبس رزق، والعلم رزق، والحلم رزق، وكل شيء تنتفع به هو رزق من عند الله، ولذلك جاء عيسى بالكلمة العامة التي يدخل فيها الأكل وتتسع لغيره، ويجيب الحق على دعاء عيسى ابن مريم: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

وساعة يقول الحق: ﴿إِنِّي﴾ فهو يستخدم «نون الإفراد»، ونعلم أن هناك أسلوبين لحديث الحق سبحانه عن نفسه: إنه ساعة يتحدث عن وحدانيته يأتي بـ«نون الإفراد» فيقول سبحانه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤].

وساعة يتحدث سبحانه وتعالى عن سيال القدرة الشاملة العامة لكل صفات الكمال التي تتطلب إيجاد الشيء يأتي بـ«نون التعظيم» فيقول: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

وهو سبحانه أراد هنا أن يعطينا معنى التوحيد فقال: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ ذلك أن المائدة ستنزل من السماء، ولا يقدر على ذلك إلا الله وحده سبحانه وتعالى.

ويتبع الحق ذلك بقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وعيسى عليه السلام دعا بأدب الرسل أن ينزل المائدة، واختلف العلماء أأنزل الحق سبحانه وتعالى المائدة أم لم ينزلها؟

إن هناك مَن تَمَسَّكوا بقول الحق سبحانه: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، وهناك من قالوا: إن الحق سبحانه وضع شرطًا لنزول المائدة، وهو إنزل العذاب بهم إن لم يؤمنوا، فتراجعوا عن طلب إنزالها[1] .

ومن قالوا بنزول المائدة اختلفوا في مواصفاتها، فمنهم من قال: إن المائدة نزلت وعليها سمكة مشوية من غير فلوس وقشور ولا شوك فيها، ذلك أنها مائدة من السماء ومعها خمسة أرغفة، وعلى كل رغيف شيء مما يعرفون: رغيف عليه عسل، وآخر عليه زيتون، وثالث عليه سمن، ورابع عليه جبن، وخامس عليه قديد من اللحم[2] .



(١) قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في «تفسيره» (٦/ ٢٨٤): «قوله تعالى: ﴿قال الله إني منزلها عليكم﴾ هذا وعد من الله تعالى أجاب به سؤال عيسى عليه السلام كما كان سؤال عيسى إجابة للحواريين، وهذا يوجب أنه قد أنزلها ووعده حق»ا.هـ.

(٢) قال عمّار بن ياسر رضي الله عنه : «أُنزلت المائدة من السماء خبزًا ولحمًا وأمروا ألا يخونوا ولا يدّخروا لغدٍ فخانوا وادّخروا ورَفَعوا لِغَدٍ فَمُسِخوا قِردةً وخنازير» رواه الترمذيّ.

مُعجِزَاتٌ أيَّدَ اللهُ بها عيسى عليه السلام

قال الحقّ - سبحانه - : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [المائدة: ١١٠].

ونجد هنا أن الحق سبحانه وتعالى يعدد بعضًا من نعمه على سيدنا عيسى وهي: التأييد بروح القدس وهو سيدنا جبريل عليه السلام، والكلام في المهد بما يبرئ أم عيسى السيدة مريم عليها السلام مما ألصقوه بها من اتهامات، وتعليم الحق له الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وأنه سبحانه قد أقدره على أن يصنع من الطين كصورة الطير بإذن منه سبحانه وأن ينفخ فيه فيصير طيرًا بإذنه سبحانه، وكذلك أقدره الحق سبحانه أن يبرئ الأعمى من العمى، وأن يعيد إلى الأبرص لون جلده الطبيعي ويشفيه، وأجرى على يديه تجربة إعادة الموتى إلى الحياة بإذن منه سبحانه.

وكذلك منع الحق عن عيسى ابن مريم كيد اليهود وكف أيدي الذين أرادوا صلبه وقتله على الرغم من أنه جاء لهم بالمعجزات السابقة حتى يؤمنوا فآمن بعض منهم وكفر الذي قال عن تلك المعجزات: إنها مجرد سحر.

وعندما نتأمل بالخواطر أمرًا واحدًا من تلك الأمور نجد أن قدرة الحق سبحانه وتعالى لها تمام الوضوح الظاهر، فمجرد كلام عيسى في المهد هو معجزة، والمهد - كما نعلم - هو الفراش المريح للطفل يعده له الأهل ساعة أن يولد؛ لأن الطفل لا قدرة له على أن يتزحزح من مكانه إن كان هناك شيء بارز

في مهده يضايقه؛ لأن الطفل يملك الحس ولكن لا قدرة له على مدافعة ما يتطلبه الحس.

إن الطفل المولود لا يستطيع مثلاً أن يمد يده ليزيل الحصوة الناتئة من الأرض تحت المهد لذا يمهدون فراشه ويوطئون له، إنه مجرد روح في جسد صغير لا حول ولا قوة له إلا استبقاء الحياة بالتعلق بثدي الأم، فإن تكلم طفل في المهد، فمعنى ذلك أنه امتلك إرادة يسيطر بها على كل جسمه إلى الدرجة التي يمكنه أن ينطق بها الكلام، وهذا لا يحدث أبدًا.

ونجد الأهل يمهدون الفراش للطفل، لأنهم يعلمون أن أقصى تعبير عن الانفعال هو أن يبكي، وإذا ما تمكنت حشرة صغيرة من لدغ الطفل كالبرغوث أو البعوضة فالطفل لا يملك إلا البكاء.

وقد تكلم عيسى في المهد بعد أن أقدره الحق على ذلك، ثم جاء بحقيقة هي المقابل للمهد وهي الكلام في الكهولة، فإن كان قد تكلم في المهد إعجازًا ليبرئ أمه البتول فإنه سوف يتكلم كهلاً مبلغًا عن الله، ولم يتكلم عيسى ابن مريم وهو في المهد إلا بما قاله الحق في القرآن الكريم: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٣].

قال عيسى عليه السلام في المهد هذه الكلمات ليبرئ أمه الصدِّيقة، ذلك أنهم اتهموها في أعز شيء لديها، ولذلك لم يكن ليجدي أي كلام منها، وإنقاذًا لها أبلغها الحق عن طريق جبريل أو عيسى عليهما السلام أن تقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

وسبحانه وتعالى يعلم أن ميلاد عيسى من أم لم يمسسها رجل هو خرق لناموس الكون في الحمل، وكذلك أراد الحق أن يكون هناك خرق للناموس في

الكلام فيتكلم عيسى في المهد بكلام معجز له معنى، وعلمه الحق الكتاب: ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي علمه الله الكتابة، وعلمه التوراة، وأنزل عليه الإنجيل، وألهمه الحكمة وهي الكلام المحكم الصواب بإلهامات الله ومقابلها في الإسلام أحاديث الرسول ﷺ.

وجاءت دقة الأداء القرآني لتمنع أي تصور لتدخل من ذات عيسى فيما أجراه الله على يديه وذلك منعًا للفتنة فقال الحق: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ﴾.

إذًا فعيسى لا يخلق الطير ولكنه يصنع من الطين مثل هيئة الطير، فالحق وحده هو الذي يخلق الطير؛ فلأنه الإله فهو الذي يخلق خلقًا عامًا، أما البشر فبإمكانهم أن يخلقوا أشياء ويشكلوها كمثل المخلوقات، لكنها ليست مخلوقات.

إننا نرى ذلك في التماثيل التي ينحتها المثَّال من الصخر أو يشكلها من الطين كهيئة الجمل أو العصفور، لكنه لا يملك أن ينفخ فيه الروح، وقد يخترع الإنسان أشياء مثل الكوب من الرمل المصهور المنقى، لكننا لم نسمع عن خلق كوب ذكر وكوب أنثى ليتوالد من الاثنين نسل من الأكواب!

إننا نرى دائمًا أن خلق الإنسان لشيء إنما يظل معقودًا على حاله فلا ينسل ولا ينمو ولا يحس، والخالق الأعظم يخلق من عدم، أما أنت أيها الإنسان فتصنع أشياء مما وهبك الله من أشياء موجودة مطمورة في الأرض أو ظاهرة، ولم يضن سبحانه عليك بل أطلق عليك بأنك خلقت، ولكن لتنتبه إلى أنه سبحانه وتعالى أحسن الخالقين.

إذًا فعيسى صَنَع من الطين مثل هيئة الطير، وكان ذلك بإذن من الله، ونفخ فيه فكان طيرًا بإذن الله، والفارق بين قدرة الحادث وهو العبد، وقدرة الباقي القدير وهو الرب أمران، الأول: أن الحق سبحانه وتعالى حينما يقدر أمرًا فهو يستطيعه بطلاقة قدرته أن يُقدر بعضًا من خلقه على أن يفعل الشيء، لكن العبد لا يستطيع

أن يقدر عبدًا آخر أن يصنع شيئًا مثل الذي يصنعه.

والمثال على ذلك: نجد الطفل إن أراد أن يحمل كرسيًا فهو لا يقدر، ويأتي شاب قوي ليحملَ الكرسي للطفل، هذا الشاب إنما يعدى أثر قوته إلى الطفل ولم يُعَدِّ لَهُ قوته ولم ينقلها له، ويبقى الطفل ضعيفًا كما هو، أما الحق سبحانه وتعالى فهو يُقدِرُ من يريد على ما يريد، فبعظمته سبحانه يعدى من قدرته إلى من لا يقدر لِيَقْدر.

والعظمة إذًا فيما فعل المسيح هي أن الحق سبحانه أراد له أن يحيي فنفخ في الطين فصار طيرًا بإذن الله.

وهكذا أراد الله لعيسى عليه السلام أن يصنع من الطين مثل هيئة الطير بإذن الله وأن ينفخ فيها بإذن الله فيصير الطين طيرًا، وأراد الله لعيسى أن يبرئ الأكمه أي الذي ولد أعمى.

وقد يقول قائل: إن في عصرنا يتم ترقيع القرنية ويمكن أن يَرَى ويبصر بعض من الذين ولدوا بلا قدرة على الإبصار.

ونقول: إن ما يحدث في عصرنا هو سبق وتقدم علم بناء على تجارب، أما ما حدث مع عيسى فكان خرقًا للناموس وأراده الله معجزة، وكذلك أراد الله أن يجري على عيسى شفاء الأبرص الذي أصابه بياض كالرقع في بشرته، وكذلك كف بني إسرائيل عنه عندما أرادوا إيذاءه وقتله، وعندما رأوا كل ذلك آمن بعضهم، وكفر البعض واتهموا عيسى عليه السلام بأنه ساحر، وكان ذلك منهم كذبًا وافتراء عليه؛ لأنه نبي مرسل بمعجزات واضحة.

وفي هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق سبحانه وتعالى يسرد نعمه على سيدنا عيسى عليه السلام، وسرد النعمة على الرسول ليس المقصود منه تنبيه الرسول إلى النعمة، فالرسول يعلم النعم جيدًا لأنها جرت عليه، ولكنه تقريع لمن رأى هذه الأحداث والنعم ولم يلتزم الإيمان بالله بعدها، وقد أجرى سبحانه كل

هذه النعم على عيسى عليه السلام وأيده الله بما يقوي ويزكي رسالته إلى قومه، فكانت نعمة أولاً عليه، لأنه مصطفى، مختار، مؤيد، ونلحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين:

قسم يقنع أصحاب العقول والألباب والفكر والمواجيد النفسية، وقسم يقنع القوم الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله في غيب الله

والقسم الأول الذي يقنع أصحاب العقول والألباب هو تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

والقسم الثاني الذي يقنع الماديين هو الأمور المادية الحسية التي يتعرف من يراها على أنها لا يمكن أن تجري على يد بشر، كأن يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرًا، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وهذه الآيات خرق للناموس المادي، ولذلك يتبع الحق كل واحدة منها بذكر كلمة:﴿ بِإِذْنِي ﴾ أي أن هذه المعجزات لم تكن لتحدث لو لم يأذن بها الله.

ولم يذكر الحق ذلك بالنسبة للآيات الأخرى لأنها أمر ظاهر ومعروف، حتى يكون الأمر واضحًا أمام كل إنسان ممن يحبون عيسى ويرتفعون به إلى مقام أعلى من مقام النبوة المؤيدة ممن أرسله، وحتى لا يخدع قوم عيسى في هذه الآيات ويظنوها مزية مطلقة له، ولكنها مجرد آيات معجزات لإثبات صدق الرسالة عن الله.

إن عيسى عليه السلام حينما أخذ كل قطعة من الطين ليصور منها طيرًا وينفخ فيها فتكون طيرًا لم يفعل ذلك بقدرته وإرادته، وإنما حدث ذلك بإذن من الله، ولم يحترف عيسى تلك المسألة، وكذلك كان إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، وكل ذلك خرق لناموس المادة، لذلك كرر الحق القول بأن هذا الخرق كان بإذن منه سبحانه حتى نعرف أن عيسى لم يأخذ من قدرة الله طلاقة له بل انحصر الأمر في هذه المسائل التي أذن الله فيها فقط.

ويُسلّي سبحانه عيسى عليه السلام بذكر هذه البينات، لكنَّ الكافرين من قوم عيسى عليه السلام قالوا إنها سحر: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وهذا يعني أن معجزات عيسى عليه السلام قد أحفظتهم وأغضبتهم وأحنقتهم وملأت مشاعرهم بالخيبة، إنّه قول من قوم يكرهون منهج الحق، وعلى ذلك يكون كفر الكافر نعمةً يدعم بها الحق الداعي إليه؛ لأن ذلك يحفزه ويدفعه إلى الدفاع عن دين الله، فمقاومة الإيمان تظهر قوة المؤمن بالعقيدة التي يؤمن بها.



معجزة الإسراء والمعراج

المعجزات الحسية التي تتم هي معجزات لتثبيت الإيمان في وقت يزلزل فيه المؤمنون فيأتيهم من السماء ما يثبتهم، وهي معجزات تحدث في وقتها ولا تنتهي ولا تتكرر من رآها صدقها ومن لم يرها يمكن أن يصدقها ويمكن ألا يصدقها، ولو أن هذه المعجزات لم ترد في القرآن الكريم ويخبرنا الله سبحانه وتعالى عنها لو أنها وردت في كتب التاريخ مثلاً لكان من الممكن أن يصدقها إنسان، ولا يصدقها إنسان آخر، كل حسب تفكيره وقدراته العقلية، ولكن ورودها في القرآن الكريم جعلها صادقة ثابتة يقينية.

ولكن معجزة الإسراء والمعراج تختلف عن هذه المعجزات كلها؛ فهي لم تقع على مشهد من المؤمنين تثبيتًا لإيمانهم بل وقعت لرسول الله سبحانه وتعالى وحده ومن هنا لم يكن الهدف منها كالمعجزات الحسية الأخرى، تثبيتًا للإيمان، بل إن رسول الله ﷺ حين أبلغ الناس بها لم يصدّقه عددٌ منهم، إذًا لماذا كانت معجزة الإسراء والمعراج مادامت تختلف عن معجزات الرسل الأحرى في تثبيت الإيمان؟ كانت لرسول الله ﷺ للتبليغ عن الله سبحانه وتعالى في أهم أركان الإسلام وهي الصلاة التي فرضت من الله سبحانه وتعالى للرسول ﷺ مباشرة، أي بلا وحي تعظيمًا لشأنها، وإجلالاً لقدرها، حيث أن الله سبحانه وتعالى قد جعلها الفرض الوحيد الذي لا يجوز لإنسان أن يتركه أبدًا، فصوم رمضان مثلاً مباح تركه للمسافر والمريض على أن يصوم أيامًا أُخر، وغير القادر على أن يطعم مسكينًا، والزكاة مثلاً ليست مفروضة إلا على من له مال، أما من لا يملك مالاً أو المستحق للصدقة مثلاً فلا زكاة عليه، والحج لمن استطاع إليه سبيلاً إلاّ الصلاة في الحرب والسلم وقت المعارك، وفي ميادين القتال، وقت المرض ووقت الصحة، وقت القدرة على الحركة، ووقت عدم القدرة على الحركة، والإنسان يستطيع أن يصلي

وهو نائم إذا كان المرض يقعده عن القيام، وهو جالس إذا كان المرض يقعده عن السجود والركوع، ولكن ترك الصلاة أمر لم يجعل له الله سبحانه وتعالى بديلاً، ولم يرفعه عن عباده، ويجعل بدلاً منه فداء، وفرضه وقت السفر، ووقت المرض، وجعل فيه من التيسيرات ما يمكن كل إنسان من أداء الصلاة، في الحالة التي يكون عليها، فأجاز الجمع بين الصلوات في السفر، إلى آخر ما نعرفه من أحكام الصلاة.

إذًا الصلاة التي هي صلة بين العبد وربه، لا يجب أن تنقطع أبدًا، وكل وقت له ميعاد، وله أداء، ولعظم شأن الصلاة ولكونها تنهي عن الفحشاء والمنكر، ولكونها صلة العبد بالله، ولكونها خشوع العبد لخالقه، فقد فرضت مباشرة من الله سبحانه وتعالى للرسول، وفرضت في أكرم مكان عند «سدرة المنتهى».

فرضت في مكان من الرقي والقرب من الله سبحانه وتعالى بحيث لا يستطيع جبريل عليه السلام أقرب الملائكة لله أن يصل إلى هذه المكانة، بل إن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ عندما وصل إلى «سدرة المنتهى» وطلب منه أن يتقدم قال جبريل لرسول الله ﷺ : إذا تقدمت احترقت، وإذا تقدمت أنت اخترقت.

ومعنى ذلك أن نور الله سبحانه وتعالى في هذا المكان بالذات لا يستطيع أن يتحمله حتى أعظم الملائكة، المكان عظيم وجليل، يتناسب مع جلالة ما فرضه الله سبحانه وتعالى على عبده، ومن هنا نستطيع أن ندرك القيمة العظمى للصلاة كركن من أركان العبادة.

على أننا قبل أن نستطرد في هذا الحديث، ونبين مدى اختلاف المعجزة، فإنما يقفز إلى أذهاننا عدة تساؤلات، السؤال الأول: لماذا كان الإسراء والمعراج، ولم يكن معراجًا فقط، أي لماذا أسرى الله برسوله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم بعد ذلك عرج به إلى السماء.

إن في ذلك حكمة تقتضيها المعجزة، ذلك أن رسول الله ﷺ كان عليه أن يبلغ

ما كلفه به ربّه، والله سبحانه وتعالى كلف رسوله ليس أمام جمع من الناس على مرأى من أحد من أمته، ولكنه كلفه بينه وبينه، ومن هنا فإن رسول الله ﷺ يكون في هذه الحالة أمينًا في الإخبار عمّا أبلغه الله به، أي أنه يكون وسيلة في أمر يريد الله أن يعرفه لخلقه، ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى الإسراء مقدمة للإيمان بالمعراج.

الإسراء آية أرضية من مكة إلى بيت المقدس، والمسافة من مكة إلى بيت المقدس في ذلك الوقت لم تكن أمرًا مستحيلاً، بل كانت القوافل تقطعها في أيام أو أسابيع، المهم أنه كان يتم السفر من مكة إلى بيت المقدس مهما اختلفت الوسيلة، إذًا المعجزة هنا في الإسراء، في الزمن وحده، معجزة الزمن هنا هي المقصودة، فالله سبحانه وتعالى لا يحده زمن ولا مكان، رسول الله أسرى به، ثم صعد إلى السماء ثم عاد في نفس الليلة، معجزة الزمن هنا جعلت الناس لا يصدقون، فأخبرهم رسولُ الله بالقوافل القادمة وبأشياء رآها على الأرض خلال الإسراء به من مكة إلى بيت المقدس، والعودة ووصف لهم بيت المقدس، أي أنه أعطاهم آيات أرضية حسية مشهودة على المعجزة وكان هذا مقصودًا، لأنه متى أعطاهم رسول الله هذه الآيات، وهذه المعالم التي رآها في الطريق بين بيت المقدس ومكة، ثم بعد ذلك تأكدوا من أنها صحيحة، فلا شك أن هذا يصبح دليلاً على أن الله سبحانه وتعالى قد خرق له القانون فصعد إلى السماء، إذًا يكون ما علموه من آيات أرضية أو دلائل أرضية، دليلاً على صدق ما علموه مما حدث لرسول الله حين صعد إلى السماء.

فالإسراء معجزة، المراد بها الدليل الأرضي على أن الله سبحانه وتعالى قد خرق قوانين الكون لرسوله وأسرى به من مكة إلى بيت المقدس في زمن وجيز، أو في لا زمن، ويكون في هذه الحالة قد تأكد لهم أن الله قد خرق قوانين الأرض لرسوله، ومادام الله سبحانه وتعالى قد خرق له قوانين الأرض، فهو قادر على أن

يخرق له قوانين السماء، فإذا أخبرهم رسول الله بعد ذلك بشيء حدث فلهم أن يصدقوا المعجزة ولا يشكوا فيها.

إذًا الإسراء كان مقدمة أرضية للتثبيت، وللدلالة على صدق ما حدث طبقًا لمقاييس العقل البشرى، ولكن بعض الناس يأتي الآن ويقول إن الإنسان يستطيع أن يسافر الآن من مكة إلى بيت المقدس في أقل من نصف ساعة مثلاً، وأنا أقول لهم: إن هذا لا يمس المعجزة، فمعجزة الله تبقى معجزة خالدة مهما تقدم العلم، فعيسى عليه السلام مثلاً كان يبرئ الأكمه والأبرص، ولكنه كان يبرئه بلمسة من يده، والطب تقدم الآن، وأصبح الطبيب باستخدام الدواء ربما يستطيع أن يبرئ الأكمه والأبرص ولكن المعجزة بقيت معجزة وهي أنه لا يمكن أن يقوم أحد من البشر بإبراء الأكمه والأبرص بمجرد لمسه، كما كان يفعل عيسى ابن مريم، كذلك المعجزة بالنسبة لمحمد ﷺ قد يستطيع إنسان أن يتخذ وسيلة ما ليقطع المسافة بين مكة وبيت المقدس في زمن قياسي، ولكنه لن يستطيع أبدًا أن يقطعها بجسده مجرّدًا، فتلك معجزة من الله لن يصل إليها بشرٌ، لا يستطيع إنسان أن يطير هكذا وَحده في الهواء، ويقطع أي مسافة في لحظات كما حدث لمحمد ﷺ .

إذًا المعجزة هنا خالدة باقية في طريقة حدوثها، ولا يتأتى لأحد من البشر أن يصل إليها.

يبقى بعد ذلك سؤال هام، لقد كلّم اللهُ موسى عليه السلام وهو على الأرض فلماذا أسرى بمحمد ﷺ إلى السماء ليفرض على عباده الصلاة؟ ولماذا لم يكلم رسوله وهو على الأرض كما حدث لموسى؟

وقبل أن نبدأ في الإجابة على هذا السؤال، نعود للآية الكريمة التي تبدأ : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١].

والذي أسرى هنا الله سبحانه وتعالى، أمّا الذي أُسرى به وعرج به إلى السماء وصعد به إلى السماء فهو رسول الله ﷺ إذًا فالفاعل هو الله ومادام الفعل من الله،

فيجب أن تنسب القدرة إلى الفاعل، أي إلى الله سبحانه وتعالى، والله لا تحده حدود، ولا قيود، ولا تنطبق عليه مقاييس البشر، وليس عنده زمان ولا مكان، ومن هنا فعندما نتحدث عن المعجزة يجب أن تكون في أذهاننا قدرة الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى.

ونعود مرة أخرى إلى السؤال، لماذا كلم الله موسى ورفع محمدًا إلى السماء ألم يكن الله سبحانه وتعالى قادرًا أن يكلم رسوله وهو على الأرض؟ وهل الله سبحانه وتعالى يحده مكان، بحيث يرفع رسوله إليه، أم أنه لا يحده مكان ولا زمان؟

حينما نتحدث عن هذا كله، لا يجب أن نضع أمامنا مقاييس البشر فالزمان والمكان هما خلق من خلق الله سبحانه وتعالى، وهنا يجب ألا ننسى أن القدرة منسوبة إلى الله سبحانه وتعالى، قد خرق كل هذه القوانين لمحمد ﷺ وجعله بإذن الله وبأمره يخرج من هذه المجموعة إلى الكون الأعلى ليرى من آيات الله ما لم يره بَشَرٌ، وليصل إلى سِدْرة المنتهى، وليسمع صرير الأقلام، وليس معنى هذا أن كل ذلك محدود بمسافة ومكان ولكن معنى الرؤية هنا لرسول الله ﷺ أنه انتقل بقدرة الله من هذه المجموعة الأرضية، إلى ما هو أرقى وأعلى منها، وهذا الانتقال يقتضي تغيير طبيعة البشر من حال إلى حال.

ولكي أُقرّب هذا إلى الأذهان، أُحِبّ أن أقول: إن الله سبحانه وتعالى مع كل آية سماوية يعطينا ما يقربها للأذهان في حياتنا الأرضية، فالإنسان مثلاً طبيعته وهو نائم تتغير عن طبيعته وهو مستيقظ فهو حين يكون مستيقظًا يعيش الحياة الأرضية العادية، فإذا نام فقد يرى أشياء لا تخضع لقوانين الكون، كأن يرى مثلاً أماكن لم يرها في حياته، ولم يسمع بها، وقد يلتقي مع أناس انتقلوا إلى رحمة الله منذ سنوات طويلة، ويكلمهم ويكلمونه، وقد تحدث له أشياء لا تتفق مع طبيعة العقل البشري، كأن يقفز من فوق جبل عال، وينزل سالمًا على الأرض، أو ينتقل

من أقصى الأرض إلى أقصاها في لحظات، أو يرى عالمًا لا يوجد في حياتنا الأرضية، أو يذهب إلى مكان بعيد مئات الألوف من الأميال، كل ذلك يحدث في لحظات، والإنسان نائم، فإذا استيقظ ذهب عنه كل هذا، وبدأ حياته الأرضية العادية.

ما معنى هذا الكلام كله، معناه أن طبيعة الإنسان والقوانين التي تحكم الإنسان وهو نائم تختلف اختلافًا كُلّيًا عن تلك القوانين التي تحكمه وهو مستيقظ، فهو يرى وعيناه مغلقتان ويتكلّم ولسانه لا يتحرك، ويسمع بينما لا أصوات حوله على الإطلاق، كل ذلك يحدث خلال النوم لماذا؟ لأن طبيعة البشر هنا اختلفت، ومع اختلاف الطبيعة اختلفت القوانين، فأصبحت تلك القوانين التي تحكم الإنسان وهو مستيقظ بالمكان والزمان والرؤية بالعينين والكلام باللسان أصبحت كل هذه القوانين ملغاة، وانتقل الإنسان إلى طبيعة أخرى تحكمها قوانين أخرى، ألغت إلى وقت محدود، كل القوانين الأرضية التي اعتدنا الحياة بها، فإذا كان هذا يحدث للإنسان عندما ينام، وهو جسديًا لا ينتقل من مكانه فكيف بقدرة الله سبحانه وتعالى التي لا تحدها قيود ولا حدود، ألا تستطيع هذه القدرة أن تخضع الجسد البشري وهو مستيقظ لنفس القوانين التي يخضع لها وهو نائم؟ بل هي تمكن له من معجزات أكثر بكثير من ذلك، فإذا اقتربت الصورة من العقل البشري إلى هذا الحد، استطعنا أن نفهم أن المعجزات التي تمت لرسول الله ﷺ من خرق للقوانين البشرية والصعود إلى الملكوت الأعلى بالجسد، هي معجزات أراد الله أن يقربها لنا بأن جعل البشر العادي يخرج من قوانين الأرض أثناء النوم، فكيف بقدرة الله حين يريد أن يخرج رسوله من قوانين الأرض.

إذًا فالمعجزة تمت وتمّت بقدرة الله ورأى رسولُ الله ﷺ من آيات ربه الكبرى في السماء، أي أن موسى عليه السلام رأى آيات ربه الأرضية، أما محمد ﷺ فقد رأى

آيات ربه الكبرى في الملكوت الأعلى، وهنا الاختلاف بين المعجزتين.

أما حديث الله سبحانه وتعالى فقد تم في مكان المعجزة أو مكان الآيات التي أراد الله أن يكشف عنها لرسله، فكشف الله لموسى آياته الكبرى في الأرض، وكلّمه وهو على الأرض وكشف الله لمحمد ﷺ آياته الكبرى في الملكوت الأعلى، وكلمه عند سدرة المنتهى.

إذًا الإسراء والمعراج تمّا بالروح والجسد معًا، ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى أنبياءه معجزات وهذه المعجزات هي خرق لقوانين الأرض التي وضعها الله سبحانه وتعالى، ومعجزة إبراهيم ومعجزات موسى وعيسى كلها جاءت لتبطل مفعول قوانين أرضية وضعها الله سبحانه وتعالى للحياة في الأرض، فسلب الله النار خاصية الإحراق في معجزة إبراهيم، وأبطل قوانين الماء ليعبر موسى البحر، وأعطى عيسى عليه السلام القوانين التي يشفي بها المرضى ويحيي بها الموتى بإذن الله، وفي معجزة سيدنا محمد ﷺ خرق الله له قوانين الأرض وقوانين السماء فجعله ينتقل من الكعبة المشرفة إلى بيت المقدس في لحظات، وفي هذا خرق لقوانين الأرض، كمعجزة أرضية أن ينتقل الإنسان بجسده وبدون استخدام أي وسيلة أرضية متاحة من مكان إلى آخر في وقت لا يستغرق أكثر من دقائق، ولكن الله سبحانه وتعالى زاد على ذلك بأن خرق له قوانين السماء، فقانون السماء الذي وضعه الله سبحانه وتعالى هو ألا يصعد إنسان بجسده إلى السماء، ولكن هذا القانون أبطل اللهُ مفعوله لرسوله، وجعله يصعد بالجسد حتى سِدرة المنتهى، ثم أراه الآيات الكبرى في السماء.

على أن لنا حديثًا بعد ذلك حول الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: ٨، ٩].

أي نزل من مكانه إلى مكان أقرب، وهنا تدخل المسافات، ولكن المعنى مختلف تمامًا، فنحن نقيس البعد والقرب بالمسافة، ولكن الحقيقة هي غير ذلك، فنحن نأخذ الزمان والمكان أساسًا لنا، والزمان والمكان مخلوقان لله سبحانه

وتعالى، ومادام كل منهما مخلوقًا لله، فلا زمان ولا مكان في حكم الله، فلا يجب هنا أن نطبق قوانين البشر.



عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ

يأتي الحق سبحانه بعد ذلك بقصة أخرى من القصص التي جاء بها الله في هذه السورة[1] لموكب الرسل، فيأتي بقصة شعيب عليه السلام، ويقول سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [هود: ٨٤].

و ﴿ مَدْيَنَ ﴾ هو اسم ابن إبراهيم عليه السلام، ولم يكن هذا الابن موجودًا وقت بعثة شعيب، لكن القبيلة التي تناسلت منه سُمِّيت باسمه، وكذلك القرية التي أقامت فيها القبيلة سميت باسمه، فإن قلت إن شعيبًا أرسل لقبيلة مدين، فهذا قول سليم، وإن قلت إنه أرسل لقرية مدين، فهذا قول سليم أيضًا؛ لأن القرية لابد لها من سكان.

وقد بدأ شعيب رسالته مع قومه من حيث بدأ كل الرسل بالدعوة إلى قمة التدين، وهو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ولا إله غيره، وهذا هو القدر المشترك في كل الرسالات.

ثم قال لهم: ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٥- ٨٧].

---

(١) سورة هود.

وهذا القول يحمل أيضًا ردهم على دعوته لهم ألا يعبدوا غير الله، فلا إله غيره؛ وردوا كذلك على دعوته لهم ألا ينقصوا الكيل والميزان؛ وألا يبخسوا الناس أشياءهم؛ وأن يتيقنوا أن ما يبقى عند الله هو الخير لهم، وألا يعثوا في الأرض مفسدين.

وقالوا: أتنهانا أيضًا عن أن نفعل بأموالنا ما نشاء؟! وكأنهم قد عميت بصيرتهم؛ لأنهم إن أباحوا لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون؛ فغيرهم سيبيحون لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون؛ وستصطدم المصالح، ويخسر الجميع.

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ استمرار في التهكم الذي بدءوه بقولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾.

وأيضًا لم يقبلوا منه قوله بأن يحسنوا التصرف في المال، والعلة التي برروا بها كل هذا السَّفَه أن شعيبًا حليم رشيد؛ فكيف يدعوهم إلى ما يخالف أهواءهم؟!

ويأتي الحق سبحانه بما قاله شعيب عليه السلام فيقول جَلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

وهنا يعلن لهم شعيب عليه السلام أنه على يقين من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطاه حجة ومنهجًا، وقد رزقه الرزق الحسن الذي لا يحتاج معه إلى أحد؛ فأمور حياته ميسورة.

وقد يكون المقصود بالرزق الحسن رحمة النبوة.

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ﴾.

أي: أنني أطبق ما أدعوكم إليه على نفسي؛ فلا أنقص كيلاً أو أخسِر ميزانًا،

ولا أبخس أحدًا أشياءه؛ لأني لا أعبد غير الله.

ويوضح لهم شعيب عليه السلام مهمة النبوة؛ فيقول: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾.

فالنبوات كلها لا يرسلها الله تعالى إلا حين يطم الفساد، ويأتي النبي المُرسَل بمنهج يدل الناس إلى ما يصلح أحوالهم؛ من خلال «افعل، ولا تفعل» ويكون النبي المُرسَل هو الأسوة لتطبيق المنهج؛ فلا يأمر أمرًا هو عنه بنَجوة(1)؛ ويطبق على نفسه أولاً كل ما يدعو إليه.

ولذلك قال شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾.

لأن الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وما يدخل في طوعها.

ويقول شعيب عليه السلام بعد ذلك: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وهكذا نعلم أن هناك فرقًا بين العمل؛ وبين التوفيق في العمل؛ لأن جوارحك قد تنشغل بالعمل؛ ولكن النية قد تكون غير خالصة؛ عندئذ لا يأتي التوفيق من الله.

أما إن أقبلت على العمل؛ وفي نيتك أن يوفقك الله سبحانه لتؤدي هذا العمل بإخلاص؛ فستجد الله تعالى وهو يصوِّب لك أيَّ خطأ تقع فيه؛ وستنجز العمل بإتقان وتشعر بجمال الإتقان، وفي الجمال جلال.

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ما جاء على لسان شعيب عليه السلام: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: أنه لا يتوكل إلا على الله؛ ولا يصح أن تعطف على هذا القول شيئًا؛ لأنك إن عطفت على هذا القول وقلت: «على الله توكلت وعليك»، فتوقع ألا يوفقك الله، لأنك أشركت أحدًا غير الله(2).

---

(1) **النجوة**: المقصود أنك بعيد عمّا تأمر به.

(2) عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، قولوا: ما شاء الله ثم**

ونجد في القرآن الكريم قول الحق سبحانه على لسان هود ﵇:

﴿ تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [هود: ٥٦].

فلا تترك شيئًا يزحف على توكلك على الله تعالى؛ لأنك إليه تنيب؛ وترجع؛ كما قال شعيب ﵇: ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [هود: ٨٩].

يقول لهم شعيب ﵇: أرجو ألا تحملكم عداوتكم لي على أن تُجرموا جُرمًا؛ يكون سببًا في أن ينزل الحق سبحانه بكم عقابًا، مثلما أصاب القوم الذين سبقوكم؛ من الذين خالفوا رسلهم؛ فأنزل الله ﷻ عليهم العذاب كالغرق، والرجفة، والصيحة، والصاعقة؛ فاحذروا ذلك.

وشعيب ﵇ ينصحهم هنا حرصًا منه عليهم، على الرغم من علمه أنهم يكنون له العداء؛ لأنه دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام التي عبدها آباؤهم؛ ونهاهم عن إنقاص الكيل والميزان، وألا يبخسوا الناس أشياءهم؛ وسبق أن عذّب الحق سبحانه المخالفين لشرع الله من الأمم السابقة؛ ويذكرهم شعيب ﵇ بأقرب من عُذِّبوا زمانًا ومكانًا؛ وهم قوم لوط.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [هود:٩٠].

وهذه الآية تبين لنا أن الحق سبحانه لا يغلق أمام العاصي - حتى المُصِرّ على

= شاء فلان» أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٨٤)، وأبو داود في «سننه» (٤٩٨٠)، والحاكم في «مستدركه» (٣/ ٤٦٢). قال النووي في «الأذكار» (ص٣١٨): «هذا إرشاد إلى الأدب، وذلك أن الواو للجمع والتشريك، و«ثم» للعطف والتراخي، فأرشدهم ﷺ إلى تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه».

شيء من المعصية - باب التوبة.

والحق سبحانه يقول هنا ما جاء على لسان شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾.

ومادمتم ستستغفرونه عن الذنوب الماضية؛ وتتوبون إليه؛ بألا تعودوا إلى ارتكابها مرة أخرى؛ فالحق سبحانه لا يرد مَنْ قصد بابه: ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ .

لأن مغفرته تستر العذاب، ورحمته تمنع العذاب.

وجاء الحق سبحانه هنا بأوسع المعاني: المغفرة، والرحمة، ومعهما صفته «الودود» وهي من الود؛ والود هو الحب؛ والحب يقتضي العطف على قدر حاجة المعطوف عليه.

ويأتي الحق - سبحانه وتعالى - بعد ذلك بقول أهل مدين رَدًا على شعيب عليه السلام: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾ [هود: ٩١].

وهذا يُضاهي قول مشركي قريش لرسول الله ﷺ فقد قالوا: ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥].

والإيمان يتطلب قلبًا غير ممتلئ بالباطل؛ ليُحسن استقباله؛ أما القلوب الممتلئة بالباطل، فهي غير قادرة على استقبال الإيمان؛ إلا إذا أخلت العقولُ تلك القلوبَ من الباطل، وناقشت العقول كُلاً من الحق والباطل، ثم تأذن لما اقتنعت به أن يدخل القلوب.

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يطبع ويختم على القلوب الممتلئة بالكفر؛ فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان.

ولم يكتف أهل مدين بإعلان الكفر؛ بل هددوا شعيبًا وقالوا: ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود:٩١].

وهذا التهديد يحمل تحدِّيًا، وكأنهم ظنوا أن بقدرتهم الفتك به؛ لأنهم يبغضون حياته؛ وأعلنوا حجة واهية؛ وهي أن رهطه - أي: قومه وأهله؛ لأن الرهط هم الجماعة التي يتراوح عدد أفرادها بين ثلاثة وعشرة أفراد - مازالوا على عبادة الأصنام؛ وأن هذا الرهط سيغضب لأي ضرر يصيب شعيبًا؛ وتناسوا أن الذي أرسل شعيبًا عليه السلام لابد أن يحميه، وهم - بتناسيهم هذا - حققوا مشيئة الله عز وجل بأن يُسخِّر الكفر لخدمة الإيمان.

ثم يأتي الحق سبحانه من بعد ذلك بردِّ شعيب عليه السلام على قومه؛ فيقول: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ [هود: ٩٢].

وهنا يتساءل شعيب عليه السلام باستنكار: أوضعتم رهطي في كفة؛ ومعزَّة الله تعالى في كفة؟! وغلَّبتم خوفكم من رهطي على خوفكم من الله؟! ولم يأبه شعيب عليه السلام باعتزازهم برهطه أمام اعتزازه بربه؛ لأنه أعلن - من قبل - توكله على الله؛ ولأنه يعلم أن العزة لله تعالى أولاً وأخيرًا.

ولم يكتفوا بذلك الاعتزاز بالرهط عن الاعتزاز بالله؛ بل طرحوا التفكير في الإيمان بالله وراء ظهورهم؛ لأن شعيبًا عليه السلام يقول لهم: ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾.

أي: لم يجعلوا الله - سبحانه - أمامهم، فلم يأبهوا بعزة الله؛ ولا بحماية الله؛ وجعلوا لبعض خلقه معزَّة فوق معزَّة الله.

ولم يقل: ﴿ ظِهْرِيًّا ﴾ نسبة إلى «الظهر»، فعندما ننسب تحدث تغييرات، فعندما ننسب إلى اليمن نقول: يمنيّ، ونقول: يمانيّ، فالنسب هنا إلى الظهري، وهي المنسي والمتروك، فأنت ساعة تقول: أنت طرحت فلانًا وراء ظهرك، يعني جعلته بعيدًا عن الصورة بالنسبة للأحداث، ولم تحسب له حسابًا، إذًا فهناك تغييرات تحدث في باب النسب.

ويذكِّرهم شعيب عليه السلام بقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾.

أي: أن كل ما تقولونه أو تفعلونه محسوب عليكم؛ لأن الحق سبحانه لا تخفَى عليه خافية، وقد سبق أن عرفنا أن القول يدخل في نطاق العمل؛ فكلُّ حدث يقال له: «عمل»؛ وعمل اللسان هو القول؛ وعمل بقية الجوارح هو الأفعال.

وقد شرَّف الحق سبحانه القول لأنه وسيلة الإعلام الأولى عنه سبحانه.

يقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب عليه السلام: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾ [هود: ٩٣].

إذًا فشعيب عليه السلام عنده القضية المخالفة؛ لأن الله تعالى عنده أعزُّ من رهطه؛ وباعتزازه بربِّه قد آوى إلى ركن شديد، وبهذا الإيمان يعلن لهم: افعلوا ما في وُسعكم، وما في مُكنتكم هو ما في مُكنة البشر، وسأعمل ما في مُكنتي، ولست وحدي، بل معي الله سبحانه وتعالى؛ ولن تتسامى قوتكم الحادثة على قدرة الله المطلقة.

ولم يَقُل شعيب عليه السلام هذا القول عن ضعف، ولكن قاله ردًّا على قولهم: ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ ﴾ [هود: ٩١].

وأبرز لهم مكانته المستمدة من قوة مَن أرسله سبحانه وتعالى، وقال: ﴿ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ ﴾.

وهكذا أوضح لهم: أنا لن أقف مكتوف الأيدي، لأني سأعمل على مكانتي، و﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾.

أي: أن المستقبل سوف يبيِّن مَن مِنَّا على الحق ومَن مِنَّا على الضلال، ولمن سيكون النصر والغلبة، ومن الذي يأتيه الخزي؛ أي أن يشعر باحتقار نفسه وهوانها؛ ويعاني من الفضيحة أمام الخلق؛ ومَن مِنَّا الكاذب ومَن على الحق.

وكان لابد أن تأتي الآية التالية: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود: ٩٤].

وسمَّى الحق سبحانه هنا العذاب بالصيحة؛ وقال: ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾.

وسمَّى الحق سبحانه في سورة الأعراف العذاب الذي لحق بهم بـ «الرجفة»[1]؛ فقال: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٨].

وسماه في قصة قوم عاد: ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦].

وسمَّاه بالخسف في عذاب قارون.

ومن عظمة التوجيه الإلهي أن العذاب كان ينتقي القوم الكافرين فقط؛ ولا يصيب الذين آمنوا، بدليل قول الحق سبحانه: ﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾.

ولا يقدر على ذلك إلا إله قادر مقتدر؛ يُصرِّف الأمور كما يشاء سبحانه.



(١) وسمّاه في سورة الشعراء «عذاب يوم الظّلة» . قال تعالى: ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ [الشعراء: ١٨٩].

الحوتُ الأَمِين

بعث الله - سبحانه - يونس عليه السلام إلى أهل «نينوى» من أرض الموصل بالعراق.

وكانوا يعبدون الأصنام ولا يؤمنون بالله تعالى.

فدعاهم «يونس» عليه السلام إلى توحيد الله، فكذّبوه وتمّردوا عليه.. فلمّا طال ذلك عليه من أمرهم.. ظن عليه السلام أنه قد أدى الرسالة، وقام بالمهمّة التي أمره الله بها.. فخرج من مدينتهم مغاضبًا.. ووعدهم حلول العذاب بعد ثلاث.

وعن حاله بعد خروجه، يقول الحق - سبحانه - : ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧].

«ذو النون»: هو سيدنا يونس بن متى صاحب الحوت، والنون من أسماء الحوت، وجمعه «نينان» كحوت وحيتان؛ لذلك سُمِّيَ به، وقد أُرسل يونس عليه السلام إلى أهل «نِينَوىَ» من أرض الموصل بالعراق.

وقد قال النبي ﷺ لعداس: «**أنت من بلد النبي الصّالح: يونس بن مَتّى**»[1].

والنون أيضًا اسم لحرف من حروف المعجم، لكن قد يوافق اسمُ الحرف اسمًا لشيء آخر، كما في «ق» وهو اسم جبل، وكذلك السين، فهناك نهر اسمه نهر السين، وهكذا تصادف أسماء الحروف أسماء أشياء.

وقوله تعالى: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ مادة «غضب» نأخذ منها الوصف للمفرد،

(١) أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/ ٤٢١)، وفيه: أن عداسًا قال: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ : «**ذاك أخي، كان نبيًا وأنا نبي**»، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يُقبل رأسه ويديه وقدميه.

نقول: غاضب وغضبان، أمّا «مغاضب» فتعطي معنى آخر؛ لأنها تدل على المفاعلة، فلابُدَّ أن أمامك شخصًا آخر، أنت غاضب وهو غاضب، مثل: شارك فلان فلانًا.

لكن في أصول اللغة رجحنا جانب الفاعلين في أحدهما، والمفعُولية في الآخر، كما نقول: شارك زيدٌ عَمرًا، فالمشاركة حدثت منهما معًا، لكن جانب الفاعلية أزيد من ناحية زيد، فكلٌّ واحد منهما فاعل مرة ومفعول أخرى.

واللغة أحيانًا تلحظ هذه المشاركة، فتُحمِّل اللفظ المعنيين معًا، الفاعل والمفعول، كما جاء في قَول الشاعر العربي الذي يصف السير في أرض معقربة، والتي إذا سِرت فيها دون أن تتعرض للعقارب فإنها تسالمك ولا تؤذيك، فيقول:

قَدْ سَالَمَ الحياتُ مِنْه القَدَمَا الأفْعُوانَ[1] والشُّجاع القَشْعَمَا[2]

أي أنه سَالَمَ الحيات، فالحيات سالمتْه، فالمسالمة منهما معًا، لكن غلب جانب الحيات فجاءت فاعلاً؛ لأن إيذاءَها أقوى من إيذائه، فلما أبدل من الحيات «الأفعوان والشجاع القشعما» وهما من أسماء الحيات كان عليه أن يأتي بالبدل مرفوعًا تابعًا للمبدل منه، إلا أنه نصبه فقال: الأُفعَوانَ والشجاعَ القشعمَا؛ لأنه لاحظ في جانب الحيات أنها أيضًا مفعولٌ.

فَمِمَّ غضب ذو النون؟

غضب لأن قومه كذبوه، فتوعدهم إنْ لم يتوبوا أن يُنزل بهم العذاب، وأتى الموعد ولم ينزل بهم ما توعدهم به، فخاف أن يُكذِّبوه، وأن يتجرَّأوا عليه، فخرج

(١) **الأفعوان**: ذَكَر الأفاعي، والقشعم: الضخم «لسان العرب - مادتا: فعا، قشعم».

(٢) أورد البيت ابن منظور في «لسان العرب» (مادة: شجع) وعزاه للأحمر ولكن بلفظ «الشجاع الشجعما» وقال: الشجعم: الضخم منها، وقيل: هو الخبيث المارد منها، ثم قال: «نصب الشجاع والأفعوان بمعنى الكلام؛ لأن الحيات إذا سالمت القدم فقد سالمها القدم، فكأنه قال: سالم القدم الحيات، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها».

من بينهم مغاضبًا إلى مكان آخر، وهو لا يعلم أنهم تابوا فأخّر الله عذابهم، وأجّل عقوبتهم.

وفي آية أخرى يُوضِّح الحق سبحانه هذا الموقف: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾ [يونس: ٩٨].

أي لم يحدث قبل ذلك أن آمنت قرية ونفعها إيمانها إلا قرية واحدة هي قوم يونس، فقد آمنوا وتابوا فأجّل الله عذابهم.

إذًا خرج يونس مُغَاضِبًا لا غاضبًا؛ لأن قومه شاركوه، وكانوا سبب غضبه، كما حدث في مسألة هجرة النبي ﷺ فرسول الله هاجر من مكة لكنه لم يْهجرهَا، فسُمِّيَت هجرة؛ لأن أهل مكة هجروا رسول الله أولاً، وهجروا دعوته وألجأوه أيضًا إلى الهجرة وتَرك مكة، فهم طرف في الهجرة وسببٌ لها.

لذلك قال ﷺ مخاطبًا مكة: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليَّ، ولولا أنَّ أهلك أخرجوني منك ما خرجتُ**»(١).

وقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، البعض ينظر في الآية نظرةً سطحية، فيقولون: كيف يظن يونس أن الله لن يقدر عليه؟ وهذا الفَهم ناشئ عن جَهل باستعمالات اللغة، فليس المعنى هنا من القدرة على الشيء والسيطرة، ولو استوعبت هذه المادة في القرآن «قَدَرَ» لوجدت لها معنى آخر، كما في قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧] معنى قُدِر عليه رزقه يعني: ضُيّق عليه.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الإسراء: ٣٠].

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٣١٠٨)، والدارمي في «سننه» (٢/ ٢٣٩) من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو على راحلته واقفًا بالحزورة يقول.. الحديث.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

إذًا فقوله: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي: أن يونس لما خرج من بلده مُغاضبًا لقومه ظنَّ أن الله لن يُضيِّق عليه، بل سيُوسِّع عليه ويُبدله ببلده مكانًا أفضل منها، بدليل أنه قال بعدها: ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ[1] أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

يريد منه سبحانه تنفيس كربته، وتنفيس الكربة لا يكون إلا بصفة القدرة له.

فكيف يستقيم المعنى لو قلنا: لن يقدر عليه بمعنى: أن الله لا يقدر على يونس[2]؟!

إذًا المعنى : لن يُضيِّق عليه؛ لأنه يعلم أنه رسول من الله، وأن ربه لن يُسلمه، ولن يخذله، ولن يتركه في هذا الكرب.

وقد وُجدَت شبهة في قصة يونس ﷺ في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

فكيف يلبث في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون، مع أن يونس سيموت، وسيأتي أَجَل الحوت ويموت هو أيضًا، أم أن الحوت سيظل إلى يوم القيامة يحمل يونس في بطنه؟

---

(١) قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، وكذا روى عن ابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير والحسن وقتادة، قاله ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٩٢).

(٢) قال القرطبي في «تفسيره» (٦/ ٤٥١١): «هذا قول مردود مرغوب عنه؛ لأنه كفر، وذكر الثعلبي وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه: فظن أن لن نضيق عليه».

وفات هؤلاء نظرية الاحتواء في المزيجات، كما لو أذبتَ قالبًا من السكر في كوب ماء، فسوف تحتوي جزئيات الماء جزئيات السكر، والأكثر يحتوي الأقل، فقالب السكر لا يحتوي على الماء، إنما الماء يحتوي السكر.

فلو مات الحوت، ومات في بطنه يونس عليه السلام وتفاعلت ذراتهما وتداخلت، فقد احتوى الحوتُ يونسَ إلى أن تقوم الساعة، وعلى هذا يظل المعنى صحيحًا، فهو في بطنه رغم تناثر ذراتهما(١).

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

استجاب الله نداء يونس عليه السلام ونجَّاه من الكرب: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

إذًا فهذه ليست خاصة بيونس، بل بكل مؤمن يدعو الله بهذا الدعاء.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي: مثل هذا الإنجاء نُنجي المؤمنين الذين يفزعون إلى الله بهذه الكلمة: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فيُذهِب الله غَمَّه، ويُفرِّج كَربه.

لذلك يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «ثوِّروا القرآن» يعني: أثيروه ونقِّبوا في آياته لتستخرجوا كنوزه وأسراره.

وكان سيدنا جعفر الصادق من المثوِّرين للقرآن المتأملين فيه، وكان يُخرِج من آياته الدواء لكل داء، ويكون كما نقول «روشتة» لكل أحوال المؤمنين.

والمؤمن يتقلّب بين أحوال عدة منها: الخوف، سواء الخوف أن يفوته نعيم الدنيا،

---

(١) قال قتادة في قوله تعالى: ﴿للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ [الصافات: ١٤٤] قال: لصار له بطن الحوت قبرًا إلى يوم القيامة. أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ١٢٧)، وعزاه لعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

أو الخوف من جبار يهدده، وقد يشعر بانقباض وضيق في الصدر لا يدري سببه وهذا هو الغَمُّ، وقد يتعرض لمكر الماكرين، وكَيد الكائدين، وتدبير أهل الشر.

هذه كلها أحوال تعتري الإنسان، ويحتاج فيها لِمَنْ يسانده ويُخرجه مما يعانيه، فليس له حَول ولا قوة، ولا يستطيع الاحتياط لكل هذه المسائل.

وقد تراوده بهجة الدنيا وزُخرفها، فينظر إلى أعلى مِمّا هو فيه، ويطلب المزيد، ولا نهايةَ لطموحات الإنسان في هذه المسألة، كما قال الشاعر:

تَمُـــوتُ مـــع المـــرْءِ حَاجَاتُـــه وتَبْقَـــى لَـــهُ حَاجَـــةٌ مَـــا بَقِـــى

والناس تحرص دائمًا على أن تستوعب نِعَم الحياة وراحتها، وهم في ذلك مُخطِئون؛ لأن تمام الشيء بداية زواله، كما قال الشاعر:

إذَا تَـــمَّ شَـــيءٌ بَـــدَا نَقْـــصُه تَـــرقَّبْ زَوَالاً إذَا قـــيلَ تَـــم

لأن الإنسان ابنُ أغيار، ولا يدوم له حال من صحة أو مرض، أو غنىً أو فقر، أو حزن أو سرور، فالتغيُّر سِمَة البشر، وسبحان مَن لا يتغير؛ إذًا فماذا بعد أن تصل إلى القمة، وأنت ابنُ أغيار؟!

ونرى الناس يغضبون ويتذمرون إن فاتهم شيء من راحة الدنيا ونعيمها، أو انتقصتهم الحياة شيئًا، وهم لا يدرون أن هذا النقص هو الذي يحفظ عليك النعمة، ويدفع عنك عيون الحاسدين فيُسلِّم لك ما عندك.

فتجد مثلاً أسرة طيبة حازت اهتمام الناس واحترامهم، غير أن بها شخصًا شريرًا سيِّئًا، يعيب الأسرة، فهذا الشخص هو الذي يدفع عنها عُيون الناسِ وحَسَدهم.

وقد أخذ المتنبي هذا المعنى، وعبَّر عنه في مدحه لسيف الدولة[1]، فقال:

---

(١) **سيف الدولة**: هو عليّ بن عبد الله بن حمدان، صاحب المتنبيّ، امتلك واسطًا ودمشق =

شَـخَصَ الأَنَـامُ إِلَـى كَمَالِـكَ فَاسْـتعِذ   مِـنْ شَـرِّ أعيُـنهِمْ بعَـيْبٍ وَاحِـدِ

نعود إلى «روشتة» سيدنا جعفر الصادق التي استخلصها لنا من كتاب الله، كما يستخلص الأطباء الدواءَ والعقاقير من كتب الحكماء:

يقول: عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فإني سمعت الله بعقبها يقول: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

وعجبتُ لَمنْ اغتمَّ، ولم يفزع إلى قوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فإني سمعت الله بعقبها يقول: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وعجبتُ لمن مُكِرَ به، ولم يفزع إلى قوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [غافر: ٤٤].

فإني سمعت الله بعقبها يقول: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ﴾ [غافر: ٤٥].

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها، ولم يفزع إلى قوله تعالى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [الكهف: ٣٩].

فإني سمعت الله بعقبها يقول: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف: ٤٠].

وهكذا يجب على المؤمن أن يكون مُطمئنًا واثقًا من معيّة الله، ويضع كما نقول: «في بطنه بطيخة صيفي»؛ لأنه يفزع إلى ربه بالدعاء المناسب في كل حال

= وحلب، وتُوفّي فيها عام ٣٥٦هـ.

من هذه الأحوال، وحين يراك ربك تلجأ إليه وتتضرع، وتعزو كل نعمة في ذاتك أو في أهلك أو في مالك وتنسبها إلى الله، وتعترف بالمنعِم سبحانه فيعطيك أحسنَ منها.



سِحرُ النَّبي ﷺ

إذا كنا سنتحدث عن رسول الله ﷺ والسحر، فلابد قبل أن نبدأ الحديث بأن نقول: إن رسل الله جميعًا من البشر وماداموا من البشر فإنه تحكمهم قوانين البشر، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن يظهر عجز خلقه أمام قوته وقدرته فإنه يمكنهم من رسوله ثم يعجزون أن ينالوا من الرسول.

فمثلاً حين قرر قوم إبراهيم عليه السلام أن يحرقوه في النار، كان هذا محاولة لحرق رسول من رسل الله، وكان من الممكن أن ينجو إبراهيم عليه السلام بعدة طرق: أولها أن يخفيه الله عن أعين الكفار فلا يرونه، أو يوحي إليه بمكان مخبأ أمين لا يصلون إليه ولا يخطر على بالهم، أو أن يأتي به الكفار فينزل المطر فيطفئ النار وينجو إبراهيم عليه السلام، ولكن الله سبحانه وتعالى جعل الكفار يعثرون على إبراهيم، وجعلهم يمسكون به ويلقونه في النار، وجعل النار مستعرة، لا ينزل عليها مطر ليطفئها، ثم تمت المعجزة، وقال الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وموسى عليه السلام نبي الله وكليمه، أراده الله أن يخوض تجربة السحرة، فجاء به ودربه على ما سيحدث، دربه الحق سبحانه وتعالى على المعجزة وعلى السحر، والمعجزة هي أن تتغير العصا إلى حية حقيقية، أي تتغير طبيعتها من عصا إلى حية، ولذلك عندما طلب منه الحق سبحانه وتعالى أن يلقي عصاه: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾[طه: ١٩، ٢٠].

أي أن موسى عليه السلام أحس بالخوف، وهذا دليل على أن عينيه سحرتا، ولو أنه كان يرى حبال وعصى سحرة فرعون على حقيقتها كحبال وعصي لما أحسّ بالخوف، ولماذا يحس بالخوف وهو يرى أمامه حبالاً وعصيا ألقيت وظلت كما هي دون أن تتغير طبيعتها، لابد أنه رآها على الشكل الذي أراد سحرة فرعون أن

يتخيلها عليها، ولا يمكن أن يحدث ذلك ويتخيل موسى عليه السلام أن الحبال والعصى تحولت إلى حيات إلا أن يكون سحرة فرعون قد سحروا عينيه ولأنه رسول الله ثبته الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٨، ٦٩].

إذًا فالحق سبحانه وتعالى حين سُحِرت عينا موسى، ثبته بالوحي، وطلب منه ألا يخاف ويلقي عصاه لتتم المعجزة، وقد حدث ذلك رغم تدريب الحق جل جلاله لموسى على كل ما سيحدث مع السحرة سواء معجزة تحول العصا إلى حية، أو التخيل الذي سيحدث له.

وليس هذا عيبا، فموسى بشر رسول، وهو محكوم بقوانين بشريته ولكنه مؤيد من الله سبحانه وتعالى مثبت منه.

ونأتي إلى رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري في «صحيحه» (١٠/ ١٩٢)، ومسلم في «صحيحه» (٤/ ١٧١٩) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَحَرَ رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق، يقال له لبيد بن الأعصم، قالت: حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى إذا كان ذات يوم - أو ذات ليلة - دعا رسول الله ﷺ ثم دعا ثم دعا، ثم قال: «**يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه: جاءني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رِجْلَيَّ أو الذي عِند رِجليَّ للذي عند رأسي: ما وجعُ الرجل؟ قال: مطبوبٌ، أي مسحور، قال: مَن طَبَّهُ؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال: في أي شيء؟ قال: في مُشطٍ ومُشَاطَةٍ، وجُفَّ طلعة ذكر، قال: فأين هُو؟ قال: في بئر ذي أروان**» قالت: فأتَاها رسولُ الله ﷺ في أُناس من أصحابه، ثم قال: «**يا عائشة والله لكأنَّ ماءها نُقَاعَةُ الحِنَّاء، ولكأنَّ نَخلَهَا رُءوسُ الشياطين**» قالت: فقلتُ: يا رسول الله أفلا أحرقتَهُ؟ قال: «**لا أمَّا أنا فقد عافاني الله وكَرِهتُ أن أُثِيرَ**

على الناس شرًا، فأمرتُ بِها فَدُفِنَت».

إلى هنا وينتهي الحديث الذي ورد في البخاري ومسلم، عما حدث لرسول الله ﷺ، وقد أثار هذا الحديث جدلاً كبيرًا بين العلماء.

ونحن نقول: المهم هو توثيق الحديث.. أما كونهم سحروا رسول الله ﷺ فلا شيء في ذلك: الله تبارك وتعالى تحدى الإنس والجن في القرآن الكريم، فقال ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

إذًا فالتحدي في القرآن الكريم هو للإنس والجن، ماذا فعل الإنس؟ وماذا فعل الجن؟

الإنس قاوموا رسول الله وآذوه وعادوه، وعذبوا المؤمنين وجاهروا بالعداء للدين، وحاولوا منع الناس من الإيمان، وتآمروا على قتل الرسول ﷺ وأحبط الله أعمالهم في كل هذا.

إذًا الإنس فشل سواء في مجاهرته بالعداء والأذى، أو في تبييته وتآمره في الخفاء.

بقي أن يستخدم الإنس قوة أخرى يستعين بها، بشرط أن تكون أقوى من الإنس وأكثر قدرة، أي أن هذه القوة التي يستعان بها لابد أن تكون من جنس آخر غير الإنسان، لأن قوى الإنسان فشلت أمام مواجهة الدعوة لدين الله، والتآمر على رسوله ﷺ.

وكانت هذه القوة هي قوة الجن، فأراد الله ﷻ أن يتحداهم بفشل قوة الجن أيضًا، ليعرف الناس جميعًا، أن قوة الإنس لن تنال من رسول الله ﷺ وأن قوة الجن لن تنال أيضًا من رسول الله ﷺ ماذا فعلوا؟

استعانوا بالسحر، فدله الحق سبحانه وتعالى على أنهم سحروه، وأرشده جل جلاله إلى مكان السحر، وأبلغه عمن قام بسحره، لتعرف الدنيا كلها أنهم لن يقدروا على محمد ﷺ سواء جاهروه بالعداء أو أخفوا هذا العداء وتآمروا عليه لقتله، أو استعانوا بجنس آخر هو الجن، لأن الله سبحانه وتعالى الذي أرسله يكشف له ما يحدث ويبطل كيد الذين يتآمرون، سواء كانوا إنسًا أو جنًا.

إذًا كون محمد ﷺ سحره اليهود، هذا ليس اتهامًا ضده، ولكنه تحد للإنس والجان بأن يفعلوا أقصى ما يستطيعون ضد رسول الله ﷺ والله جل جلاله سينصره عليهم، والله سبحانه وتعالى قد أدخل الجن في التحدي بالنسبة للقرآن ومنهج الإسلام.

وكان لابد تحقيقًا لهذه الآيات الكريمة، التي تحدت الإنس والجن، أن يتم تحد حقيقي لقوى الجان، فيحاولون النيل من رسول الله ﷺ ويفشلون.. وأن يكون هذا معروفًا.. ليس للجن وحدهم.. ولكن للإنس والجن.. لأن رسول الله ﷺ مرسل للاثنين، الإنس والجن، فلابد أن يعرفوا أن كيد الإنس والجن مجتمعين لن ينالوا منه شيئًا.

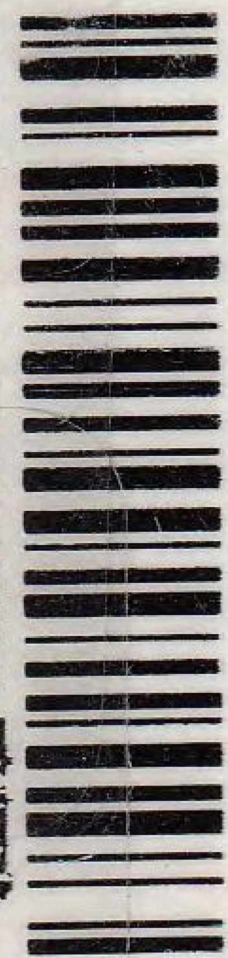
ولو أن هذا السحر حدث خفية، وليس علنًا بحيث عرف به الناس، لقالوا إن القرآن قد تحدى الإنس والجن، والإنس دخلوا في التحدي وفشلوا، ولكن الجن لم يدخلوا، وربما لو كانوا قد دخلوا في التحدي لنجحوا، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يُثبتَ لهم أن الجن لو دخلوا في التحدي لفشلوا.



الفهرس



دار التوفيقية للتراث





خلف الجامع الأزهر